

جان بیرثیروی

عذارى سرقوستة

روایت

ترجمت:
الأمجد العثماني

عذارى سرقوستة

LES VIERGES de SYRACUSE

تأليف: جان بيرثيروي

ترجمة: الأمجد العثماني

رواية

الكتاب: عذارى سرقوسة

تأليف: جان بيرثيرو

ترجمة: الأمد العثماني

النوعية: رواية

الإصدار: 2024

التصميم والتنسيق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل الحقوق محفوظة لدى المترجم.

عذارى سرقوسة

LES VIERGES de SYRACUSE

JEAN BERTHEROY

Librairie Paul Ollendorff, Paris, 1902

PARIS société d'éditions littéraires et artistiques Librairie

Paul Ollendorf 50, chaussée d'antin, 50

1902

Jean Bertheroy

De son vrai nom Berthe Clorine Jeanne Le Barillier

Née à Bordeaux le 24 juillet 1858

Morte au Cannet le 24 janvier 1927

عداری سرقوسته

تألیف جان بیرتروی

Les vierges de Syracuse

Ce roman est édité en 1902

Traduit par : Al Amjed Al Othmani

معلومات إضافية

أضافها المترجم في هذه الصفحة و في الهوامش

سرقوسة أو سيراكوسة أو سيراكوزا (سيراكوزا بالإيطالية، وساراوسا بالصقلية) هي عاصمة مقاطعة سيراكوزا الإيطالية، وتقع على الساحل في جنوب شرق صقلية. تأسست سيراكوزا في القرن الثامن (734) قبل الميلاد على يد المستعمرين اليونانيين من كورنثوس، وظلت عاصمة الجزيرة طوال العصر الروماني في القرن الأول قبل الميلاد.

يقال إن الفينيقيين هم من أطلقوا على الموقع اسم "سور-ها-كوسم"، أي "حجر النورس"، ومنه اشتق اسم سيراكوزا (وعربه العرب سرقوسة). تأسست سيراكيوز على يد أرخياس، الذي جاء من كورنثوس اليونان في نفس الوقت تقريبًا مع ناكسوس وميجارا...

أثناء هجوم الأسطول الروماني على سيراكوزا، التي كانت مستعمرة يونانية آنذاك، تقول الأسطورة أن أرخميدس طور مرايا عملاقة لعكس أشعة الشمس وتركيزها في أشعة السفن الرومانية، وبالتالي إشعالها وحرقها. وأرخميدس عالم قديم ولد وتوفي بسيراكوزا (287 قبل الميلاد - 212 قبل الميلاد) وهي الفترة التي تدور فيها أحداث هذه الرواية.

سمّاهما العرب عند احتلالهم لصقلية سرقوسة وقد اخترتها لترجمة العنوان. فمنذ عام 827 م، تم غزو صقلية البيزنطية من قبل جيوش شمال أفريقيا. وحتى منتصف القرن الحادي عشر، كانت الجزيرة مندمجة جزئياً ثم كلياً في العالم الإسلامي. وهو تاريخ ساهم في تفردھا الثقافي.

وستظل الترجمة نافذة مفتوحة على ثقافات العالم
والتراث الإنساني الخالد
الأمجد العثماني

عذارى سرقوسة تأليف جان بيرتروي

رواية ترجمها من الفرنسية الأمد العثماني

"إنهن عذارى سرقوسة، حارسات حرية المدينة، و كاهنات أرتميس المقدسات اللواتي قيل عنهن "لا يحق لأحد أن يتأمل عري جباههن ولا أن يلمس أطراف زنودهن".

وإنها سرقوسة أجمل مدن جزيرة صقلية زمن اليونانيين القدامى بمجدها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وأبهتها وصراعها مع محيطها روما وقرطاج و أثينا في زمن ما قبل الميلاد في نافذة مفتوحة على التراث الإنساني الخالد.

الأمد العثماني

الفهرس

11.....	الكتاب الأول نافورة أريتوسا
12.....	الفصل الأول
18.....	الفصل الثاني
24.....	الفصل الثالث
33.....	الفصل الرابع
39.....	الفصل الخامس
47.....	الفصل السادس
58.....	الفصل السابع
65.....	الفصل الثامن
74.....	الفصل التاسع
81.....	الكتاب الثاني أخرادين
82.....	الفصل الأول
90.....	الفصل الثاني
99.....	الفصل الثالث
108	الفصل الرابع
120	الفصل الخامس
129	الفصل السادس
140	الفصل السابع
150	الفصل الثامن

159	الكتاب الثالث 159 أحياء سرقوسة.....
160	الفصل الأول.....
172	الفصل الثاني.....
180	الفصل الثالث.....
186	الفصل الرابع.....
195	الفصل الخامس.....
203	الفصل السادس.....
212	الفصل السابع.....
219	الفصل الثامن.....
228	الفصل التاسع.....
237	الكتاب الرابع سينا.....
238	الفصل الأول.....
246	الفصل الثاني.....
252	الفصل الثالث.....
260	الفصل الرابع.....
268	الفصل الخامس.....
276	الفصل السادس.....
284	الفصل السابع.....
292	الفصل الثامن.....

الجزء الأول السلم

الكتاب الأول

نافورة أريتوسا¹

¹ La fontaine Aréthuse نافورة أريتوسا (بالإيطالية: فونتي أريتوسا، باليونانية القديمة (هي نبع مياه عذبة في جزيرة أورتيجيا في المركز التاريخي لمدينة سيراكوزا، ...

الفصل الأول

السفينة المسرح، ضخمة ومزينة بالورود، تموجت على الأمواج الفضية لبحر صقلية² - ومن الشاطئ ستمائة ألف صوت يردّدون الجوقة القديمة لهوميروس³ الإلهي.

لأنهم كانوا هناك، شعب سرقوسة⁴ كله، متحمسين ونابضين بالحياة، متحمسين وحساسين، كما كانوا منذ أربعة قرون عندما نبتوا لأول مرة من الكرمة الدورية، محتفظين من اليونان بأفضل ما في روحهم وعبقريتهم، بطعم الحرية الذي لا يفنى.

تموجت السفينة المسرح على أمواج بحر صقلية الفضية... كانت قريبة من الشاطئ بما يكفي لكي يتمكن الجمهور من مشاهدة تفاصيل الملحمة، وظهرت في مجدها الجديد أمام ميناء المدينة المزدوج، مقابل قصر الملوك. وكان الملك نفسه، هيرون الثاني⁵ "الطاغية الصّالح"، هو الذي أمر ببنائها وإرسالها هناك من أجل متعة شعبه، لتعزيز حبّ الأساطير المقدّسة والسّمح للجميع بملء عيونهم وأذانهم بالجمال الهيليني.

² Sicile تقع صقلية، وهي أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، قبالة طرف الحذاء الإيطالي. يتجلى تاريخها الغني في مواقع مثل وادي المعابد، وهي أطلال 7 معابد يونانية محفوظة جيداً.

³ Homère هو شاعر من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

⁴ Syracuse هي عاصمة مقاطعة سيراكوزا الإيطالية، وتقع على الساحل في جنوب شرق صقلية.

⁵ Hiéron II ولد عام 308 قبل الميلاد في سيراكوز وتوفي عام 215 قبل الميلاد في المدينة نفسها) كان طاغية سيراكوز بين عامي 270 قبل الميلاد و215 قبل الميلاد.

وعلاوة على ذلك، لم يكن من الممكن أن يكون أي ديكور أكثر ملاءمة للأعمال الماهرة للأبطال. وعلى سطح السفينة، كانت ظلال الممثلين تكبر وتبدو وكأنها ترتفع إلى السماء. تحرك أكيليوس⁶ المبتهج وأسيرته بريسييس و أغاممنون⁷ ذو الوجه البرونزي بين قوس البحر اللامع وجرم السماء المضيء. واكتسبت إيماءاتهم فضيلة أكثر سموًا، بينما اختلطت أنغام الكورس مع أنفاس الأمواج المتلاحقة وأنفاس بوسيدون⁸ المدوية.

والآن، فوق سرقوسة، بين جزيرة أورتيجيا⁹، المهد الأول للمدينة، والسهل المثلث الهائل حيث نمت المدينة من ربعها إلى ربعها، وفوق القلعة نفسها والسد الذي يربط الجزيرة بالبر الرئيسي، كان هناك في الضوء الصافي لشهر السنابل يسطح ويتألق بجاسوس الذهبي¹⁰ لكورنثوس¹¹ و سرقوسة رمز الينابيع المتدفقة والأفكار الهوائية، ابن بوسيدون والجورجون¹² الذي

⁶ Akilleus كان أخيل (باليونانية القديمة أخيليس كان بطلاً أسطورياً من أبطال حرب طروادة، وهو ابن بيليوس، ملك فيثيا في ثيساليا، وثيرتيس،

⁷ Briséis بريسييس هو مجرد لقب يعني "ابنة بريسييس"، وتدعي أن اسمها الأول الحقيقي هو هيبودامي.

⁸ Poséidon إله البحار اليوناني، ابن كرونوس وريا. كان اسمه معروفاً بالفعل في العصر الميسيني.

⁹ Ortygie جزيرة أورتيجيا (بالإيطالية: أورتيجيا) هي جزيرة صغيرة يقع عليها المركز التاريخي لمدينة سيراكيوز في صقلية. وهي منفصلة

¹⁰ Pégase الحصان بيغاسوس هو أحد أشهر الشخصيات المعروفة في الأساطير الإغريقية. وغالباً ما يُصور بأجنحة وله القدرة على الطيران.

¹¹ Corinthe كورنثوس (اليونانية القديمة واليونانية الحديثة كورينثوس هي مدينة ساحلية رئيسية في اليونان الحديثة، عاصمة منطقة

¹² La Gorgone في الأساطير الإغريقية

اختلط دمه القرمزي بسمّ الأمواج المر، الذي لا ينفك يرفع الرجال على جناحيه المرتعشين ويحملهم إلى أعالي الشعر واللامعقول.
أشرق بيجاسوس ساطعًا على جباه الستمئة ألف من السّرقوسيين المحتشدين. هو وحده كان روح الدوريان التي نفخت فيه الروح، وكان فمه المتلهف الذي لم تمسه اللقمة قط، يرغي برغوة بيضاء كالبحر، وساقاه المتوترتان بحوافرهما الباهرة مقوستان متلهفتان لركوب اللانهائي، وجناحاه المفتوحان الممدودان كشراعين نفختهما الريح على جانبي سفينة حربية يزينان ردفه حيث ارتجف الشوق. وحلق فوق المدينة المجيدة و مسارحها ومعابدها و أروقتها.

أما أكرادين¹³ ذات السقوف البيضاء المتشابكة، وتيتشي¹⁴ حيث كانت بيوت الأثرياء تغط في سبات بين العدس المتموج، وإيبوليس¹⁵ المحاطة بأسوارها الهائلة، وأورتيجيا¹⁶ التي كان هيرون يزينها كل يوم ببدايع جديدة، فقد كانت كلها تتلقى أشعة روعته. ومن بعيد، في الريف، حتى

¹³ Achradine' خلال الحقبة الهلنستية، توسعت سيراكيوز من أورتيا إلى ثلاث مناطق أخرى: أخرادين في القرن السادس، ثم تاكي في الشمال.

¹⁴ Tyche في الأساطير الإغريقية، تيتشي (اليونانية القديمة، "الحظ، الصدفة" هو إله الحظ والازدهار ومصير المدينة أو الدولة.

¹⁵ Épipoles (باليونانية، وتعني [الأحياء] فوق المدينة هي منطقة في سيراكيوز تقع على مرتفعات المدينة

¹⁶ Ortygie جزيرة أورتيجيا (بالإيطالية: أورتيجيا) هي جزيرة صغيرة يقع عليها المركز التاريخي لمدينة سيراكيوز في صقلية.

الخط الأزرق لتلال ثيمبريس¹⁷ والقصب الذي كان يصطف على مجرى نهر أنابوس¹⁸ ونبع "سيان" الغامض، كان هذا الهاء لا يزال يتردد صداه: من نقاط الأفق الأربع، كنجم في جبين المدينة، كان يمكن رؤية بيجاسوس يلمع من بعيد في جبين المدينة وهو يلمع جامحاً وبسلاً. في تلك اللحظة، كانت الأنظار كلها شاخصة إلى السّفينة المسرح¹⁹ حيث كانت مشاهد الإلياذة قد انتهت. وكان صمت عظيم يثقل على الصدور المضطّهدة؛ وكان انتصار أكيليوس العظيم يستحضر كاللوحه الجدارية العملاقة على قوس البحر المظلم؛ وشعر الجميع بالرغبة السريّة في أن يكونوا أبطالاً تستيقظ في قلوبهم. لكن سرقوسة لم تعد بحاجة إلى سواعد أبنائها. فبعد نضال دام قرناً طويلة ضد روما وقرطاج، عادت تزدهر من جديد في سلام، محمية بالسيف اللاتيني والسيف الأفريقي. وكان هيرون قد حقق معجزة إبقائها على قيد الحياة لمدة ستين عاماً بجهوده الخاصة وحده، وتحريرها تدريجياً من الجزية الثقيلة. وكان هذا الرجل الذي حمل لقب الطاغية قد جدد للسرقوسيين الزمن الجميل للجمهورية البدائية.

¹⁷ Thymbris كانت حورية أورياد أو حورية إيميليد الأركادية المتنبئة التي كانت، وفقاً لإحدى الروايات، والدة الإله بان ذي أرجل الماعز من قبل زيوس.

¹⁸ Anapos في الأساطير الإغريقية، أنابوس (اليونانية القديمة هو إله نهر أنابو، في شرق صقلية.

¹⁹ Vaisseau-théâtre يقع المسرح الإغريقي في سيراكيزو على المنحدر الجنوبي للتل التيميني المطل على مدينة سيراكيزو الحديثة في جنوب شرق صقلية. وهذه سفينة عائمة معدة للعروض المسرحية...

كان كل شيء قد انتهى. ولم يكن مسرح فيزو، الذي كانت أنواره قد أطفئت لتوها قد انطفأت، قد أصبح الآن لا يشكل أكثر من كتلة مشوّشة في الظلال: ثم اتّجهت فورة الهتاف المفاجئة نحو القصر الفخم المملوء بالأضواء حيث كان هيرون يشاهد العرض من شرفته. وقف الرّجل العجوز في جلال شعره الأبيض. كان يرتدي سنواته الستّ والثمانين كتاج من الكافور على جبين إله. وكان يتسم لشعبه الذين كانوا يرسلون فرحتهم نحوه. وظلت الهتافات تدوي طويلاً: "يحيا هيرون ملكنا الطاغية الطيب، يحيا هيرون ملكنا!

لقد غفر له الناس بسهولة كونه ابن عبد، لأنه أصبح أباً للحرية. وامتدت نحوه أيدي الامتنان؛ وأغدقت عليه النساء القبلات؛ وصاح مراهق كان يجثم على قمة عمود بأعلى صوته: "يحيا هيرون! عاش الطاغية الطيب! وأضاف وهو يخفض صوته: "فليكن أبناؤه مثله!" - لكن هذه الكلمات ضاعت في التمجيد العام.

غير أن الليل كان قد حلّ بشكل أو بآخر؛ ومن خلال السدّ العريض جداً الذي يربط جزيرة أورتيجا²⁰ ببقية المدينة، كان الحشد يتدفق ببطء؛ وظل بيجاسوس يلمع في هذه الظلمات النصف حالكة؛ وكان البحر الأزرق يملأ بأمواجه كل مساحة الميناءين: ثم، عند طرف الجزيرة، حيث يتدفق نبع

Ortygie²⁰ جزيرة أورتيجا (بالإيطالية: أورتيجا) هي جزيرة صغيرة يقع عليها المركز التاريخي لمدينة سيراكيوز في صقلية.

أريثوسا²¹ المقدس في كهف محاط برواق منيع، ظهرت أشكال بيضاء: ظهرت هذه الأشكال واحدة تلو الأخرى، جاءت لتقف تحت الرواق وظلت بلا حراك أمام الأمواج وأضاف هلال القمر المقرون الذي ظهر فجأة في السماء بياضه إلى بياضهم. كان هناك ثمانية منهم، كلهم بنفس الحجم، ثمانية ظلال أنثوية بخارية خفيفة كالأشباح غطى وجوههن نقاب من الكتان؛ وغطى الجسد وشاح طويل ذو طيات متغيرة يتبع خط أجسادهن النقيّة. وأخذت كل واحدة منهن بيد الأخرى وأنشدن معًا ترنيمة كانت كلماتها تتناثر كاللؤلؤ في المياه المرتعشة. إنهن عذارى سرقوسة، حارسات حرية المدينة، و كاهنات أرتيميس المقدسات اللواتي قيل عنهن "لا يحق لأحد أن يتأمل عري جباههن ولا أن يلمس أطراف زنودهن".

²¹ Aréthuse في الأساطير الإغريقية، أريثوسا (اليونانية القديمة / أريثوسا) هي حورية في موكب أرتيميس. كونها ابنة نيريس، فهي أيضًا

الفصل الثاني

كان النهار ينبج على قمة رأس بليميروم، وكانت الأجزاء العليا من المدينة قد بدأت تظهر من الظلال، غادرت براكسيلا²²، وهي الكاهنة الهيروفانتيدة²³ وأعلى الكاهنات مقاماً، قلايتها لتذهب إلى نبع أريثوسا المقدس. كان وجهها عارياً في الحادية عشرة من عمرها، وحتى تحت العصابة حول جبهتها كان يمكن رؤية جذور شعرها تطل من تحتها مثل حافة من البنفسج الداكن.

وعلى الرغم من السترة الفضفاضة التي كانت ترتديها، فإن شباب جسدها كان واضحاً في ليونة مشيتها، وفي تمايل خصرها الذين يكادا يكونان غير حسّاسين ولكنهما متناسقان والذي بالكاد تبرز طيات القماش فوقه. وكانت هذه النظارة واضحة أيضاً في ملامح عينيها الناعمة وفي شكل فمها الفخور الذي لم تخفّف من سحره عادة التأمل. ومثل كل النساء اليونانيات من أسرة نبيلة - لأنها كانت من سلالة شريفة وكان أسلافها قد جلسوا ذات يوم بين أمفيبولات²⁴ المدينة - كانت تحمل في داخلها، مع

²² Praxilla كانت شاعرة يونانية من القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. ولدت في سيكيوني .

²³ (L'hiérophantide العصور القديمة) (الديانة) كاهنة ديمتر في أثينا. عرفها المتصوفون في هيئة الهيروفانتية التي كانت تمثل الإلهة.

²⁴ Amphipole قاضي سيراكيوز، وأخيراً، أنشأ قضاءً أعلى سنوياً، أطلق عليه السراقوسيون اسم أمفيبوليا

الكبرياء الموروثة عن هيلانة التيندارية²⁵، النعمة السرقوسية المتغطرة والبسيطة، مزيجاً من العاطفة والوداعة.

وقد سكنت الحماسة في أنفها المجوف المجنح الذي كان خط واحد مستقيم بين حاجبها يربطه بجبهتها؛ وكما في الميداليات الذهبية أو البرونزية التي كان الصاغة يتلذذون بإبراز جمال الحورية سيسيليد²⁶ الذي لا يضاهي؛ وكان ذقنها ينقسم إلى نتوءين متساويين فوق عنقها الذي لا تشوبه شائبة. وتوقفت براكسيلا في أعلى الدرج المؤدي إلى النبع، وصفقت بيديها ونادت بصوت واضح على العذارى السبع الأخريات: ديمو، وزينوفيلوس،²⁷ و أنتيليا، و رهينيا، و نايس، و ميلتينا، و غلوس. فأقبلن جميعاً مهرولات، بيضاوات متلهفات كالحمام، وعلى شفاههن ابتسامة مألوفة، وكنّ جميعاً جميلات في زهو شباهنّ الزاهي، واصطففن حول السلم المنحوت في الصخر، وتقدمت براكسيلا الهيروفانتيده أولاً.

في بركة شاسعة من الرخام الوردى المائل للورود تدفقت موجة أريثوسا المقدسة. و من المؤكد أنه لم يكن هناك نبع مدفون بين اللوتس الأسود أكثر صفاءً أو أكثر غمغمة. كانت الأسماك الفضية تستحمّ فيه، وهي كثيرة جداً لدرجة أنّها شكلت ما يشبه البطانة المعدنية للبركة الواسعة، وكانت

²⁵ Tyndaride يشير تينداريدس إلى كليتمسترا ابنة ليدا وزوجها تينداري الملك الأسطوري لإسبرطة. كانت كليتمسترا زوجة أجامنون .

²⁶ Sicélide زرخفة ساموس، في حداد، ليسيداس، الذي ألهمت ضحكته اللطيفة الليدونين.

²⁷ Démo, Zénophile, Anticlée, Rhénaïa, Naïs, Meltine et Glaucé.

تلعب واحدة فوق الأخرى في اهتزازات لا نهاية لها دون أن تكشف عن القاع. وعلى السطح كانت تجاعيد دائرية صغيرة تشبه الطيات الخفيفة التي تتشكل في الربيع على قشرة الزهور الرقيقة، تشهد على عذرية الربيع المحترمة إلى الأبد.

ركعت براكسيلا على الحافة وقبلت الرخام بخشوع. ثم خلعت جلاوسي، أصغر العذارى، عصابة عينها وفكّت شعرها؛ وبإيماءات طقسية قلدت هروب أريتوسا التي يطاردها نهر ألفيوس.

ومثلهما كانت أريثوسا مكرسة لعبادة أرتيميس الإلهة العفيفة، وكانت محبوبة من إله النهر ألفيوس الذي رآها ذات يوم تستحمّ في أمواجه في إليس. وكانت قد تركت الخشخاش في يدها وإكليل الآس على جبينها على الشاطئ، وكانت عارية في المياه الباردة الشفافة تلوح بجسدها الصغير. فتأثر ألفيوس²⁸ ووثب نحوها، ولكن الحورية العفيفة هربت عند اقترابه منها. وما زال يلاحقها، فركضت عبر بافيس و أورخومينيس²⁹ وجبال سيلين و مينالوس³⁰، وهناك رأت نفسها على وشك الوقوع في قبضة ألفيس، فتضرّعت إلى معونة أرتيميس القديرة التي حوّلتها إلى نبع لا ينضب. لكن

²⁸Alphée في الأساطير الإغريقية، ألفيوس (اليونانية القديم ة هو إله النهر، ابن تيتان أوشن وأخته تيتيس. ²⁹Orchomène , أورخومين أوف بويوتيا (باليونانية القديم / أورخومينوس) هي مدينة يونانية قديمة في بويوتيا، على نهر سيفيس، شمال سهل بحيرة...

³⁰Cyllène سيلين (من اليونانية القديمة)، هو اسم يوناني الأصل: في الأساطير اليونانية، سيلين هي ناياذ والدة الملك الأركادي ليكاون.

ألفيوس كان لا يزال يطاردها. فرافق أريتوسا إلى شاطئ أورتيجيا حيث تمكنت العذراء أخيراً من اللجوء إلى مياهها المرتعشة دون أن يتمكن أي اتصال غير طاهر من إزعاجهم.

هذا ما كانت تحاكيه جلاوس أصغر عدارى سرقوسة؛ وبحركة جريئة من جميع أطرافها، واندفاع شعرها الثقيل كالذهب السائل إلى أسفلها حتى حقوبها، كانت تقلد رعب الحوريّة المفاجئة واندفاعها المجنون عبر حقول الإليديّة تحت حماية أرتيميس الخفية. وكان رفاقها يراقبونها وعلى شفاههم ابتسامة فخر، وكان القصد من هذا الاحتفال الصامت الذي كان يؤدّيه أحدهم كلّ صباح في الرّواق أن يذكرهم بقسمهم؛ ولا شك أن كل واحد منهم كان يشعر بأنه مستعد أن يعاني مصير أريثوسا الصريحة على أن يدع نظرة رجل تدنّس جبينها.

غير أن براكسيلا كانت قد نهضت؛ وأخذت مصباحاً من الراتنج³¹ من يد رينايا وسارت في صمت نحو الكهف حيث يؤدي ممر تحت الأرض. تغير وجهها فجأة. و كان هناك شيء من الهباء والنار، مثل وهج من الجحيم، جعل عينيها ساطعتين مثل الشعلة التي كان إشعاعها الآن يتوهج فوق زهر فمها الأحمر، مشكلاً مع عينيها الملتهبتين مثلثاً غامضاً من الضوء. وقبل أن تختفي تحت الكهف التفتت إلى رفيقاتها وقالت:

³¹ لصمغ أو الراتنج أو القلغونة هو إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، ولا سيما الأشجار الصنوبرية.

- ابتهج. ثم أطلقت ديمو التي كانت سمراء كالليل، والتي ظلت أجفانها مغمضة حتى تلك اللحظة، صرخة حادة، وألقت بذراعيها فوق رأسها، ونادت ثلاث مرات، بينما كان يلمع من بين أسنانها المبهرة سهم لسانها الحاد:

- بيرسيفونيا! بيرسيفونيا! بيرسيفونيا!

وكانت العدارى الأخريات، زينوفيلوس بيديها الجميلتين المعطرتين، وأنتيليا التي كانت أكثر رشاقة من الشاريتس³²، ورهينا بحاجبيها الحادين، ونائس وميلتينا اللتين كانتا بيضاويتين وتوأمين، و جلوس التي كان شعرها الذهبي ينسدل في حصيرة ثقيلة على حقوئها، قد عقدن أصابعهن الهشة وشكلن دائرة حول البركة حيث كانت الأسماك المقدسة تسبح. ومن وقت لآخر كن يتوقفن ويرددن معاً كلمات ديمو:

- بيرسيفونيا! بيرسيفونيا! بيرسيفونيا! ووقفوا على أطراف أصابعهم بأثوابهم الطويلة وكأنهم يترقبون عودة الآلهة التي طال انتظارها. لكن بيرسيفونيا لم تستطع الظهور بعد. لقد كان الوقت الذي كانت تهرئ فيه في المناطق المنيعه عطايا الإنبيات السعيدة للأرض. وبينما كانت لا تزال في نظر الجميع هي أرتميس ذات الوجه المشرق والهادئ الذي لا يوصف، والتي كان معبدها يرتفع إلى التور بين صروح أورتيجيا الفخمة، كانت بالنسبة

³² Charit في الميثولوجيا الإغريقية، الشاريتيس (في اليونانية القديمة خاريتس)، التي شبهها الرومان بالغريس، هي آلهة تجسد الحياة بكل ما فيها من امتلاء، وبشكل أكثر تحديداً الإغراء والجمال والطبيعة والإبداع البشري والخصوبة.

لكاهناتها، العذراء المظلمة ذات الشعر المظلم، القوة الخفية وغير المكشوفة، هيكاتي³³ ذات الوجه الثلاثي، التي تسود في السماء، على الأرض وفي العالم السفلي.

كان اللون الوردى قد ارتفع إلى وجنتيهما، وكانت قلوبهما الرشيقة تقفز من تحت طيات سترتيمها. قالت: "اسمعوا، إنه مثل صوت الأمواج في باطن الأرض." ركضت إلى الباب، لكن براكسيلا كانت قد أخذت المفتاح معها. وضربتاً معاً اللوح البرونزي بأكتافهما بعنف، وقاوم المعدن الصلب جهودهما. وما زال الضجيج يعلو والضوضاء تتصاعد، وعدو الأمواج الغاضب يحاصر الكهف حيث كانت أنفاس أريتوسا النقية تغمم:

- يا زيوس العظيم! قال جلاوسيوس³⁴ جاثياً على ركبتيه، "ماذا سيحدث لأختنا العزيزة براكسيلا الهيروفانتيد؟

³³ Hécate أم سيلا التيتانية. تنحدر هيكاتي في الأصل من كارييا (جنوب آسيا الصغرى)، وهي في بعض الأحيان ابنة هاديس وديميتر، وأحياناً ابنة زيوس وديميتر، وأحياناً ابنة زيوس وليتو، وأحياناً ابنة نايت، وذلك حسب المؤلف.

³⁴ Zeus ... زيوس (اليونانية القديمة (هو الإله الأعلى في الديانة اليونانية القديمة. كرونيد، ابن العملاق كرونوس والعملاق ريبا،

Glaucée في الأساطير اليونانية، غلاوس (من اليونانية القديمة (وفقاً للمؤلفين، هي ابنة كرون، ملك كورنثوس.

الفصل الثالث

كان الملك العجوز هيرون جالساً في إحدى غرف قصره يتشاور مع أورثون صائغ الذهب الخاص به، وكان أورثون رجلاً ماهراً. كان هو الذي نشر في جميع أنحاء المدينة تلك التماثيل الرقيقة الخفيفة ذات الأجنحة المجنحة التي أصبحت موضة منذ أن قام تيموليون³⁵ الشهير، على ضفاف نهر كريميسوس³⁶، بإزالة القرطاجيين³⁷. في البداية لم يوضع أمام بوابة المنتصر سوى تمثالاً واحداً من هذه التماثيل؛ ثم انتشر بين الناس شيئاً فشيئاً ذوقهم لها، ولم يكن هناك الآن سرقوسي يستطيع أن يدّخر بضعة مناجم لا يريد أن يضع على عتبة بيته أحد هذه التماثيل الفتية الرقيقة التي تمثل النصر، واقفة على قاعدة من البورفيري³⁸ رافعة الذراعين ومشركة الرأس، والتي بدت وكأنها تخبر العابر الأجنبي عن مجد سرقوسه الذي لا يقهر وبطولة أبنائها الخارقة.

قال: "نعم، أعلم ذلك؛ لقد كنت دائماً خادماً صالحاً لي ويسرني أن أعترف بفضائلك. ولكنني أود هذه المرة أن أضعك في اختبار أصعب، فأنا أحلم

³⁵ Timoléon تيموليون، يوناني قديم،؛ ولد حوالي 411، وتوفي 337 قبل الميلاد، كان جنرالاً وسياسياً يونانياً من كورنتوس.

³⁶ Crimissus تم نفيه من قرطاج عندما هُزم مواطنوه هزيمة كاملة على نهر كريميسوس في صقلية (339 ق.م.).

³⁷ Les Carthaginois (تونس اليوم) الحضارة القرطاجية أو البونيقية هي حضارة قديمة تقع في حوض البحر الأبيض

المتوسط.

³⁸ Porphyre "البورفيري" هو مصطلح بتروغرافي عام يطلق على أي صخور عروق صخرية ذات نسيج يتميز ببلورات الفلسبار

الكبيرة المدجة في عجينة أفانيتية.

بأن أحصل على تاج قبل أن أموت يكون ثقيلاً بقدر ما يحتمله جبيني. وأضاف بابتسامة عريضة امتدت على وجهه الأبيض: "سيكون هذا التاج شعاراً لهموم الطغيان التي لا يقبل أحد أن يحملها لو تخيل ثقلها." أجاب أورثون بخبث: "يا حسرة! من يريد أن يولد لو عرف عذاب الحياة؛ ولكن من يريد أن يموت بعد أن يولد؟"

- قال الملك: (ومن العجيب أن نتعلق بشيء لا يستحق تقديرنا إلى هذا الحد، ثم وقف، وثبت على أورثون في عينيه تلك النظرة التي اخترقت ضمائر كثير من البشر، ثم رآه ضئيلاً مصفراً أمامه وقد بدت الوقاحة في عينيه وهو يرتجف من إغضابه، فابتسم مرة أخرى. ثم قال بلهجة أمرة: - أريد لهذا التاج أن يفوق في جماله كل ما صُنِع لي حتى الآن. ربما تعرف التلمونين³⁹ العملاقين اللذين يسندان ويدعمان السيل⁴⁰ داخل معبد زيوس الأولمبي؟ جبهتهما محاطة بدائرة مزدوجة من الورد الضخمة المنحوتة في الحجر. هذا هو العمل الذي تحتاج إلى إعادة إنتاجه في المعدن، دون تغيير لمعانه بأي سبيكة.

- لا شيء يمكن أن يكون أسهل من ذلك. "أجاب أورثون: "لا شيء أسهل من ذلك."

³⁹Télamons géants تماثيل لعمالقة - ما يسمى بـ "التلامون" - يبلغ ارتفاعها 8 أمتار تقريباً، والتي تحمل ثقل السقف

⁴⁰la cella السيل (وهي كلمة مشتقة من كلمة لاتينية تعني "الاختباء"، وتعني الغرفة المعلقة) هي الجزء المعلق من المعبد الأثروسكريفي ثم المعبد الروماني فيما بعد، ...

- كل ما تحتاج إليه هو سبيكة من الذهب سميكة بما يكفي لهذا الغرض، وستخبر دوركاس أمين خزانتي أن يمدك بها".

ثم دخل دوركاس الغرفة. وكان شاباً سرقوسياً من أسرة نبيلة، وكان ضابطاً في القصر ومشرفاً على أعمال المدينة. ومثلما كان أورثون الصائغ صغيراً ضئيلاً محشوراً في حدود صدره الضيقة، كان دوركاس ببنيته المهيبه ينضح بالكرم والقوة. وكان الدرع الأبيض الذي يرتديه يبرز جمال ملامحه. كان أنفه مقعراً، وفمه ضيقاً، وكان شكل وجهه البيضاوي المحاط بضفائر لحيته وشعره البني المجعد، يمثل تصميماً مثالياً لرسمه عقيق منقوشة عليها تمثال مجيد. وعندما تقدم، وضع هيرون يده على كتفه بشكل مألوف.

- حسناً، يا عزيزي دوركاس، ما جديد اليوم؟

- أجب الضابط: (إن الأمر خطير. لقد اخترق البحر سدوده وأغرق الممر الذي يربط نافورة أريثوسا بالنافورة السيانية الخاصة بعبادة الآلهة السرية. ويخشى أن تعاني جميع شوارع المدينة تحت الأرض من نفس المصير. ولكن ما الذي يمكن فعله؟ كيف نمنع المياه من الفيضان؟ فكر الملك العجوز ملياً وذقنه مستنداً على يده: "يجب أن نستشير ابن عمي أرخميدس. سيكون قادراً على اختراع طريقة لإجبار البحر على العودة إلى قاعه.

نظر دوركاس وأرثون إلى بعضهما البعض بلا مبالاة. وعلى الرغم من أنهما كانا يلتقيان كل يوم تقريباً في القصر، فلم تنشأ بينهما أي ألفة، ولكن أورثون كان أول من قال: (إن الملك قد كلفني أن أصنع تاجاً أحتاج من أجله إلى قطعة من الذهب لا يقل وزنها عن مثقالين.

قال دوركاس: (هذا سهل، فليس في الخزانة نقص في الذهب: ففيها ما يساوي ما في دماغ الشيطان المسكين من رغبات الشر) ونكص على عقبيه وذهب ليجلس على المصطبة الممتدة بين سلسلة القاعات الملكية ومفرش البحر الفضي. وهناك كانت ممرضة من وادي إينا، وقد أحيط وجهها بصفائر ثقيلة، تشرف على مرج هيرونيموس⁴¹ حفيد الطاغية. على الدرجات الملساء، أرخى الطفل أطرافه المهيبة. وكان يرتدي سترة صوفية قصيرة تصل إلى نصف ساقيه. لم يكن يشبه أباه جيلون⁴²، الصامت والضعيف، ولا عمه أندرنودور⁴³ "رجل غليظ منتفخ من سمرة صقلية".

وأقل من ذلك بالنسبة لأسلافه الأقوياء الذين ظلوا أشدّاء في شيخوختهم. ولكن كان في عينيه الصغيرتين العسليتين شيء من الفسق والفتنة؛ وكان في عينيه الصغيرتين البندقية، التي كانت توحى إليه بفكرة

⁴¹ 'Hiéronyme' هيرونيموس أو هيرونيموس أو هيرونيموس، وغالباً ما يُفْرَس باسم هيرونيموس وأحياناً يُترجم إلى "جيروم" (اليونانية القديمة)، هو اسم مذكر أصله...

⁴² Gélon جيلون طاغية جيلاً وسيراكيوز (جيلاً 540 ق.م - سيراكيوز 478 ق.م). في جيلاً، حل محل الطاغية أبقرات بعد وفاته (491 ق.م)

⁴³ Andranodore وأخيراً انتفض أندرانودوروس، عم هيرونيموس، الذي لجأ إلى جزيرة أورتيجيا، في النهاية، أبقرات وإيسيديس، وهما اثنان من عملاء هانيبال (حنبل)

الأصل السيلفستري، وبعلاقة وقراة غامضة مع الماعز والساتير⁴⁴.
 وضحك، وهو الطفل الشقي الذي أظهر أسنانه الحادة، عندما تظاهرت
 الممرضة بصوت رقيق، وتظاهرت بتهديده بالسايكلوبس⁴⁵ لإسكاته. قالت:
 (إنه قادم يا بوليفيموس⁴⁶ برأسه الكبير وعينه الواحدة، إنه قادم.

- جيد!" أجاب الطفل "دعيه يأتي! يمكنك أن تجعله يجلس في حضنك،
 وإذا كنت تعرفين كيف تكونين لطيفة، فقد يرسل إليك دباً أبيض أو ثعلباً
 أزرق الشعر، كما فعل مع جالاتيا⁴⁷ الجميلة.

وهرول مسرعاً، وبعد أن لمح دوركاس، هز كتفيه وابتسم له، وكأنه أراد أن
 يعتبره شاهداً على أنه لم يعد يؤمن بهذا الهراء الصبياني. ولكن دوركاس لم
 يرد عليه: لقد ساءه أن يرى وريث التاج المستقبلي تظهر عليه علامات
 السخرية والفساد؛ وكان يعلم عيوبه السرية التي أسر إليه بها الملك
 العجوز عندما كانا على انفراد؛ فماذا عسى أن يكون مصير سرقوسة فيما
 بعد في يد لا تعرف شيئاً من الحياء؟ وأية ساحة معركة جميلة كانت
 ستترك لشهوات أعدائه القاسية!

⁴⁴ Les satyres (اليونانية القديمة / ساتيروس، اللاتينية: ساتيروس) هو مخلوق من الأساطير اليونانية. الساتير، المرتبط
 بالمينادس

⁴⁵ Cyclope عملاق وحشي بعين واحدة فقط في منتصف جبهته .

⁴⁶ Polyphème في الأساطير الإغريقية، كان بوليفيموس (في اليونانية القديمة ، حرفياً "الذي يتكلم كثيراً": "كثير الكلام"،
 أو "الذي يقال عنه الكثير") رجلاً متعدد الوجوه.

⁴⁷ Galatéia في الأساطير الإغريقية، جالاتيا (اليونانية القديمة هي واحدة من النيريدات (حوريات البحر)، ابنة نيريس
 ودوريس.

فكر دوركاس في ذلك وهو يحدق في هذا المنظر الباذخ للمدينة والبحر: لقد اجتمع في هذا الطرف الأقصى من صقلية هذا القدر من الثراء وهذا القدر من الجمال، وهذا القدر من الترف وهذه العبقرية؛ بحيث لم تستطع أي من بنات الهيلين الإلهية، سواء أكانت أثينا أو أرجوس أو كورنثوس، أن تظهر مثل هذا الوجه البهي تحت سطوع الشمس! سرقوسه، أعظم المدن الإغريقية وأجملها على الإطلاق، والتي بدت كأنها مرفوعة إلى السماء من قبل بيغاسوس المتلألئ. وقد أيقظ دوركاس من هذه الأفكار وصول هيرون الذي كان يجر أرخميدس العظيم من ذراعه. ولم يكن هناك قط رجل منتصر يجر بطلاً إلى مركبته وعلى جبينه كبرياء أكثر من ذلك الطاغية الطيب الذي كان يحيط به ابن عمه المجيد: (ها هو ذا) وصاح وصوته الرنان يجعل أعمدة الشرفة ترتجف: (ها هو ذا، الذي لا شيء في الأرض ولا في النجوم غريب عنه. إن أمواج البحر ستطيعه كما يطيع زيوس العاصف الرياح الطيبة، ولكن أرخميدس⁴⁸ وقد ارتسمت على وجهه نظرة قلق، كان يتتبع الأمثال الخفية في الهواء بطرف إصبعه الممدود.

ولما توقف، وأوضح له دوركاس باحترام ما ينتظر من حكمته من نصيحة، التفت أرخميدس إلى هيرون:

⁴⁸ Archimède أرخميدس السيراقيوسي (باليونانية القديمة / أرخميدس)، ولد في سيراكيوز حوالي عام 287 قبل الميلاد وتوفي في نفس المدينة عام 212 قبل الميلاد.

- ما هذا يا ابن عمي؟ لقد جئت لتبعدني عن التأمل في أخطر المشاكل من أجل شيء بسيط كهذا! قيل لي أن الماء قد دخل أحد الممرات في الهايبوجيوم؟ دعنا نتخلص منه! لقد جففت آلافاً وآلافاً من المستنقعات في مصر بمجموعة من المراوح وبضعة سواعد رجال، ولا أدري أن النيل الغاضب بأفواهاها السبعة أيسر في الحكم من بحر صقلية الهادئ! وأخذ دوركاس جانباً ليكمل تعليماته. وبينما هو يتكلم، كانت كل العيون، حتى عيون الممرضة والطفل، مثبتة على شفتي أرخميدس العظيم، فبالرغم من أنه كان يعيش في قصر الملك هيرون إلا أنه نادراً ما كان يغادر شقته، وكان دائماً مشغولاً بالتوغل في أسرار العلم اللامتناهية؛ وفي سبيل ذلك كان ينسى أن يأكل ويشرب وحتى أن يعتني بجسمه. وكان كل ما يرتديه في هذه اللحظة ثوباً من القماش ممزقاً من الكتف وأطول من الأمام منه من الخلف، لأنه كان يمدد القماش مراراً أثناء سيره. كانت جمجمته صلعاء، متكتلة وخشنة كالصخر، وعيناه الرماديتان المتحركتان عديمتا اللون بالكاد يمكن تمييزهما تحت كثافة حاجبيه ورموشه. كان أنفه مقلوباً وقبيحاً وصغيراً جداً بالنسبة لوجهه الواسع. ولم يكن فم أرخميدس يشبه فم أي مجوسي أو فيلسوف آخر، ولا حتى فم الفيلسوف إمبيدوكليس⁴⁹

⁴⁹Empédocle يشتهر إمبيدوكليس بأنه أول من عرّف العناصر الأربعة (الأرض والهواء والنار والماء)، التي وحدتها المحبة وفصلها الصراع، مما أتاح التغيير والوحدة في آن واحد.

الذي وضعه أجريجتو⁵⁰ بين الآلهة. لقد كان وحده هو التعبير عن روحه وازدهارها. لقد انبثق من لحيته الكثيفة المشرقة النابضة بالحياة كما تنبثق الزهرة الحمراء من الشجيرة؛ وعلى بتلات شفثيه بدت الكلمات كالطيور العابرة التي لم تتوقف إلا لتلتقط أنفاسها، قبل أن تحلق في أعالي الفضاء.

وبعد أن انتهى أرخميدس من شرحه لدوركاس ما يجب القيام به، التفت إلى الملك هيرون:

- إن لديك يا ابن عمي مراكب شراعية رائعة هناك؛ ولا بد أنها تحمل على الأقل ألف حزمة. وأشار إلى أسطول من المراكب الشراعية الضخمة المستديرة العائدة من الساحل الأفريقي، وهي مثقلة بالبضائع، فقال هيرون:

- في الواقع، لا أعرف فيها عيباً واحداً: إنها صعبة المناورة بسبب ثقلها. وعلى الرغم من أشرعتها القوية وصفوفها الخمسة من المجذافين، فإنها تجد نفسها أحياناً في محنة في وسط الماء عندما تكون التيارات ضدها - قال أرخميدس: (هيا!!)، (إنني سأتحمل على نفسي أن أحركها إلى الأمام بطرف إصبعي الصغير، حتى ولو كان ذلك على اليابسة)

⁵⁰ Agrigente أغريجتو (بالإيطالية: أغريجتو، الصقلية: جريجيتي) هي مدينة تقع في جنوب إيطاليا ا.

وضحك هيرون العجوز عند سماع هذا الكلام، وكذلك ضحك الطفل الملكي والممرضة القادمة من وادي إينا ذات الضفائر الثقيلة، وكذلك دوركاس وأورثون الصائغ الذي اقترب من ذلك:

- أنت تعلم أنني لا أشكك عادة في قوتك يا ابن عمي"، وتابع هيرون وهو ينظر إلى أرخميدس: "ولكن في هذه المناسبة اسمح لي أن أظل متشككاً، فما لم تكن قد وهبت قوة هيراكليس⁵¹ الخارقة التي وهبها لك والذي رفع قطعان جيرون بين ذراعيه، فمن المستحيل أن يستطيع رجل أن يحرك ثقلاً بهذه الأهمية.

- سأثبت لك خطأك متى شئت"، أجاب أرخميدس بهدوء. ولكن يكفي هذا الكلام الفارغ لهذا اليوم. سوف أعود إلى مشاكلي. ورفع أرخميدس العظيم كلاميديته⁵² البالية على كتفه، بحركة كانت مألوفة ونبيلة في آن واحد، وسار أرخميدس العظيم في أروقة القصر، بين تماثيل الذهب الخالص والقوارير البرونزية الطويلة. ووضع فقره الطوعي هالة من المجد حول جبهته المتجعدة...

⁵¹ Héraclès كان هيراكليس، المعروف لدى الرومان باسم هرقل، البطل الوحيد الذي تم تكريمه في جميع أنحاء العالم الإغريقي والإنسان الوحيد الذي مُنح الخلود بين الآلهة. كان حامي الرياضيين والإله الذي يدرأ الخطر.

⁵² Chlamyde معطف يوناني قديم مصنوع من قطعة مستطيلة من الصوف مثبتة على الكتف بواسطة شظية.

الفصل الرابع

لم يضع دوركاس وقتاً في الركض إلى ينبوع أريثوسا؛ فقد كان متلهفًا لتطبيق الإجراء الذي أشار به عليه أرخميدس العالم المتعلم، وليرى المياه الغازية تفر أمامه كقطيع من الخراف الرشيقة. وبعد أن ترك العمال الذين أحضرهم على بعد مسافة ما، قدّم نفسه وحيداً أمام الرّواق. كان الكاهن الأكبر لزيوس الأوليمبي هناك بالفعل، منتظرًا المساعدة. كان رئيس الكهنة هذا هو القاضي الأعلى للمدينة ورئيس كهنة جميع الطوائف الأخرى؛ وهو الوحيد الذي كان يستطيع أن يسمح لرجل عادي بدخول هذا المكان المقدّس الذي يرتاده عادةً العذارى. وعندما دخل دوركاس، بحث عبثاً عن بصيص عابر من وجودهم؛ ولم ير شيئاً سوى البركة الصافية حيث تقفز الأسماك الفضية وقامة الكاهن الأكبر الطويلة التي يكسوها اللون القرمزي وتزيدها طولاً الخرزة الكثيفة من الحرير الذهبي حول رأسه الحليق.

أمسكه الأبونيم⁵³ من يده وقاده إلى الدرج المؤدي إلى أسفل الكهف. - وقال له: "أعطيك السلطة الكاملة لدخول الممر الجوفي والبقاء هناك طالما كان وجودك ضرورياً لتصريف المياه تماماً؛ وحتى"، وأضاف وهو يخفض صوته: "إذا ما اكتشفت جثة إحدى الكاهنات التي لا بد أنها

⁵³ L'Éponyme من يطلق اسمه على شيء ما: أثينا، إلهة أثينا التي تحمل اسم أثينا. - بالتبعية، مسيئة.

فوجئت وهي في طريقها إلى الينبوع أو النافورة السيانية⁵⁴، فإني أذن لك بأخذها وإعادتها باحترام، ولكن دون شفقة عبثية. أولئك الذين يموتون من أجل اللاهوت لا ينبغي أن يُشفق عليهم؛ إنهم يعيشون مرة أخرى بشكل مضاعف، بين الآلهة الخالدين وفي ذاكرة البشر.

ارتعدت فرائص دوركاس، فربما كان خلاص امرأة من العذارى المقدسات حارسة أقدار سرقوسه لا يزال يعتمد على مهارته وسرعة بديهته! ولكن أي أمل في أن يجدها على قيد الحياة بعد أن وقع الحادث قبل عدة ساعات؟ إنَّ رباطة جأش الكاهن الأكبر وعدم مبالاته المتكشفة جعلت قلبه الكريم يقفز؛ وربما كان يبالغ أيضاً في تقدير الخطر الذي كان يتهدده، وهل وصلت العذراء إلى نهاية رحلتها قبل أن يحدث الطوفان؟

دخل الممر تحت الأرض. كانت المياه قد استقرت في مستواها وكانت هادئة كما لو كانت في قاعها الطبيعي. وحسب دوركاس في لمحة خاطفة أنها لا ترتفع أكثر من ثلاثة أذرع، أي أن رجلاً في مثل طولهِ يستطيع أن يمشي فيها بسهولة دون أن يكون هناك ما يعلو خصره. لذلك قرر أن يدخل وحده ويبحث عن جثة الكاهنة بنفسه.

كما أن الظلام أيضاً، بعد أن أغلق الباب، زاد من انزعاجه وجعل الماء يبدو أكثر برودة. لكنه كان شجاعاً ومحاولاً وعارفاً ففي كثير من الأحيان، عندما كان يذهب لزيارة العمال الذين كانوا يعملون في محاجر أكرادين أو

⁵⁴ Cyané في الأساطير الإغريقية، سيان (اليونانية القديمة هي ناباد من صقلية. سميت البحيرة والنهر الذي تسكنه باسمها.

إيبولس⁵⁵، كان يمر في ممرات الظل وقد اعتادت شبكية عينيه على تمييز الأشياء الطفيفة؛ واكتسب ذلك النوع من البصر الثاني الذي تتعاون فيه جميع الحواس الأخرى والذي يبدو به أن الإنسان مثل طائر هيرا الخرافي له حدقتان مفتوحتان على سطح جسمه كله. و علاوة على ذلك، كلما تقدم، أصبح الممر أقل غموضاً، وأصبحت الأشياء من حوله واضحة. وعكست صفائح الماء المتألثة على القبو الأبيض للممر تحت الأرض؛ ومن مكان إلى آخر، على الجدران الخشنة، كانت تتفتح بضع خصلات خشنة من المكنسة التي كانت تعلق هناك مثل المشاعل والتي بدت بتلاتها الصفراء النارية وكأنها تنبعث منها نفاثات صغيرة من الضوء.

لاحظ دوركاس أن هناك فتحات سرية في سمك هذه الجدران، ربما للاتصال بشوارع الهايبوجيوم⁵⁶ الممتدة كمدينة ثانية تحت الأحياء الرئيسية للبلدة.

ولكن هذه التفاصيل لم تشغل سوى سطح ذهنه وظلت أفكاره الداخلية متعلقة بالكاهنة. ولم يكن يعرف عنها شيئاً غير ما أخبره به الأيبونيم في بضع كلمات مقتضبة. ومع ذلك فقد حمله دافع هائل نحو هذا الوجود

⁵⁵Épipoles إيبولس (١، وتعني [الأحياء] فوق المدينة) هي منطقة في سيراكيوز تقع على مرتفعات المدينة.

⁵⁶L'hypogée في العصور القديمة، أي تجويف تحت الأرض (مقلع، سرداب، معبد)، وعلى وجه الخصوص مقبرة تحت الأرض (الهايبوجيوم هو نوع من مواقع الدفن).

المجهول، وقد أنساه هذا الدافع ما كان يعانيه من مشقة وبرد كان يغزو جبينه شيئاً فشيئاً، وظلام وربما موت.

يئس من العثور عليها، إلا أن يدوس بقدمه على الجثة المدفونة في كفن المياه الراكدة. لا، لن يجدها! وسرعان ما سيصل إلى الطرف الآخر من الممر؛ وما كان عليه إلا أن يعود إلى الورا ويصرف الماء. وكاد يندم على أنه لم يبدأ من هناك، وأن بطولته قد ذهبت سدى. ومع ازدياد البرد حول صدغيه، فكر مرة أخرى في الموت. وحضرت أمام عينيه صورة زوجته الشابة، صورة فاني الحلوة الضاحكة التي كان قد اتخذها حبيبة له منذ ست سنوات. ولا شك أنها كانت تنتظره، تلك الزوجة الصغيرة، في منزلها المشرق تطل على الطريق، قلقة من احتمال عدم عودته. ماذا سيكون مصيرها لو أنه اختفى هو أيضاً في هذا المكان الجنائزي، حيث يبدو أن مركب شارون الذي لا يشبع من الطعام يجوب في الخفاء؟

أغمض عينيه وأسلم روحه للقوى الجهنمية. ولكن عندما فتحهما مرة أخرى أطلق صرخة من الدهشة: أمامه، ممدود مثل جذع قصبه مقطوعة، طفا جسد الكاهنة. كان يطفو، مثل جذع القصب، ضيقاً في أعلاه كما في قاعدته، ومغلفاً تماماً في حجابها الذي جعله الماء أكثر التصاقاً. اختفى الوجه نفسه تحت شبكة القماش الضيقة؛ وبالكَاد يمكن رؤية الذراعين الممدودتين إلى اليمين واليسار متلاصقتين مع الجانبين. وكان هناك شيء جميل ولا نهائي في هذا الجسد الملفوف في ثياب التّقميط،

فكرة مقلقة عن عذرية تنتصر حتى بعد الموت. وقبل الاقتراب منه، استولى على دوركاس خوف غامض، وبداله أن أخذه بين ذراعيه سيكون تدنيًا. ومع ذلك فقد منحه اسم الأبونيم القوة الكاملة؛ فقد رُفِع عنه ذلك الدفاع القديم الهائل الذي كان يمنع أي إنسان أن يلمس حتى هامش عباءة العذارى. وتقدم إلى الأمام؛ ولكنه في اللحظة الأخيرة تردد مرة أخرى؛ وكان قد لمح للتو دائرة ذهبية رقيقة حول جبهة براكسيلا تكشف عن كرامتها الفائقة. لم يكن هناك شك في ذلك: لقد كانت الهيروفانتيد نفسها، أول خدام الآلهة، الراقدة هناك كزهرة شاحبة على الماء! واندفع الدم في أطرافه اندفاعاً عنيفاً سرى في كامل جسمه فانفضت شرايينه كلها في آن واحد. وأخيراً تغلّب على ارتباكه وتمسك بجسد العذراء بخشوع كما لو كان قد أخذ إناءً مقدساً من المذبح.

كم كان ذلك الجسد خفيفاً وغير محسوس بين ذراعيه تقريبًا! لقد بدا كما لو أن أنفاس الروح وحدها هي التي شكلت ملامحه، وأنه لم تسكنه أي مادة أخرى غير الروح الإلهية التي لا يمكن تأملها - لدرجة أن دوركاس كان يضم حمله الثمين إلى صدره خوفاً من أن ينزلق ويفلت منه كما تهرب الفراشة ذات الأجنحة المصنوعة من الأنفاس إلى الأثير، تلك النفس غير المادية التي ترمز إلى طيران الأرواح.

سار بسرعة وهو يحدق إلى الأمام. كان لا يزال أمامه طريق طويل ليقطعه ليعود إلى نافورة أريثوسا، حيث كان الكاهن الأعلى لا يزال ينتظره بلا شك.

والآن، بينما كان يتقدم (هل كانت قوته تخونه؟ ولكن كلا، فقد كانت ذراعاه قويتين كما كانتا دائماً)، كان يشعر بجسد براكسيلا يزداد ثقلاً وثقلاً؛ والآن يستطيع أن يرى نعومة لحمها تحت الحجاب؛ وعلى صدره كان يشعر بجبهة العذراء الغامضة النقية مطبوعة كالختم بالشمع المحترق. وبدون قصد، كان دوركاس شاهداً على هذا التحول. كان متأكداً من أن المرأة التي انتشلها من الماء لم تعد جامدة ومتجمدة كما كانت من قبل. وفكرة أنها ربما كانت على قيد الحياة، وأنها كانت تعود إلى الحياة ببطء، هناك، بين ذراعيه، وعلى قلبه، قذفت به في نوبة من الانفعال لدرجة أنه كان على وشك أن يغشى عليه؛ ولم تعد عيناه تجرؤان حتى على أن تقع عليها خوفاً من أن يلمح من خلال قطعة القماش الكتانية ضوءاً متحركاً لعينين...

الفصل الخامس

كانت فاني، زوجة دوركاس الشابة، واقفة في المدخل، وكان المنزل الذي يسكنانه معاً يجاور حدائق القصر، وكان متكئاً على سفوح الصخور ويطل على بقعة من الأرض حيث تقع أورتيجا. غير أن فاني لم تستطع أن ترى شيئاً من الريف أو المدينة، وكان قد مضى على الوقت الذي كان دوركاس يعود فيه عادة إلى المنزل.

وشعرت فاني بالأسف عليه. كان دوركاس بطلها وإلهها. لقد كان هو من أحبها أولاً، والآن، وبعد ست سنوات من الهناء معاً، شعرت تجاهه بامتنان الزوجة التي اندمج قدرها كله في قدر زوجها، والتي لا يوجد شيء من جسدها أو روحها غير مشبع به. لقد كان دوركاس شيئاً مهماً لها، وكان يتمتع بالجمال الجسدي والجمال المعنوي؛ وكان قوياً وعطوفاً ولطيفاً ورقيقاً وقوياً. وحينما كان يأخذها بين ذراعيه في المساء ويقبل خصلات شعرها الناعمة المجددة كانت تظن، حين تغمض عينيها، أنها لا تزال تشعر بمداعبة شفتي أمها على جبينها. وكم كان حب دوركاس يبعث في نفسها من عواطف أخرى! وكثيراً ما كانا يذهبان معاً إلى أقصى الجزيرة لمشاهدة غروب الشمس فوق الأمواج. وكان القوس اللازوردي العظيم للبحر يأخذ بدوره كل ألوان السّوسن حتى يتلاشى تماماً ويغرق في هاوية جديدة. ثم بدا للزوجين أنهما كانا وحيدين، أحدهما للآخر، على الأرض البدائية، بين

الشاطئ المهجور والسّماء المأهولة بحلمهما. وضما شفاههما المرتجفة،
وصدريهما المنتفخان بهياج الحياة ونشوتها.

ولكن الشمس القاسية كانت تدمي الأفق في هذا المساء دون أن يكون
دوركاس هناك لتمنح فاني، زوجته الهشة، ذلك الإحساس اللذيذ الذي
كان يملأ نفسها من حبه وأن هذا الحب كله لا نهاية له. لم يعد دوركاس
أبداً. وتساقطت الدموع من عيني المرأة الشابة، عندما ناداها صوت عالٍ
ساخر:

- حسناً، فاني، أيتها النور الصغيرة، لقد تحولت إلى نافورة أيضاً! ومسحت
فاني جفنيها بنشاط، فلم يعجبها أن يباغتها الحزن هكذا، ومن الذي
يباغتها؟ جوليس الزوجة القبيحة لصائغ الذهب أورثون، وهي نمّامة
نشيطة، طائشة ثرثارة، تخشاها كل نساء سرقوسة في المدينة والميناء
لفضولها. قالت: (لست أبكي). إنّ هذه الكذبة على جوليس لم تكلفها
الكثير، وإنما أخشى أن تمر الساعة دون أن يعود دوركاس إلى البيت.

- هذا كل ما في الأمر! في هذه الحالة يمكنك أن تنتظري قليلاً. أما أورثون
الذي كان في القصر هذا الصباح، فقد رآه وهو يغادر مع حاشية كاملة من
الرجال والآلات لإعادة المياه إلى مجاريها.

- صاحت فاني: (بحق مويرا!)، (أرجو ألا يصيبه مكروه!) وفتحت جوليس
فمها على مصراعيه وبدأت تضحك؛ وانفجرت ضحكتها في هزات كصهيل
الحصان. وفي الوقت نفسه كان وجهها الغليظ قد تجعد بتجاعيد كبيرة

بدت كأنها حبال ممدودة على شجيرة ذبلت بفعل الخريف. وعندما أراحت نفسها على هذا النحو، استأنفت ضحكها وهي تنظر في عيني فاني الكئيبتين:

- لحسن الحظ يا عزيزتي، ليس كل النساء مثلك، وإلا لما كان هناك الكثير من الوقت الجيد للرجال. أما بالنسبة لي، فصدقيني سواء أكان أورثون في البيت أم في الدكان أم في الساحة، فأنا لا أفكر كثيراً في ذلك.
- كل ما في الأمر أن أورثون ليس محبوباً مثل دوركاس، أجابت فاني بابتسامة بارعة:

- إن الأمر يعتمد على ذوق المرء. إن أورثون له عيوبه، فهو بخيل وجشع: بين دراخما لامعة وطبق من الزلابية المتبل بالزعفران، لا أعرف حقاً أيهما يفضل. لكنه رجل محترم ومنتظم؛ ولا أعتقد أن هناك الكثير من الأزواج في الجزيرة كلها أكثر دقة في واجباتهم الزوجية.

خجلت فاني وتجنببت الإجابة. فقد كانت تشمئز منذ زمن طويل من الاقتران غير المتناسق بين جوليس الضخمة الملونة وبين الصائغ الأصفر الضئيل الذي بالكاد يصل إلى كتفها. غير أنها في هذه اللحظة، وفي هذا القلق الذي وجدت نفسها فيه، كانت صحبة جوليس ثمينة بالنسبة لها؛ وبينما كانت تتحدث هكذا، كانت الدقائق تمر، وربما ظهر دوركاس في أسفل الطريق... وتمتت بعد صمت:

- وبالطبع، كل إنسان هو الحكم على سعادته: أما أنا فلا أريد أن أتغير، حتى ولو كان ذلك يعني رفض أدونيس المغربي الذي ألهم بيرسفونيا⁵⁷ نفسها الحب؛ ولا أظني مخطئة في تأكيد أن دوركاس يميل إليّ بالمثل.

- قالت جوليس بضحكة بذئنة من فمها الصاخب: (لا يمكنك أبداً أن تتأكدي من إخلاص الرجل) وبالطبع لم يكن هناك ما يستدعي أن تسترجع شيئاً من تصرف دوركاس، وكانت تعرف ذلك جيداً، تلك المشاكسة الحقيرة؛ ولكن كان يسرها أن ترى الشابة تحمر خجلاً وتشحب لونها تحت تلميحات الغدر التي كانت ترددها. وأضافت:

- (إلى جانب ذلك، لا فائدة من مطاردتهم، كما يطارد كلب أوليسيس⁵⁸ عشاق بينيلوبي، فهل من عجب فيما يفعلونه عندما يخرجون؟ إن الكلمات لا لون لها؛ وسواء أكان كلامهم أسود أم أبيض عندما يعودون إلى البيت، فلا فائدة من ذلك.

- فأجابت فاني وقد تغيرت ملامح وجهها:

- لا أعتقد أن دوركاس قد كذبت عليّ من قبل.

⁵⁷ Perséphoneia بيرسيفوني هي واحدة من الآلهة الكاثونية الرئيسية عند الإغريق. تُروى قصتها في ترميزة هوميروس لديمتر. كانت بيرسيفوني امرأة جميلة جداً، وربتها أمها ديمتر سراً في صقلية، جزيرتها المفضلة، حيث كانت الفتاة الصغيرة آمنة.

⁵⁸ Ulysse أوليسيس أو أو أوديسيوس (اليونانية القديمة أوديسيوس، باللاتينية أولكسيس، ثم بالتشويه أوليسيسيس)، هو أحد أشهر أبطال الأساطير اليونانية.

Pénélope بطلة الأوديسة، زوجة يوليسيس وأم تيليامكوس. أثناء غياب أوليسيس ظلت مخلصة له، بعد أن أخبرت الخاطبين أنها لن تتزوج حتى تنتهي من نسج كفن لورت، والد زوجها. لكنها كانت تنقض في الليل ما كانت تنسجه في النهار.

- نعم! أتظنين أنك الوحيدة التي تجدينه جميلاً؟ إذن لا بد أن يكون إله ما قد عطس نيابة عنك! وعلى هذا الأساس، طابت ليلتك يا صغيرتي. أتمنى لك ليلة سعيدة مع زوجك العزيز. وانطلقت جوليس مسرعة. رأت فاني قامتها العريضة تتمايل في منتصف الطريق. لكنها لم تتبعها طويلاً. وظلت تحاول أن تلمح دوركاس الذي لم يكن قادماً؛ وتوقف قلقها للحظة ثم عاد قلقها إلى طبيعته مرة أخرى. وكانت تود أن تركض لملاقاته، وأن تشق طريقها عنوة إلى الرواق؛ ولكنها كانت تعلم أن ذلك غير ممكن، وكانت تخشى أيضاً أن تزعج دوركاس. و لم يكن يحب أن تخرج وحدها، في آخر النهار، أو حتى أن تنضم إلى جاراتها في السير في الطريق، مثل كثير من نساء المدينة اللواتي كن يأخذن بذراع بعضهن بعضاً ويذهبن هكذا، في وقت متأخر جداً، متشابكات معاً.

- ولم تتجراً فاني على مغادرة عتبة البيت، وتدلت عيناها في انتظار عودة حبيبها، وأخيراً ظهر لها وهو في وقار وبطاء وجبينه منخفض، وفهمت على الفور أن هناك شاغلاً سرياً يمنعه من الإسراع نحوها. ولكنها شعرت بسعادة غامرة عندما علمت أنه بخير وسلامة لدرجة أن كل شيء آخر اختفى أمام الفرحة العارمة التي ملأت قلبها. وعندما اقترب منها بما يكفي ليسمعها، لم تعد قادرة على التحمل أكثر من ذلك وصاحت به بكل قوتها:
- دوركاس أه يا دوركاس، أنا هنا! أنا أحبك! عندئذ فقط أسرع خطاه قليلاً ورفع رأسه؛ وشعرت فاني وهي ترى وجهه المنير بضوء المساء الأسمر

بمضاعفة الحنان وفتحت ذراعها على مصراعها لاستقبال العريس. ودخلوا المنزل جنباً إلى جنب. كان الطابق السفلي بأكمله مشغولاً بغرفة كبيرة إلى حد ما، مقسمة إلى حجرات ذات جدران متحركة. وفي إحدى هذه المقصورات كان هناك عشاء جاهز في انتظارهما. جلسا إلى جانب بعضهما البعض، ولم تجرؤ فاني، بدافع الحياء، بسبب ما أخبرتها به جوليس، على سؤال دوركاس، وكان هو الذي تكلم أولاً:

- هل كنت قلقة يا فاني يا ضوئي الصغير؟

- أوه نعم"، قالت فاني بقلق شديد. لا أعرف لماذا، كان لدي شعور سيء... نعم، لقد كنت قلقة جداً.

ونظر إليها دوركاس، والتقت عيناها الزرقاء والسوداء في حديث سريع. وكانت عينا دوركاس السوداوان في حزم، وعينا فاني الزرقاوان في حيرة. وواصل دوركاس حديثه بصوت خافت: "كان عليّ القيام بمهمة دقيقة وصعبة للغاية. لهذا السبب لم أتمكن من العودة إليك في أقرب وقت ممكن.

- نعم أعرف ردت فاني قائلة: (لقد حدث فيضان بالقرب من نافورة أريثوزا وقد أرسلك الملك هيرون إلى هناك).

ولكن كيف عرفت بهذا الأمر؟ سأل دوركاس؟:

-. (لقد أخبرتني جوليس عن ذلك الآن؛ وكانت تمر بالباب، وكالعادة توقفت لتدردش معي).

- أوه، تلك جوليس!" هتف دوركاس: "يا لها من مائة فم للشهرة! ما من شيء يحدث في المدينة إلا وتجد طريقة لإخبار الجميع عنه.. ابتسمت فاني نصف ابتسامة لم تخف قلقها كثيراً، واستغلت فورة دوركاس لتلقي بنفسها بين ذراعيه.

- عزيزتي دوركاس، أليس من الأفضل أن تطلعي بنفسك على ما يهيك من أمور؟ بهذه الطريقة سأتمكن من متابعتك في أفكاري عندما أنفصل عنك، ولكن دوركاس، دون أن يجيبها تجنب أن يرد على عناقها. واستقر رأس فاني على صدره، في نفس المكان الذي ترك فيه رأس الهيروفانتيد أثره الذي لا يمحي؛ وكان هناك ألم خفيف، وضيق لا يمكن التعبير عنه، جعله لأول مرة يجد أن جبين زوجته الساحر ثقيل الاحتمال. ومع ذلك فقد تغلب على هذا الكرب الفريد، وأجاب بهدوء وحنان:

- فاني، أيتها النور الصغيرة، لا يمكن أن تكوني على علم بكل الواجبات الملقاة على عاتق الرجل؛ وأول هذه الواجبات احترام الأشياء السرية التي يجد نفسه متورطاً فيها أثناء ممارسته لمهام منصبه. لذلك لا تسأليني شيئاً عن نافورة أريثوسا وكلية العذارى المقدسة.

ضمت فاني إلى صدر دوركاس حتى لا يرى الدموع في عينيها. قالت بصوت منخفض جداً:

-(هل تستطيع أن تخبرني مرة أخرى إذا كان كل شيء قد سار على ما يرام، وإذا لم يمت أحد في ذلك الحادث؟

- وسألت الزوجة الصغيرة مرة أخرى: "هل انتهى كل شيء على الأقل؟ لن تضطر إلى العودة، أليس كذلك؟ نهض دوركاس ونظر من النافذة المفتوحة إلى النافورة المقدسة التي كان رواقها مغموراً بضوء القمر، فقال بإيجاز: "نعم" على العكس، سأضطر إلى العودة كثيراً، فلا بد من القيام بعمل في الممرات تحت الأرض حول النافورة لمنع عودة الفيضان، وسأكون أنا من يحرص على إنجازه.

لم تقل فاني شيئاً؛ واكتفت بأن تبقي نظرها مثبتاً على دوركاس، وأن تشرب صورته العزيزة من خلال عينيها في كل اللحظات التي كان مشغولاً فيها بعيداً عنها: كانت تود لو أنها تملكه بشكل أفضل وأظهر من الدقائق المتقطعة التي تمنحها الساعات البائسة - وأن تكون روح الزوج مسجونة في روحها كحمامة في عش حب دافئ.

الفصل السادس

قال هيرون وهو يغادر شرفة قصره: "سنرى هذه المرة ما إذا كان ابن عمي أرخميدس سينجح في التحدي الذي وضعه لنا، نزل الملك العجوز إلى الشاطئ مبتهجاً. ورافقه ابنه جيلون وصهره أندرانودوروس⁵⁹، كما رافقه ابنه هيرونيموس الصغير، مرتدياً سترته القصيرة؛ ولكن الطفل هذه المرة لم يكن تحت رعاية مربيته القادمة من وادي إيتنا، وكان الجنرال هيموكرات المسؤول عن تعليمه هو الذي يسير إلى جانب شخصه الملكي.

وكان هيموقراط قد بدأ، مثل دوركاس، كموظف في القصر، وترقى تدريجياً إلى هذه المناصب العليا. ويمكن أن يقال عنه ما قاله بريكليس⁶⁰ عن سيمون الأكبر قبل ذلك بمائة وخمسين سنة: إنه جمع بين فضيلة الطموح ورذيلة التواضع. لكنّه امتلك أيضاً موهبة إبقاء الرجال على مسافة من بعضهم، وهي طريقة لحكمهم بشكل أفضل. وقد اتهمه البعض بمحاباة سياسات قرطاج سراً - وهو الاتهام الذي كان قد وجه أيضاً إلى أندرانودوروس⁶¹ الثخين - فتجنب الدفاع عن نفسه ورد بابتسامة باردة

⁵⁹Andranodore أندرانودوروس، عم هيرونيموس الذي لجأ إلى جزيرة أورتيجيا. أبقراط وإيسيديس، وهما اثنان من عملاء هانيبال، ...

⁶⁰Périclès بريكليس، اليوناني القديم / بريكليس، كان استراتيجياً وخطيباً ورجل دولة أثينياً (أثينا حوالي 495 قبل الميلاد - 429 قبل الميلاد). بريكليس

⁶¹Andranodore وأخيراً انتفض أندرانودوروس، عم هيرونيموس، الذي لجأ إلى جزيرة أورتيجيا، في النهاية. أبقراط وإيسيديس، وهما اثنان من عملاء حنبعل،

على أي تلميحات قد تصدر في حضوره حول هذه القضية الشائكة. وكان هو الوحيد الذي استسلم له هيرونيوموس المستعصي على الطاعة: فبنظرة من عينيه الصافيتين الباردتين كان يروّض الطفل كما يروّض الضارب الوحش الصغير.. ولا شك أن هذا هو السبب الذي جعل هيرونيوموس العجوز، على الرغم من شبهات الخيانة التي كانت تحوم حوله، يتعلق بشخص حفيده. والآن كانوا جميعاً واقفين في شبه دائرة على الشاطئ، وقد تعرّجوا جميعاً في شبه دائرة حول جوانب البحر المتناسقة. كحوت أسود ضخّم رابض على الرمال، كانت أكبر سفن الأسطول تنتظر ما يسرّ أرخميدس العظيم.

ولإيصالها إلى هذا الحد، كان لابد من حشد جيش كامل من العمال، وتعبئة نظام معقد كامل من الحبال؛ وكانت الكابلات التي أنهكها هذا العمل الفريد من نوعه قد استرخت في كل مكان؛ وعلى بعد مسافة، كان الرجال، وقد أعياهم الجهد الذي بذلوه، قد استرخوا في أوضاع خلافة. عند رؤية ذلك، بدأ الطاغية الطيب يبتسم؛ وغمغم، كما سبق أن فعل عند مغادرة الشرفة:

- لا أظن أن ابن عمي أرخميدس سيفلت هذه المرة بسهولة! وأوماً جيلون الهادئ الذي كان بجانبه برأسه بلطف:

- أظن يا أبتاه أن حداقتك قد تكون في محلها. يمكنك أن تتوقع أي شيء من هذا الرجل الخارق للعادة؛ فعبقريته تتلاعب بأعظم الصعوبات التي

تبدو مستعصية على الحل. فهو فيلسوف مثل فيثاغورس⁶²، وفيزيائي مثل إمبيدوقليس⁶³، وهندسي مثل دوسيثيوس⁶⁴، وفلكي مثل يودوكسوس سنيديوس⁶⁵، وهو يملك شمولية المعرفة الإنسانية؛ ولا يزال هذا - إذا جاز التعبير - مجرد قاعدة نحاسية يرتفع منها فكره إلى آفاق لا يمكن الوصول إليها. كثيراً ما أجد نفسي وأنا أستمع إليه معتقداً أنه وحده هو التعبير الأكمل عن الكون الغامض الذي كشفه لأسلافنا الدوريين⁶⁶، والذي يحمل كل إنسان في داخله بعض النغمات المتناثرة التي يجب أن يساهم الجميع في تشكيل تناغمها.

فوضع الملك العجوز يده على كتف ابنه قائلاً: "لقد كنت دائماً ميالاً إلى أن تبقي ذهنك في اعتبارات مثالية؛ وأنا أثني عليك لهذا، لأنك لا تزال في السن التي تكون فيها الدراسة أقوى شغف. كنت سأمدحك أكثر من ذلك لو لم تكن ستخلفني قريباً". وفي الوقت نفسه نظر إلى الشاب، وكانت لمسة من

⁶² Pythagore كان فيثاغورس (باليونانية القديمة: معلم حكمة وفيلسوف ما قبل سقراط، يُعتقد أنه ولد حوالي عام 580 قبل الميلاد.

⁶³ Empédocle كان إمبيدوقليس (باليونانية القديمة: فيلسوفاً وشاعراً ومهندساً وطبيباً يونانياً من صقلية في القرن الخامس قبل الميلاد.

⁶⁴ Dosithée كان دوسيثيوس أو دوسيثيوس ("هبة الله" باليونانية) قائداً دينياً سامرياً ومؤسساً لطائفة سامرية يُفترض غالباً أنها غنوصية.

⁶⁵ Eudoxe de Cnide كان يودوكسوس من سنيديوس، (باليونانية القديمة 408) ق.م - 355 ق.م)، عالم فلك يوناني وعالم هندسة وطبيب وفيلسوف.

⁶⁶ Doriens من سكان دوريدا، وهي منطقة تقع على الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى. شعب دوريدان، عرق دوريدان. الدوريون

الشفقة تخفف من بريق عينيه العميقتين. كان جيلون يميل بجهته نحو القبر كما تميل الشجرة الضئيلة نحو الأرض بعد أن أثمرت ثمرة واحدة فقط.

ثم وقعت عينا الملك العجوز على هيرونيemos الصغير بحزن مختلف، فقد كان الطفل القصير القائمة يلعب القفز على الرمال بين الجنرال هيموكرات وعمّه أندرنودور. وكان ملح البحر قد وضع على شفتيه تنحنحاً مرأً؛ وكانت عيناه المتلذذتان تضحكان دون أن يعرف أحد السبب، ولم تكن ضحكة بريئة كضحكات الأطفال في مثل سنه، بل كانت ضحكة متوترة متشنجة زرعت القلق من حوله. أشار إلى المطبخ وقال بصوت عالٍ: -ولو كنت أنا جدي، لمألتها بسلال من الذهب والنساء العاريات، كالتى فى لوحة بروتوجينيس فى القصر، ولوقفت فى وسطها. ثم لنرى إن كان ابن العم أرخميدس سيحركها بطرف إصبعه الصغير كما يزعم، فتدخل هيموقراط:

- لا تقلق، لن يحركها حتى وهى فارغة، هل تعرف كم وزنها؟ ولكن الطفل لم يعد يصغى إليه، وبرزت أطرافه من تحت سترته وبرزت خاصرته وبطنه إلى الأمام، وأخذ يحاكي هجوماً على عدو وهى فابتسم أندرنودور، بينما كان جيلون والملك العجوز ينتظران وصول أرخميدس فقال العجوز: (ربما يئس من مقامرته).

- وبالفعل ظهر أرخميدس عند سفح المصطبة؛ ودفع أمامه بإشارة غير مبالية آلة خفيفة على شكل عجلة تتدلى منها بضعة حبال متوسطة الحجم. وجاء جميع أفراد العائلة المالكة لمقابلته، فقال الملك هيرون وهو يشير إلى العجلة الضعيفة: "أليس بهذه الآلة تنوي أن تنجز جولتك يا ابن عمي؟ تبدو ألتك بجانب سفينتي مثل عنكبوت بجانب ثور.

- فابتسم وتفتح فمه العجيب، ذلك الفم الذي كان زهرة عقله الحساسة، في شجيرات لحيته. وكانت الشمس التي كانت تسقط على رأسه مباشرة تبرز أكثر عيوبه القوية التي كانت تترجم إلى جمال: خشونة جمجمته الصلعاء العارية، وبروز عظام وجنتيه العريضتين، والزاوية المنفرجة لأنفه القصير جداً، كالمثلث الذي اقتطع جزؤه الأعلى، وكذلك كانت تظهر رداءة ثيابه بكل امتلاء تحت الضوء الساطع النافذ الخفي في هذا اليوم الربيعي. وكان مثل ديوجين السينوبي⁶⁷، الملقب بكلب السماء، يحتقر قذارة الأرض؛ ومثل إبيشارم⁶⁸، كان يؤمن بأن طهارة الروح هي التي تصنع طهارة الجسد. وكثيراً ما كان يسمح لنفسه أن يُجرّ بالقوة إلى غرفة البخار ويغسله العبيد دون أن يتخلى عن التأمل في مشاكله؛ وكان أطفال سرقوسة يركضون خلفه في موكب غريب يختلط فيه الألفة بالاحترام،

⁶⁷ Diogène de Sinope كان فيلسوفاً يونانياً قديماً وأشهر ممثل للمدرسة السينائية. توفي في كورنثوس حوالي عام 323 قبل الميلاد.

⁶⁸ Épicharme إبيشارموس (باليونانية القديمة) ، ولد حوالي 540 قبل الميلاد وتوفي في سيراكوز حوالي 450 قبل الميلاد، كان شاعراً كوميدياً يونانياً وفيلسوفاً ما قبل سقراط.

ويختلط فيه الفخر الوطني بامتلاك عبقري عظيم كهذا بالفرح الساخر لرؤيته في ثياب رثة. وفي هذه المرة أيضاً، عند سماعهم أن أرخميدس قد غادر القصر لتوه، تدفقت الجموع من الأخرادين⁶⁹ وغزت الدكة. ولكن وجود العائلة المالكة أبقى كل هؤلاء الفضوليين المتحمسين في مكانهم، وهم في سوادهم كالخمر وفي حيويتهم كالعنب في قاع المعصرة. وتساءلوا عما كان سيحدث هناك، وعن سبب إحضار أكبر سفن الملك هيرون إلى وسط الرمال، وعن سبب انتظار الطاغية الطيب واقفاً هناك، يحيط به ابنه جيلون وصهره أندرنودوروس، وعن سبب بقاء هيرونيموس الصغير نفسه ساكناً إلى حد ما إلى جانب الجنرال هيموكرات... وفوق كل ذلك تساءلوا عما كان يفعله أرخميدس على الشاطئ، وظلت أنظارهم شاخصة إليه بالذات.

غير أن أرخميدس بعد أن أمعن النظر في بدن السفينة الضخم المكسو بالحديد والمطوق بحافة برونزية سميقة، عاد إلى ابن عمه قائلاً: "لقد نسيت - كما قال - أن تعيد البضائع التي كانت تحتويها إلى جوانب السفينة. ألم تخبرني أن أسطولك قد عاد بحمولة كبيرة من أفريقية؟" فأجابه هيرون العجوز: "بالفعل، ولكننا ظننا أن الاختبار سيكون كافياً. وأضاف وهو يشير إلى فريق العمال المستقر على الرمال من بعيد: "وإلى جانب

⁶⁹ l'Achradine خلال الحقبة الهلنستية، توسعت سيراكيوز من أورتيا إلى ثلاث مناطق أخرى: أخرادين في القرن السادس، ثم تايكي في الشمال.

ذلك"، "كان هؤلاء الرجال غير قادرين على تحريكها كما هي، وكان عليهم أن يفرغوها تماماً قبل أن يفكروا حتى في العمل عليها".

-حسناً، دعهم يعيدون شحنها!" قال أرخميدس. وبما أنني سأمنح نفسي ساعة من الاسترخاء اليوم، فأودّ على الأقل أن أرتّب التفاصيل كما أراها مناسبة. وبإشارة من هيموكرات اقترب العمّال. وكانوا جميعاً يرتدون معاطف صوفية موحّدة، تشبّث غرزها بأجسامهم، وعلى رؤوسهم نوع من القلنسوة المقوّسة، تشبه إلى حدّ كبير تلك التي كان الفريجيس⁷⁰ يعتمدونها في عهد الملك ميداس ذي أذني الحمار. وكانوا يسرون في صف واحد، بخطوات متساوية وثيقة، وأذرعهم الصلبة مطوية على أجسادهم المشدودة، وأفواههم نصف مفتوحة بسبب العادة التي اكتسبوها من التنفس بصعوبة فقط أثناء نقل الأعباء الثقيلة.

وكان هيرونيemos الصغير قد تسلل إلى جانب أرخميدس. كان يفرك يديه ببعضهما وعيناه تلمعان من السرور:

- يا لها من فرحة! سنجعلهم يحملون الكثير والكثير منهم، حتى تمتلئ بهم السفينة! وأضاف بابتسامة قاسية:

- ربما كان هناك من لن يستطيعوا أن يتقدموا أكثر من ذلك. ثم سنجلدهم من الخلف، كما نفعّل مع الخيول التي تجر أحمالاً ثقيلة جداً.

⁷⁰ : les Phrygiens ، فروج أو فريجيس) هم شعب قديم ناطق بالهندو-أوروبي، كانوا يقيمون في الأصل في جنوب البلقان

ولكن أرخميدس لم يكن ليسمع ذلك؛ فقد شرع في إعداد آتته الخفيفة بنفسه؛ وبمساعدة جيلون كان قد ثبتها على الرمال، وأخذ يفك حبالها المرنة تدريجياً. ولما استلمت السفينة مرة أخرى حمولتها كاملة، دون أن يقع أي حادث للرجال - لأن الطاغية الطيب كان يحرص على ألا يثقل على رعاياه بما يفوق طاقتهم - قال أرخميدس للملك:

- هذا جيد، ولكنه لا يكفي؛ فمر هؤلاء الرجال الشجعان أن يركبوا السفينة بأنفسهم.

- قال الملك: "ماذا؟ أتريد أن...

- بالتأكيد...

- أكد أرخميدس ذلك بصوت يدل على مدى ثقته بنفسه، ولكن صيحات الدهشة كانت تتعالى من الجمهور، فقد فهموا أن هذه تجربة جديدة للرجل العظيم، وكانوا يسارعون حتى لا يفوتهم شيء كما لو كانوا في مشهد جديد

- انتمهوا! قال أحدهم: - انتبه! ألا ترون أنه يستعد لسحبها بالحبال؟ وارتفعت الأصوات في كل مكان:

وكان أرخميدس يزنها بعينيه، ويتفحصها بتعابير التحدي التي تبدو على وجه رجل يريد أن يقيس نفسه بالمادة الجامدة ولا يملك إلا قوة عبقريته ليحاربها. ولما كان المعتوه أو المجنون وحده هو الذي لا يزعزع ثقته بنفسه أبداً بالشك، فقد انزوى على نفسه في هذه اللحظة الحاسمة وقارن بين

النفس الجامدة التي كانت فهمه وروحه وبين الكتلة الهائلة التي كان يفخر بأنه يحركها وحده. . وأخيراً اعتدل قائماً، وبدون أن ينظر إلى أحد، وفي الصمت المهيب الذي خيم حوله، وبدون أي جهد ظاهر، أدار بيده محور العجلة التي أحضرها معه، والتي كانت متصلة بالحبال التي ربط طرفاها بالمركب. وفي الحال انطلقت السفينة الضخمة ذات الجوانب المستديرة بكل سهولة كما لو كانت تنزلق على أمواج بحر هادئ. وتحركت إلى الأمام بيسر واتزان وتناغم، دون أن ترتعش، بينما كان الرجال على متنها يبتسمون بسعادة وهم يتنفسون الصعداء من تحريكها بهذه الطريقة بقوة رجل واحد. ثم اهتزت الجماهير المحتشدة على السد، والتي كانت قد امتدت حتى إلى الشاطئ على الجزيرة، اهتزت بشكل محموم: امتدت الأذرع المليئة بالعاطفة نحو أرخميدس.

بأفواههم المرتعشة صرخوا في وجهه بأنه كان ذا قوة مطلقة، وأنه كان إلهاً. كان أرخميدس بالنسبة لهؤلاء الناس المغمورين، ومعظمهم يجهل مشاكل الميكانيكا الشاقة، كائناً خارقاً للطبيعة يمتلك أسرار الألوهية. وقد قدم للتو برهاناً أكثر إبهاماً على ذلك من كل ما عرف عنه حتى تلك اللحظة. فارتفعت الهتافات له بحماسة وإعجاب. وتسلمت امرأة إلى قدميه وقبّلت طرف عباةته البالية.

غير أن الملك الصالح هيرون الذي كان متشجماً في شيخوخته كما لو كان في أبهى حلل الجلالة، كان يفكر بعيداً، وكانت الدموع تترقق على أطراف

جفونه التي أرهقها العمر. وكان يدرك أكثر من أي شخص آخر مقدار التأمل والحساب الذي استغرقه في هذا العمل الذي أنجزه أرخميدس بكل بساطة. فاقرب منه وتحدث إليه باحترام، بينما كان الرجل البالغ من الطول عاماً، وقد استعاد قناع الهدوء المعتاد، يستمع إليه بابتسامة.

-قال الملك العجوز بتؤدة يا ابن عمي: (لا يكفي أن تكون عالماً عظيماً وعبقرياً فريداً في العالم؛ بل هناك شيء أجمل من ذلك وأعلى: هو أن يخدم المرء وطنه. أتدري ماذا قلت لنفسي حين رأيتك تجذب سفينتي العظيمة إلى نفسك بسهولة كما يجذب هذا الطفل (وأشار إلى هيرونيموس الصغير الذي يلعب على الرمال) الطائرة الورقية التي يلتف خيطها حول أصابعه؟ قلت في نفسي: هذا هو الرجل الذي سيكون المدافع الذي لا يقهر عن سرقوسه؛ وهو وحده القادر على أن يفعل من أجل سلامة المدينة أكثر مما تفعله كل الجيوش و الأسوار.

كان أرخميدس لا يزال يبتسم. وبادر الجنرال هيموكرات بالكلام: "أيها الملك العظيم، هل هناك أي شك في نشوب حرب جديدة؟ يبدو لي أن أعداءك في الوقت الحاضر قد أعطوك ما يكفيك من الراحة." فقاطعه هيرون: "عليك أن تستشرف المستقبل دائماً.

إن روما من ناحية، وقرطاج من ناحية أخرى، لم يكفّا عن تهديدنا رغم السلام الظاهر، ومرة أخرى مخاطباً أرخميدس: "لو أردت ذلك ألا

تستطيع أن تجد طريقة لإحباط أكثر التكتيكات رعباً؟ نظر أرخميدس إلى ما لا نهاية للأمواج، وإلى جرم الأرض الذي لا حدود له، وقال: بعد أن التقط نفسه: "هل يستحق كل هذا العناء؟ إن أفلاطون الذي طرده جدك ديونيسيوس⁷¹ الطاغية من سرقوسة لأنه اعتبره عديم الفائدة، أفلاطون السامي كان يقول إن كل العلوم تنحدر إلى أن تصبح نفعية وعملية. اتركني لأحلامي يا ابن عمي، ولا تجعلني أدفع الكثير من أجل الضيافة التي تقدمها، أصر هيرون مرة أخرى:

- أجل، سيكون ذلك عجباً، جديراً بإعجاب القرون: علمك وعبقريتك التي طبقتها في الدفاع عن المدينة، وفي أولويتها التي لا تتزعزع... ولمعت عينا الرجل العجوز أمام الشمس الغاربة التي بدت كرتها الأرضية المنتفخة بنور سائل تتمايل في اللازوردية. وأحاطت الشخصيات الملكية أرخميدس باحترامها. وسار في وهج مجد الشمس الغاربة والمجد الملكي المسلط عليه.

⁷¹ Denys كان ديونيسيوس الأكبر (باليونانية القديمة / ديونسيوس)، المولود عام 431 قبل الميلاد والمتوفى عام 367 قبل الميلاد، طاغية مستعمرة سيراكيوز اليونانية.

الفصل السابع

لم يكن دوركاس حاضراً في انتصار العالم أرخميدس، فقد أبقته واجباته في المدينة الجوفية حيث كانت تجري فيها أعمال عظيمة بأمر من الملك هيرون لمنع المياه من الغزو. كانت هذه المدينة الجوفية التي تقع تحت مدينة سرقوسة الرائعة مغلقة تماماً أمام المدنّسين؛ وقيل إنها تعود إلى الوقت الذي أسس فيه الفينيقيون مستعمرات في صقلية. حتى أن البعض ادعى أنها أنشئت قبل ذلك على يد الثيوصوفيين⁷² من مصر، الذين جددوا الهندسة المعمارية المهيبة لمقابرهم وأودعوا رفات موتاهم المبعجة في مقصورات على طول الجدران. ومهما يكن من أمر، فقد كانت المدينة الجنائزية مصطفة متراصة مترامية الأطراف، واسعة صامتة، بأزقتها وساحاتها، ومفترقات طرقها المغمورة بالضوء الأبيض، ومذابحها المنحوتة في الصخر حيث كانت تؤدي في أيام معينة من السنة الطقوس السرية لعبادة بيرسيفوني⁷³. وكان دوركاس يجد في التجول هناك متعة وفيرة وحادة بوجه خاص. وهناك، أكثر من أي مكان آخر، كان يشعر بأنه أقرب إلى براكسيلا، وفي كل لحظة كان يبدو له أن خيال الهيروفانتيد الطويل

⁷² Théosophes إن الثيوصوفيا هي موقف فلسفي وديني، وشكل محدد من أشكال البحث الروحي، وتعني اشتقاقياً "حكمة الله"

⁷³ Culte de Perséphone يتم تبجيل بيرسيفوني، المرتبطة بديميتر، بشكل خاص كجزء من المهرجانات النسائية التي تروج لخصوبة الأرض وخصوبة المرأة.

على وشك الظهور أمام عينيه. فالعذراء التي لم يكن يعرف وجهها، ولكن جبينها الذي كان قد طبع نفسه كالختم الملتهب على صدره، العذراء التي أنقذها من موت محقق، كانت الآن محور أفكاره ووجود روحه. لقد أزهرت في داخله مثل زنبقة تتفتح في داخله، مثل زنبقة تعلو فوق حياته الأرضية، وعاش في ظلها النافع والغامض. بالطبع، لم يكن ضميره مضطرباً. لم يكن هناك أي انشغال أناني غير نقاء مشاعره. كانت براكسيلا تمثل في عينيه كائناً وسيطاً بين المخلوق البشري واللاهوت. ولكن كم كان يتوق لرؤيتها مرة أخرى! إن مجرد التفكير في أنها قد تمر في أحد هذه الأروقة، وأنه قد يلتمحها أثناء مرورها، جعل قلبه يخفق بعنف كما لو كان قد اختبر أكثر حالات الحب اندفاعاً مع امرأة أخرى.

وحتى الحب كان يبدو له باهتاً وخيالياً إلى جانب هذا الحلم العجيب الذي يراود عقله؛ وكان حنان فاني، زوجته، ذاته شعلة صغيرة ونوراً صغيراً يتضاءل كوهج الوصية في وجه إشراق الشمس الإلهي العظيم، ومع ذلك فهمهما طاف في شوارع المدينة تحت الأرض لم تظهر براكسيلا؛ وعز دوركاس امتناعه عن الحضور إلى وجود العمال. ولم يكن يدري أن الوقت قد اقترب لاحتفال العذارى بعيد غطاس الآلهة التي عادت إلى الأرض مع الربيع، وخرجت أخيراً من مسكنها المظلم، والآن كان ذلك داخل أسوار معبد أورتيجا، أو تحت الرواق الصافي للنافورة أريتوسا، تم أداء الطقوس المقدسة. كانت بيرسيفونى بشعرها الداكن قد تحولت إلى أرتميس المتألقة

بوجهها المشرق؛ وتحت قدمها كان الريف قد تزين بالزهور الوردية، والطبيعة التي ولدت من جديد إلى الحياة ترتجف كطفل مستعد لالتقام ثدي أمه، فماذا كان دوركاس يفعل في المدينة الصامتة بين القبور؟ لقد كانت المقابر التي نامت فيها هذه الأرواح قديمة جداً لدرجة أن العدم الذي كان يلفها ككفن ثانٍ لا يمكن اختراقه. وفوقهم كان ضجيج سرقوسة الحي، وصخب الناس وصخب العربات التي كانت تجري بسرعة لا تكاد تسمع ضجيجها، تماماً كما يسمع المرء من أعماق كهف لا يمكن الوصول إليه من مد وجزر الأمواج، صوت أمواج البحر البعيدة.

كان كل شيء أبيض لا حراك فيه كضوء القمر، كالصمت، وكانت العين تغوص في هذه المتاهة من الأزقة والمفترقات دون أن تصادف شيئاً سوى القبور والمذابح؛ وظن دوركاس أن هذا المكان سيكون مكاناً رائعاً ليرى فيه براكسيلا، المكان الوحيد الجدير بحبها البطولي، إذا ما انكشف لها الجبين النقي من الهيروفانتيد. وكان أورثون الصائغ واقفاً أمامه، ووجهه القبيح مصفر كالزيت، وكتفاه الضيقان وظهره المنحني، وصوته العالي النبرة يخترق الصمت: (وأخيراً وجدتك! باركك الله! منذ ثلاثة أيام وأنا أرجع إلى الخزانة في نفس الوقت لأسأل عنك وفي كل مرة أحصل على نفس الجواب: دوركاس يشرف على العمل في الهايبوجيوم. جيد للموتى! ولكن عليك أن تعتني بالأحياء أيضاً!

ولم يكمل كلامه لأن دوركاس كان قد أمسكه من كتفه وثبته أرضاً:

- "من أعطاك الإذن بالدخول إلى هنا؟

- لا أحد"، تلعثم أورثون قائلاً.

- حسنًا، سوف تتبعني الآن! والتزم الصمت! سنشرح لك لاحقاً. كان دوركاس يمسك بكتف أورثون بقوة. وجعله يمشي أمامه، مع إعطاء كل خطوة هزة جديدة لجسده الضعيف. وهكذا عبرا سلسلة طويلة من الشوارع، كلها متشابهة. كان أورثون يموت من الخوف. كان قد فقد خيط المتاهة وكان يتساءل إلى أين يقوده دوركاس. لم يجرؤ على الكلام، بل اكتفى بالقرقرة مثل دجاجة أمسكها صائد العصافير في العش وهي على وشك أن تُنتف. وأخيراً ظهر في الأفق الباب الضيق المحفور في الصخرة، والذي كان قد تسلل من خلاله في وقت سابق. ثم أفلته دوركاس من يده بقسوة حتى سقط زوج جوليس الضئيل على أنفه على مسافة بعيدة، وما أن خرج إلى العراء حتى استعاد أورثون كل جراته. ونهض بسرعة ووقف أمام الضابط.

- قال: (والآن، أرجو أن تحضر لي سبيكتي.

- أي سبيكة؟ سأل دوركاس!

- تلك التي طلب منك الملك هيرون أن تزوده بها، والتي سأصنع له منها تاجاً.

إن الملك في عجلة من أمره للحصول على هذه السبيكة.

قال دوركاس :- (هل تعتقد أن العمل يمكن أن يتم من تلقاء نفسه، أم أنك تستطيع أن تنجزه بدون الرجوع إلي؟).

- (إن الملك سيُطاع) وقبل أن ينطلق مرة أخرى نظر إلى الصائغ في عينيه، ثم أراه المكان الذي غادره للتو:

- اسمعني؛ إذا أمسكت بك تتجول في أروقة المدينة تحت الأرض مرة أخرى، فسأحبسك بإحكام حتى لا تستطيع الخروج منها. إن هذا مكان مقدس، تحتاج إلى إذن من الأب، أو الملك، أو مني.

- حسناً، حسناً! لقد ذهبت إلى هناك فقط لأبحث عنك أعطني السبيكة وسأعود إلى متجري. لكل واحد منهما ما يريد، كما يقول المثل، وشقاً معاً طريقهما إلى الخزانة.

أمام القلعة وبجوار الترسانة كان هناك مبنى على شكل حجر نرد، مكسو بالحديد من جميع الجوانب، يعود تاريخه إلى زمن ديونيسيوس الأكبر. كانت الثروات الهائلة مكدسة هناك، بما يكفي لبناء مدينة ثانية رائعة مثل سرقوسة. لا يمكن الاستهانة بثروة غيلياس أغريجننتو⁷⁴ الذي بنى دار ضيافة في ضواحي سرقوسة حيث يجد جميع القادمين أروع ضيافة، لم تكن شيئاً بالمقارنة مع ما كان يملكه الملك هيرون. اللؤلؤ، الذي كان أصغره يساوي مقاطعة، يملأ غرفة كاملة. وكانت كتل من أندر المواد، من الكهرمان الشاحب إلى العقيق القرمزي، والأحجار الكريمة التي لا تزال في

⁷⁴ Gellias d'Agrigente لم يكن غيلياس الرجل الغني الوحيد في أغريجننتو ... في ذلك الوقت الذي نتحدث عنه،

غمارها، والأحجار الجمشت، والبريس، والياقوت، والتوباز⁷⁵، تشكل أكواماً يمكن تحريكها بالمجرفة. وذهب دوركاس إلى المكان الذي تجمعت فيه سبائك الذهب. وكان الصائغ بجانبه ينظر إلى كل شيء بشغف، ويملاً عينيه من هذه الروائع كأنما بقيت بعض شظاياها عالقة بالبصلة الترابية من جفنيه. لقد كان يحب الذهب دائماً بشغف حسّي لا يقهر، وهذا الشغف هو الذي دفعه إلى أن يصبح صائغاً للذهب، لكي يتعرف على نفسه أكثر فأكثر بموضوع حبه، ولكي يملأ نفسه على الأقل بمتاع عابر لا يكفي لإشباع رغباته. غير أن دوركاس أشار إلى ثيوفراستوس، أمين الصندوق، أن يحرك إحدى السبائك المصفوفة إلى الحائط:

- هل تكفيك هذه؟

- فأجاب الصائغ: - كلا، والله يا هرميس!

وأشار دوركاس إلى واحدة أخرى:

- وهذه؟

- ليست كبيرة بما فيه الكفاية

- هذه؟ لا، لا"، أجب أورثون دائماً. لم يكن الملك ليرضى؛ فقد أمرني ألا

أدخر شيئاً من أجل جمال العمل، وهو يريد أن يكون هذا التاج ثقيلاً بقدر ما يحتمله رأسه.

⁷⁵ كلها أنواع مختلفة من الأحجار الكريمة

- قال دوركاس وقد نفذ صبره: (حسناً، اختر أكبرها ودعه يأخذها) ولم يتردد أمين الصندوق، وقد اعتاد على الأوهام الملكية وعرف رصيد دوركاس، في ذلك. وتلقى أورثون السبيكة الضخمة الثقيلة بين ذراعيه. وظل واقفاً للحظة مغمض العينين، مفتوح المنخرين، مستمتعاً بالذهب في شهوة، ثم رفع عباءته ولفها في ثنايا القماش وغادر بها دون أن يلتفت حوله. فابتسم دوركاس وثيوفراستوس وهما يريان أنه يهرب كاللصوص، فقال دوركاس: (أأنت متأكد أنه ليس كذلك؟) قال أمين الصندوق: (لا). فأجاب دوركاس: (إني لأعجب دائماً من أن الملك هيرون يضع فيه كل هذه الثقة، فالملك يقدره لمهارته) ثم أضاف: (من المؤكد أنه لا يوجد اثنان مثله في نحت كأس أو نحت نقش في حجر صلب) ثم أضاف دوركاس، وهو تشير بإيماءة تدل على مدى ازدرائه للثروة: (وما الذي يهيم الملك في هذا؟ هل تعتقد أن القليل من الذهب أو القليل من الذهب هو الذي يجلب السعادة؟) قال أمين الخزانة: "إن القليل يجذبك والكثير يثبطك! إنها مثل مداعبات المرأة. ودعا بعضهما بعضاً بعد أن تبادلوا التحية سريعاً. وكانا يعرفان بعضهما البعض منذ وقت طويل، وعندما كانا طفلين كانا يلعبان معاً على الميناء.

الفصل الثامن

لقد جاء اليوم الذي كان يحتفل فيه بعيد الغطاس للإلهة في معبد أورتيجا. وكانت هذه هي المرة الوحيدة خلال العام التي كانت أرتيميس تظهر فيها نفسها لحشد من عابدها، وكان تمثالها - التمثال الذي كان رهن مصير المدينة المجيد والذي كان وجهه كثيراً ما كان يكفي أن يقلب أعداء سرقوسة ليجعلهم يفرون - قد ظهر بدون حجاب في وسط السيلا⁷⁶ المقدسة. في تلك اللحظة كان المعبد مظلماً؛ أو بالأحرى ساد فيه ظل خفيف يشبه شفق الصباح الذي يسبق ظهور النور؛ وبين الأعمدة الدورية الشاهقة، كما لو كان في ظل غابة مليئة بالسنديان، وقف المؤمنون ينتظرون؛ وفي الجو المشبع بالرغبات التقية كان يمكن للمرء أن يتبين حماسة جموع بشرية كاملة ملقاة على الأرض الجاحدة وتتوق إلى رؤية الألوهية.

وارتفع صوت المرتل على مقربة من المذبح، وارتفع مع هذا الصوت العذب أيضاً عطور التوابل التي كانت العذارى الأخريات يحرقنها حول التمثال الذي لا يزال محجوباً. ولم تكن براكسيلا تغني؛ بل كانت تنطق كلمات

⁷⁶ Cella مصطلح معماري يوناني يطلق على الجزء الرئيسي من المعبد. يسبق الناووس - أو التيشيلا عند اللاتينيين - دهليز أو بروناس ويليه الأويستودوم الذي لا يتصل به عادة. الناووس هي أكبر غرفة في المبنى وتضم تمثال العبادة.

الترنيمه على مهل؛ وكانت تلاوة رنانة معجبة مريحة بدت كل كلمة منها كلؤلؤة دقيقة انفصلت من عقد ثمين. قال صوت براكسيلا:
 "اسمعيني أيتها الآلهة، يا عذراء النور، يا سيلين⁷⁷ الإلهية. سيلين، يا من ترتدين قرني الثور الليلي على جبينك، يا من تمشين في الأثير محاطة بجوقة النجوم، يا منيرة الليل، يا منيرة الليل المتألقة بالتناوب أو المفعمة بالحزن؛ يا هاجني النقية يا مباركة اسمعيني!

"اسمعيني يا ابنة ديميتر الموقرة، يا أيتها العذراء الشابة إلى الأبد، والعذراء التي تولد من جديد إلى الأبد، يا أخت القمح التوأم، يا سيتا! أنتِ يا من وهبها زيوس صقلية كلها هدية، بوديانها ومروجها وجبالها، ومن ينشر فوقها كنوز الإنبات؛ أنتِ يا من تعيشين تحت الأرض في الشتاء القاسي ثم تظهرين في النور كاشفة عن جسدك المقدس في البراعم الخضراء التي تعدنا بالحصاد؛ يا سيتا يا سيماليس، يا أخت القمح التوأم، اسمعيني!

"اسمعيني يا سوتيرا، يا بيرسيفوني ذات الشعر الداكن، يا هيكاتي الحزينة، يا كوريه المحرّرة، اسمعيني! يا من لا تتوقفين عن الإنتاج والتدمير، يا من أنتِ وحدك الحياة والموت، يا بيرسيفوني التي انتزعها بلوتو من ضفاف أنابوس الزرقاء حيث لعبت مع الحورية سيانيا لتجعلها زينة

⁷⁷ Séléné سيلين، ابنة الجبارة هايبيرون وثيا، وأخت هيلوس (الشمس) وإيوس (الفجر)، هي إلهة القمر المكتمل. وهي تشكل ثالوثاً مع أرتميس (الهلال) وهيكاتي (القمر الجديد).

هاديس، يا سيدة الموريس ذات المغازل الطويلة، يا رفيقة إيومينيدس
 الخفية، اسمعيني!
 "اكشفي لشعبك اليوم عن جمال وجهك يا ملكة العالم السفلي، يا ملكة
 الأرض، يا ملكة السماء، اسمعيني!"

سكنت براكسيلا، ولبضع دقائق ارتفعت رائحة التوابل وحدها نحو الآلهة.
 وكان هناك لمحة غامضة لنظرية بيضاء للعدارى المنحنين أمام المذبح،
 وفوق جباههم كانت هناك أعمدة ضخمة ناعمة غير دقيقة كالأشباح. ثم
 فجأة أضواء محيط المعبد كله، وكانت رعشة سريعة من النور تسري في كل
 مكان وتستولي على أصغر الأسطح. ثم انكشفت عظمة المسكن المقدس،
 مثل غابة يلفها الضباب ويغمرها فجأة نور الشمس المنتصر. وارتفعت
 الأعمدة التي لا قاعدة لها من الفناء الأمامي كالأشجار من الأرض؛ وكانت
 عريضة جداً في نقطة بدايتها، ثم أخذت تنحدر تدريجياً إلى قممها التي
 كانت تتوجها عمامة سميكة من الحجر الرملي؛ وعلى الرغم من ثقلها
 الشديد، بدت خفيفة وحيّة في إشعاع النور الذي رفعها وبدا أنه يخترقها.
 وبرزت من هذه الملامح الرفيعة جاذبية قوية، ونبل بلا أهبة، في جاذبية لا
 تتحرك كالأبدية، ولكن حيثما تظن العين أنها تكتشف انثناءات مرنة
 وإلهية. وبرزت حيوية زرقة لازوردية زاهية مشرقة وعميقة مثل زرقة سماء
 الصباح، على طول الدرابين وعلى الأفاريز. وكأنما كانت الآلهة نفسها قد

استمتعت ببناء هذا المسكن لتجعل منه صورة حساسة لذلك الكون الغامض، تحفة من الانسجام والجمال اقترحتها حكمتها منذ فجر التاريخ كنموذج لعبقرية الدوريان المتقشفة.

ولكن أهل سرقوسة لم يكونوا مهتمين بالإعجاب بروائع الصرح في هذه اللحظة الجليلة. وكما تلتقي جميع أشعة النور المنبعثة من النجم على نفس البؤرة، اتجهت جميع الأنظار نحو تمثال الآلهة التي سقط حجابها الهش للتو. ظهرت مرتدية أروع حلبيها، وقد طوّق جبهتها إكليل من الجواهر، وشدّت حزامها تحت الخصر كما ترتديه العذارى. فقط ذراعها ووجهها كانا عاريين، أما بقية جسدها فقد كان محددًا بعفة تحت حجاب خفيف، - كانت ترتدي أروع حلبيها. - وكان البرونز الصافي اللامع الذي سُبك منه جسد أرتيميس التي لا تقهر يرتجف مثل اللحم الدافئ الذي توهج من مداعبات الشمس. كانت إحدى يديها تحمل القوس فوق رأسها، والأخرى تسجن شعاع السهم المدببة. بدت رشيقة وقوية، وبدت كأنها تتحدى كل العقبات، مستعدة للتخليق في مناطق الفضاء الأثرية أو في أعماق الهاوية المجهولة. لم تبتسم، لكن نفساً خفيفاً كان يفرق بين شفّتها. وتنفس أنفها الحماس والحماسة. وعلى كامل وجهها الذي غمره الضوء، كان ينبض بنسغ الشباب نفسه. وعند قدميها، في أعمدة زرقاء من اللوالب التي لا تُرى، استمر دخان التوابل يتصاعد ببطء، والكاهنات معاً، بأصواتهن المتحدة، قدمن الشكر للإلهة على عيد الغطاس المجيد والمعزي. ثم فجأة

عاد المعبد فجأة إلى الظلمة؛ ثم غطى الظل الأشكال الطويلة الشامخة للأعمدة الدورية، وعادت مرة أخرى غامضة غير واضحة كالأشباح؛ ولم يعد جوقة الكاهنات أمام المذبح سوى كتلة بيضاء - كغيمة خفيفة في سماء مظلمة؛ ومن الساحة الأمامية إلى القبو، في الجو المشبع بالعطير، لم تجد أرواح الشعب المنتشر إلا الغموض. لكن الأبواب فُتحت، فوصل صخب عظيم إلى القبة من الخارج. كل أولئك الذين لم يتمكنوا من دخول الهيكل، كل أولئك الذين لم يكونوا قادرين على دخول الهيكل، كل أولئك الذين كانوا، نصف مؤمنين، يبحثون فقط عن الجانب الخارجي للدين، كانوا الآن يتزاحمون حولهم لرؤية موكب الكاهنات. "عذارى! عذارى!" وانطلقت الصرخة من كل فم، تملأ أورتيجيا وتضيع في أمواج البحر الفضية: "عذارى! العذارى!" ونادراً ما كُنَّ يظهرن علناً، ثم في أيام الأعياد الرسمية فقط، لدرجة أنهن عندما كُنَّ يمررن من أمامهن كُنَّ يصبن بالهيجان. غير أن الاحترام أبقى الحشد كله في نظام جيد، وشكل سياجاً مزدوجاً من الوجوه التي كانت الوجوه الأخرى وراءها مهتاجة تتلهف على إلقاء نظرة على الموكب. كانت دوركاس في الصف الأمامي. كان قد حضر عيد الغطاس للإلهة في المعبد، ولكنه لم يفكر إلا في براكسيلا، وعندما ارتفع صوتها النقي وهي تقدم العطور ارتجف كالقيثارة تحت الريشة. لقد كان ذلك الصوت شيئاً آخر من تلك الهيروفانتيدة التي تجلت له؛ لقد كان ذلك الصوت أشبه بتجسد ثانٍ لها، وكان شيئاً من لحمها ودمها

يتغلغل فيه بسحر الكلمات. ولم يسبق له أن سمع صوتاً كهذا الصوت، عذباً جداً، سماوياً جداً وفي الوقت نفسه إنسانياً شهوانياً جداً. وفي وقت لاحق، عندما اختلطت جميع الكاهنات بنبراتهم، كان صوت براكسيلا لا يزال هو الذي كان يدوي في داخله بشكل فريد، كما لو كان في جوقة العذارى هذه، كما في حقنة مصنوعة من عدة قصب متصلة ببعضها البعض، فم واحد، فم الهيروفانتيد، قد تسبب في تدفق الروح الشجي للصوت. والآن كانت دوركاس، في الصف الأمامي من الحشد، تنتظر خروج العذارى. سبقتهم موسيقى نصف دينية ونصف حربية، ومن بعيد أمكن رؤيتهن وهن ينزلن درجات المعبد واحدة تلو الأخرى، وقد أنزلن طرحة الكتان وعلى جباههن تيجان الآس والخشخاش. وبما أنهن كن جميعاً من نفس الطول، نحيفات وطويلات القامة، ويرتدين ملابس موحدة من القماش الأبيض ذي الأهداب الفضية، كان من المستحيل تمييزهن عن بعضهن البعض. ومع ذلك، وبينما كنّ يسرن متناغمات مع إيقاع خطواتهن المتتابعة، كان أفراد من الحشد، أولئك الذين يعرفون الوظائف المقدسة ويمكنهم تمييزهن من خلال الشعارات التي يرتدينها، ينادون بأسمائهن: "انظروا إلى هذه، الأولى، إنها لم تبلغ السادسة عشرة بعد. إنها تحمل باقة من أزهار النرجس في أصابعها، مثل بيرسفونيا عندما فاجأها بلوتو.

ومرت العذراء، ورغم أن أحداً لم ير شيئاً من جسدها أو وجهها، إلا أن المرء يستطيع أن يقول من خفة مشيتها، ومن شيء لا يزال ساذجاً وطفولياً في الطريقة التي كانت أصابعها النحيلة تعبر بها على أناملها الضيقة من النرجس أنها كانت شابة جداً، وأن كل شيء فيها، رغم تقشف الكهنوت، لا بد أنه ظل نضراً ورشيقاً كأول زهور الربيع.

ثم ظهرت ديمو في ظلام دامس كالليل، ولكنها كانت ملتحفة بإحكام في حجابها. وكانت تتقدم بنبلها وإحساسها بكرامتها بحيث لا يسع المرء إلا أن يتأثر بها؛ وكانت تحمل شعلة بيرسيفوني مضاءة بين يديها رغم سطوع النهار. تهافتت الحشود لرؤيتها، لأن جمالها كان يخترق سداة الكتان الخفيفة. ودارت الهمسات: "هذه هي التي أحبها الأمير جيلون قبل أن تكرس نفسها لعبادة الآلهة. انظروا كم هي فخورة ومهيبة! قد تظن أنها كانت أرتميس الإلهية نفسها...". ولكن سرعان ما غادرت أعينهم العذراء السمراء وعادت إلى أنتيلي. وبإيماءة ساحرة رفعت مزهريّة الحبوب المقدمة كأول الثمار إلى الآلهة إلى حافة كتفها؛ وكانت هذه المزهريّة ذات المينا الزرقاء الشفافة لها شكل العود الممدود، ولكي لا تتمايل كانت أنتيلي تدير ذراعها على جبهتها، بينما كانت طيات ثوبها تتدلى على طول حلقها. وخلفها، وكلاهما على نفس المستوى، جاءت نايس وملتين العذارى التوأم؛ وكانتا تحملان سلة ذهبية ثقيلة تتدلى بين جانبيهما منخفضة وفيها كعك العسل على شكل هلال، وعلى صوت الناي الذي كان يزداد طرباً، ظهرت رينايا

بدورها؛ رينايا ذات الحاجبين الحادين، التي كانت تحمل قوس الآلهة وسهامها. وبالطبع كانت عفيفة في اقترابها، مثل أريثوزا وسيانيا نموذجها، مثل حوريات إتنا وحوريات سيقليد، اللاتي كانت ظلالهن وحدها تهزم الشياطين بغرائزها المنحرفة. ومع ذلك كان هناك شيء أكثر جرأة يميزها عن رفيقاتها. كان الأمر كما لو كانت تدرك أن القوس والسهم التي كانت تحملها، وإن كانت ملكاً لصائدة الغابات الموقرة، إلا أنها كانت أيضاً من اختصاص ابنة سيبريس القاسية. وبدون أدنى انثناء لجذعها الضيق، مستقيمة في ثيابها الهرمية التي ترتديها، كانت رينايا بحاجبيها الحادين، تعبر ببطء بين الجموع...

لم يتبق أمام براكسيلا سوى واحدة فقط هي زينوفيلوس التي كان صدرها العذري بمثابة دعامة لكتاب القانون المقدس. كانت يداها الاثنتان بيضاء كجناحي البجعة تحملان الصفحات مفتوحة، حيث يمكن قراءة القانون الديني من جهة والقانون المدني من جهة أخرى، لأن هذا بالضبط ما كان الشعب بحاجة إلى تذكيرهم به: أن هناك صلة لا تنفصم بين اللاهوت والأمة أبقت صرح مجد سرقوسة قائماً، وأن الإلهة التي كانت تسود في السماء وفي العالم السفلي كانت فوق كل شيء ثيسموفوروس⁷⁸ التي لا تقهر، حارسة مؤسسات المدينة.

⁷⁸ Thesmophore... الثيسموفورية مهرجاناً يُقام في اليونان القديمة تكريماً لديميتير، إلهة الزراعة.

وبينما كان زونفيلوس ماراً كان الصمت قد خيم على المكان، وأمام جداول القانون كانت الجباه قد انحنت بخشوع. ثم، فجأة، أصبح التأمل أكثر كثافة؛ وكان نور الشمس قد تلاشى في الهواء الخفيف الذي اخترقته السحب، وشوهدت الهيروفيولوس تنزل ببطء على درجات الهيكل الثلاث. ما الذي كان لديها ولم يكن لدى الآخرين؟ لا شيء، ما عدا دائرة الذهب الرقيقة التي تلمع تحت تاجها المصنوع من الخشخاش والمفتاح المتدلي من كتفها، رمز قوتها العليا. غير أنها ما أن مرت حتى سرت رعشة عظيمة في الحشد، وتناثرت الأصوات الخافتة المتحمسة في كل مكان: إنها هي، إنها هي، تلك المتسلطة! وبحركة بالكاد يمكن إدراكها من تحت نقابها، التفتت نحو دوركاس، فسقط على ركبتيه في التراب.

الفصل التاسع

خرج دوركاس وفاني في ذلك المساء كعادتهما، ليستنشقا هواءً نقياً بعد حرارة النهار. ولكنهما لم يختلطا بالمجموعات الكبيرة المنتشرة في الريف. ولم يذهبا إلا إلى الطرف الأقصى من الجزيرة، مقابل رأس بليميرون، حيث يمكنهما أن يريا من هناك امتداد البحر الهائل والمدينة. وكانت هذه هي البقعة المفضلة لدى دوركاس، ولم يكن لفاني أمنية أخرى غير أمنية زوجها المحبوب؛ وطالما كانت متعلقة بكتفه تتحسس خطواته المتواترة كانت تجد دائماً نفس الجمال في الفروق الدقيقة اللانهائية في المناظر الطبيعية. وفي الطريق، قالت فاني بصوت مرتجف

- أود أن أسألك شيئاً يا عزيزي دوركاس؛ هل صحيح أن القسم المتبادل أمام البحر الأزرق، حيث تعيش الدلافين، أصدقاء الإنسان، مهمّاً جداً بحيث لا يمكن لأي شيء في العالم أن ينسينا فيه؟

-أجاب دوركاس: "يقولون ذلك، وأنا قريب جداً من تصديقه. أليس البحر كالمرأة العظيمة لحياتنا التي تعكس صورة أفراحنا وأحزاننا؟ وإذا كنا قد خننا قسماً تبادلهنا بأن اتخذنا أمواجه شاهداً علينا، ألا يستطيع البحر أن يعاقبنا كما يشاء؟

-حسناً إذاً يا عزيزي دوركاس، أقسم لي بأنك كما تحبني اليوم ستحبني بقية حياتك.

وكانا قد وصلا إلى سفح صخرة متدرّجة الشكل جلسا عليهما؛ وأدار دوركاس عينيه المتحركتين نحو فاني التي كانت تنظر إليه في قلق.

-لا، لا!" قال في النهاية: "لا تقلقي يا حبيبتي فاني، يقسم دوركاس أنه سيكون مخلصاً لكِ دائماً. إنه يقسم لكِ بذلك أمام أمواج البحر المقدسة، حيث تعيش الدلافين، أصدقاء الرجال.

وكما لو أن هذا القسم قد أثلج صدره، فقد ابتسم لفاني ابتسامة صافية أضاءت وجهه الجاد الرجولي.

ثم لم يفكر كلاهما في شيء سوى الاستمتاع باللحظة الحاضرة. كانت أمسية رائعة. كان الضوء نابضاً بالحيوية والدفء، ناعماً وندياً، كاشفاً عن وجه متجدد للأشياء البعيدة. وكان في إمكانك أن ترى الهيكل العالي للجبال المنيعة المقطوعة في تلال رخامية حادة، وفي الأسفل منحدرات ثيمبريس الظليلة التي كان الرعاة يجلبون منها اثنين من عجولهم البيضاء. وكانت بساتين سرقوسة التي اشتهرت في العالم كله بحلاوتها، تحيط بالمدينة بقلادة من ياقوت ثمارها الأحمر وزمرد أوراقها الأخضر.

وكانت الأغاني السعيدة تنبعث من أسيجة الصبار الكثيفة والقصب العالي الذي كان يحيط بمجرى نهر أنابوس ونبع سيان العذراء، نبع الذرة الأزرق. كانوا يحتفلون باعتدال مناخ صقلية وجمال أورتيجيا المستلقية على الأمواج كفتاة صغيرة تسبح على الشاطئ، تعرض رأسها وصدرها وذراعها الممدودتين على الأمواج وتضع قدميها على الأرض. هناك "هناك

فقط"، يكون الراعي جار الراعي، ويتحدث راعي الغنم مع الصياد، أحدهما يعزف الناي على الشاطئ، بينما الآخر يسحب شبابه؛ والمحراث يحرث الحقول إلى جانب المجداف الذي يحرث الأمواج؛ والغابة تقف إلى جانب البحر، وفي الوقت نفسه تسمع صوت الأمواج وهدير الثيران وزقزقة الظلال". وربما لم يربط الإنسان أفراس الطبيعة بأفراحه، وحنانها بحنانه، في أي مكان، أكثر مما كان في هذا الركن من الكون؛ فالأزواج الذين كانوا يسرون يداً بيد على طول الدروب كانوا يفكرون أولاً في الاحتفال بمجد الربيع قبل أن يختلطوا بشفاهمهم. ولا ريب أن فاني كانت تشعر بهذا، لأنها قالت لدوركاس

-لا أعتقد أنه يوجد مكان آخر على الأرض محظوظ مثل هذا المكان ربما لأن الناس في أماكن أخرى لا يعرفون كيف يقدمون الشكر كما يفعلون هنا لابنة ديميتير الجميلة، ألا تعتقد ذلك يا عزيزي دوركاس؟

-قال دوركاس: "إنك تقولين الحقيقة؛ إن الآلهة الثلاثية تسعد بإغداق عطاياها على هذه الأرض المتميزة، ومن هنا يرتفع لها هذا العشق الحار. وكان قد أصبح متأملاً وعيناه مركزة على رواق نافورة أريثوزا، حيث كانت أشكال العذارى البيض تتراءى في غموض. واصلت فاني بصوتها الرخيم:
-انظر إلى هناك، في نهاية البليميريوم، هذان العاشقان يتعانقان بحنان.

هل تعتقد أنهما يحبان بعضهما البعض أكثر منا يا دوركاس؟

ثم أضافت دون أن تمهله وقتاً للإجابة:

-يمكنني سماع شخير الصرصور على العشب. إنها علامة على أن بعض الأفكار الطائشة تترصد بسعادتنا. عزيزي دوركاس، دعنا نذهب بعيداً، إلى الجانب الآخر من الجزيرة حيث تنمو أشجار الطرفاء؛ أتمنى لو لم يكن على وجه الأرض كلها صوت واحد غير صوتك ليسحرني.

نهضوا وشقوا طريقهم إلى البقعة التي أشارت إليها فاني. كانت هناك أشجار الطرفاء الصافية المتموجة، وأزهارها خفيفة كأوراقها، وأشجار يهودا ذات الكورولا المفتوحة التي شكلت عناقيد أرجوانية كبيرة على السماء الشفافة اللؤلؤية. هنا كان للراعي أريستايوس تمثاله منذ زمن طويل، وقد نقل منذ ذلك الحين إلى معبد باخوس-إليوثيروس؛ ولكن حضوره ما زال سائداً بين هذه الظلال، والنحل الطنان يتذكر أنه كان يعرفه. وكان دوركاس، الذي كانت أساطير تاريخ سرقوسة الرشيقة حاضرة في ذهنه دائماً، قد انتشى باسترجاعها في تلك اللحظة؛ وفي تلك اللحظة شعر كما لو كان خالداً مرتبطاً في حياته الهشة بالماضي والمستقبل بسلسلة تقاليد جنسه.

-قال لفاني: رأيت يا فاني كم هو جميل أن ننتمي إلى سلالة قوية وأن نعرف أن في عروقنا ينبض نفس الدم الذي كان يحرك أول سلالة من السلالة الصقلية؛ وسندثر بدورنا يا فاني يا نوري الصغير؛ وستحملنا الساعات الدائرية في دائرتها؛ ولكن آخرين من بعدنا سيأتون إلى هذا المكان ليبحثوا عن آثار الراعي صديق النحل، ويندبوا مثلنا على ذكراه.

فابتسمت فاني؛ فقد أسعدها حماس دوركاس، لأنه جعل عيني الزوج الشاب السوداوين تضيئان بشعلة من اللهب جعلتهما أكثر إشراقاً. قالت: -أخبريني شيئاً عن أريستاويوس⁷⁹ هذا يا دوركاس العزيز؛ فأنا لا أعرف عنه شيئاً تقريباً، إلا أنه قد انتزع من الأرض حياً، وحمل إلى السماء على جناح الملمهمات اللاتي رعيته.

- قال دوركاس: "اسمعي إذن":

"كَانَ الرَّاعِي أَرِيَسْتَايُوسُ ذَاتَ يَوْمٍ يَسُوقُ قَطِيعَهُ عَلَى سُفُوحِ الإِيزِكْسِ إِذْ رَأَى شَحَّادًا أَمَامَهُ يَجْمَعُ كُسْتَانًا ذَا قِشْرِ شَائِكٍ. فَاسْرِعَ لِلْحَاقِ بِهِ، وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنْهُ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ لِيَسْمَعَهُ الرَّجُلُ الْأَشْعَثُ نَادَى بِصَوْتِ الرَّاعِي الْمَعْتَادِ عَلَى رِعَى الْبَهَائِمِ الْهَائِمَةِ: "يا صديقي، لا تتعب نفسك كثيراً، سأحلب لك أثقل أغنامي". ولكنه توقف، فقد كانت المتسولة امرأة بدت له بعد أن التفت، وقد بدت له شابة مبهرة. وكانت هي سيبريس الرائعة نفسها تبتسم له من بين صفين من اللؤلؤ في فمها. قالت له: لقد كنت في انتظارك يا أريستاويوس؛ فهل لك أن تترك قطعانك وعبادة أرتيميس الجاحدة المتشردة وتتبعني إلى قمة الجبل حيث معبدي؟ هناك سأكشف لك عن نفسي بكل جمالي. ولكن أريستاويوس أبى أن يتبع سيبريس؛ وأراها بيده الصوف الأبيض من غنمه، والمزهر الذي كان يصدر منه أصواتاً متناغمة حتى لقد كان النحل نفسه يتجمع حوله، والطحلب الكثيف للشجرة التي كان

⁷⁹ Aristée في الأساطير الإغريقية، أريستاويوس (اليونانية القديمة هو إله صغير، ابن أبولو والحورية سيرين، مرتبط بنشاط

يجلس عليها وعيناه متجهتان نحو بحر صقلية. قال: يا إلهي، هل يساوي حبك لي كل هذه الحلوى؟

لم تتوقف فاني عن الابتسام خلال قصة دوركاس.

-وسألته عندما صمت: "ماذا كنت لتفعل؟

-أجاب دوركاس: "كنتُ سأفعل ما فعله الراعي أريستايوس"، "كنتُ

سأفضل أن أتبع الإلهة العفيفة".

فاحمرَّ خجلاً، لأن ذكرى براكسيلا كانت قد خطرت بباله للتو.

-حقاً؟" قالت فاني وهي لا تزال تبتسم.

ونظرت إليه وهي تحاول أن تتبين على ملامحه ذلك الغموض الذي شعرت

أنه ينبعث في أعماقه؛ ولكن المساء كان قد بدأ يتلاشى بالفعل، ولم يكن

في وسعها أن ترى على وجه دوركاس سوى الأضواء الخافتة التي تلقمها

أشجار الطرفاء التي حركها النسيم.

-همهمت دوركاس قائلة: "لنذهب إلى المنزل الآن، فقد تأخر الوقت."

كانت المدينة تكاد تختفي أمامهم تحت المساحات الواسعة من البخار

المزرق الذي يلفها كالثوب ذي الطيات المتموجة. وبين الجبال الساكنة

والبحر المتحرك، كانت طبقات السقوف التي تتخللها المصاطب

والحدائق، بالكاد يمكن تمييزها. تلك هي إبيبولي بأساساتها المتينة، وتيتشي

التي يتوجها معبد الحظ، وأتشرادينا التي تتخللها الشوارع الضيقة

والساحات الشاسعة، وفي أسفلها جزيرة أريثوسا التي كانت ترقد في هدوء

نومها العذري. وفوق كل تلك الكومة من الحجارة والرخام التي كانت تشكل سرقوسة المنتصرة، وفوق كل ذلك المجد النائم، كان بيغاسوس الذهبي، يرقب وحده، مفتوح الجناحين في الظل، وكان يلمع وحده مثل كوكبة مبهرة عندما أظلمت كل النجوم الأخرى، عندما انطفأت كل الأنوار. كان يراقب الميناءين والبحر، ابن بوسيدون الجامح؛ كان يراقب المعابد والأروقة والقصور والأكواخ. وفي سكون تلك الليلة الصيفية المظلمة كان ينشر جناحيه المرتعشين، بينما كانت خياشيمه نصف المفتوحة تتنفس أنفاس الغابات البعيدة والأعشاب الطويلة والأزهار البرية. واستقبله دوركاس، قبل أن يعود إلى بيته، بتحية أخوروحه الدورية المتحمسة، والرمز السامي لوطنه.

الكتاب الثاني

أخرادين⁸⁰

⁸⁰ L'Achardine خلال الحقبة الهلنستية، توسعت سيراكيوز من أورتيا إلى ثلاث مناطق أخرى: أخرادين في القرن السادس، ثم تايكي في الشمال.

الفصل الأول

كان السوق مزدحماً في هذا الصباح. وكانت جوليس البدينة، وقد شممت عن جلبابها الأخضر فوق سترتها الصفراء ويديها الثرثرة مثل شفتيها، تتحدث وتومئ وسط الجموع. وكان عليك أن تصغي إليها؛ فهي وحدها تعرف أكثر مما يعرفه برجوازيو المدينة وعمال الميناءين. وفي هذه الساحة الشاسعة التي كانت تختلط فيها جميع الطبقات - وكان الأغنياء لا يستنكفون أن ينزلوا بأنفسهم إلى هناك ليختاروا وجبة طيبة - كانت تروح وتجيء وتذهب وهي تبذر الكلام وتملاً الدكاكين والرواق بشخصها المفعم بالحياة.

لم يكن المحيطون بها أقل هياجاً: انتشر الخبر في اليوم السابق أنه بفضل التدخل المحظوظ للملك هيرون، تحرر السرقوسيون الآن من الجزية الأخيرة التي كانت روما تطلبها منهم حتى الآن كثمن لتحالفها معهم. كانت هذه هي الحرية الكاملة التي طالما حلموا بها، التحرر المطلق. وكان الناس يتقدمون إلى بعضهم البعض والابتسامات تعلو وجوههم، ويسألون بعضهم البعض والفرحة الوطنية في عيونهم: "كيف حدث ذلك؟ لابد أن يكون هناك سبب وراء ذلك لا نعرفه..."

- انتظروا لحظة. من المؤكد أن الملك سيدعو إلى عقد مجلس شعبي وعندها سنعرف كل شيء.

لكن جوليس تدخلت منتصرة:

- لا داعي للانتظار، سأشرح لكم، كان ذلك بعد معركة تراسيمينو، حيث نكل القرطاجيون⁸¹ بالرومان تنكيلاً شديداً - حتى أن قنصلهم فلامينيوس قد قطع رأسه - فأرسل الملك هيرون، الذي لا يحب جنود روما كثيراً، ولكنه يكره جنود قرطاج أكثر من غيرهم، أرسل إلى مجلس الشيوخ، الذي يجلس حالياً على جبل كابيتولينوس، تمثالاً للنصر مصنوعاً من الذهب بالكامل، وزنه ثلاثمائة وعشرين مثقالاً..

- مَنْ يَعْلَمُ إِنْ لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تُكَلِّمُكَ؟

أورثون، زوجي العزيز، الذي فعل ذلك؛ - وفي نفس الوقت كان لديه نقش منقوش على قاعدة التمثال، وسأخبركما به إذا ساعدتني منيموسينا:⁸² "عسى أن تكون هذه الهدية أيها الآباء المجندون فأل خير لكم! لأننا، وإن كنا مقتنعين بأن عظمة روح الشعب الروماني تزداد قوة مع الشدائد، أردنا أن نقدم لكم هذا النصر الذي أنتم جديرون رغم نكساتكم أن تمتلكوه. نتوسل إليكم أن تقبلوه وتحفظوا به معكم إلى الأبد في الكابيتول...".

وقد ألقت جوليس هذه الخطبة دون تركيز، بل وبشيء من التسرع، لأنه كان لديها الكثير لتقوله؛ ومع ذلك فقد صفق لها الناس بحرارة، كما لو

⁸¹ Les Carthaginois يبدأ تاريخ قرطاج بتأسيس المدينة في القرن التاسع قبل الميلاد على ساحل شمال غرب إفريقيا، فيما يعرف الآن بتونس.

⁸² Mnemosyna منيموسين اليونانية القديمة هي إلهة تيتانية في الأساطير اليونانية. وفقاً لهسيود، هي ابنة أورانوس (السماء) وجايا (الأرض)؛ وهي إلهة الذاكرة. يراها هييجين، مما يجعلها أصغر من جيلين، ابنة زيوس والنيريد كلايمين.

أنها وضعت فيها كل المهارة الخطابية لأريستون، الممثل المفضل لدى السرقوسيين. وسارعت إلى إضافة:

- تستطيعون أن تفهموا أن الآباء المجندين لم يكن بوسعهم بعد هذه الهدية الملكية أن يفعلوا أقل من رفع جميع الضرائب؛ ولكن هذا ليس كل شيء: ألم تلاحظوا منذ يومين أن البنائين يذهبون إلى المحاجر لجمع المواد ويأتون بها إلى التيموليونتوم؟ ربما تتصورون أن هذا لبناء معبد أو قصر آخر، حيث يوجد بالفعل مائتان وثمانية وأربعون معبداً أو قصراً آخر في المدينة؟ أم تظنون أنه لإسكان الحاشية التي لا يكفيها بيت أغاثوقليس الذي يضم ستين سريراً؟ لا هذا ولا ذلك. إنه ببساطة مذبح في الهواء الطلق سيقيمه الملك ليقدم الشكر لزيوس القدير على استعادة لسرقوسة أخيراً استقلالها التام. ولكن هذا ليس كل شيء. لا تستعجلوا بالبكاء متعجبين كما لو كنتم قد رأيتم بيضة التينداريون تسقط من السماء. يجب أن يكون المذبح بطول ملعب، وسيكون من الممكن التضحية بمائة وخمسين ثورًا في المرة الواحدة.

- مذبح بطول ملعب! بحق هيراكليس!" قالها مراهق مجعد الشعر، "سيستغرق بناؤه وقتًا طويلاً! ليس غدا بل سيمضي وقت طويل قبل أن نرى ذبح مائة وخمسين ثورًا.

عند سماع هذا الكلام، هز رجل محلي ذو لحية سوداء، كان يشتري زيتونًا في مكان قريب، كتفيه.

- أترى يا مرميدن! ألا تعلم أن ديونيسيوس الشيخ أمر في عشرين يوماً ببناء الأسوار للدفاع عن شمال المدينة من تيتشي إلى إيبوليس؟ إن الطغاة لا يكلفهم الأمر شيئاً، وعندما يكون الأمر لخير الجميع يجب أن تبتلع لسانك وتطيع.

وفي هذه الأثناء، استمرت جوليس في الصراخ والهذيان، موضحة لكل من يسمع أن المذبح، على عظمته، سيكتمل قريباً جداً، وأنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتم الذبح عليه. وكانت متأكدة من ذلك لأن الملك أراد في ذلك اليوم أن يلبس التاج الرائع الذي كان قد طلبه من أورثون منذ زمن طويل. لكن الصائغ لم يكن قد انتهى بعد من عمله الفني، وكان في عجلة من أمره لينتهي من التاج في نفس الوقت الذي انتهى فيه العمال من المذبح.

- المسكين!" قالت جوليس: "إنه لا يأكل ولا يشرب منذ أن أمره الملك بتسليم هذه الجوهرة دون تأخير. من الصعب أن تتعرف عليه، فهو عادة ما يكون أكولاً، مقبلاً على الطعام. إن مجرد رؤيته يتلذذ بلقمة شهية لهو أمر يبعث على الموت، فهو يشم ويطرف أذنيه ولا ينظر إلى أحد.

- ولا شك أن زوجة الصائغ كانت تنوي أن تعيد زوجها إلى مزاج الطعام. وتوالت التعليقات في الساحة الضخمة، في الجماعات، وكان "الطاغية الطيب" يمدح عموماً لأنه استغل الظروف بمهارة ليحصل على تحرير سرقوسة تحريراً كاملاً مع الاحتفاظ بحلف روما؛ وكان التكهن بكم من العجائب الأخرى التي ستعود على المدينة من هذا السلام الراسخ.

غير أن أحدهم قال :

لا تنخدعوا إذا ما أزهر الخوص ونضج العنب كما يقول المثل. إن النسر الروماني يسحب مخالفه ولكن احذروا من قرطاج. إن قرطاج لها أصدقاء أقوياء حتى في قصر الملك هيرون. هذا التلميح أطفأ الحماسة، ولحظات قليلة جمد الصمت شفاه الحاضرين. ثم بدأ التذمر يتناقل اسم الجنرال هيموكرات من فم إلى فم، أولاً بصوت منخفض، ثم بصوت أكثر جراءة، حتى جاء أخيراً صيادو التونة الذين كانوا يبيعون بضاعتهم واقفين تحت رواق لم يترددوا في أن يقولوا بصوت عال ما كان يفكر فيه الآخرون بنبرات خافتة.

-نحن نعرف هذا الجنرال! ألم يكن قد ولد في قرطاج في بادئ الأمر، هو وأخوه إبيسيد الذي تخلف عن الركب؟ وفي يوم من الأيام عندما يذهب الملك العجوز لتصفية حسابه مع بلوتون سيضعون المدينة في يد حنبعل⁸³ كما أن أجريجتو موجودة بالفعل، فماذا يثبت هذا؟ إذا كانت أغريجتو قد سقطت في أيدي قرطاج، ألم تسقط كامارينا في أيدي الرومان؟ إن مصير سرقوسة ليس مرتبطاً بمصير المدن الأخرى بفضل الآلهة. ومضى الرجل الذي تكلم أولاً وتابع بنبرة واثقة:

⁸³ Hannibal كان هانيبال برقة، المعروف عموماً باسم حنبعل أو هانيبال، المولود عام 247 قبل الميلاد في قرطاج والمتوفى بين عامي 183 قبل الميلاد و181 قبل الميلاد في ييشينا، جنرالاً وسياسياً قرطاجياً، ويُعتبر عموماً أحد أعظم رجال التكتيك العسكري في التاريخ.

-لقد كسب هيموكرات بالفعل صهر الملك أندرنودور وهيرونيموس الشاب إلى قضيته؛ صحيح أن جيلون ابنه يبدو مصمماً على المحافظة على حرياتنا. ولكن ما هو غيلون المريض والموهن مقارنة بالاثنين الآخرين والأقوياء؟ رجل يركض على قدميه بجانب مركبة، هذا هو وريث عرش سرقوسة في الوقت الحاضر... كانت هناك بعض الاحتجاجات الضعيفة، ولكن السم قد أطلق، وارتفعت الأصوات من كل جانب، مهددة وعنيفة. ولما كانت الساعة التي عبر فيها الشبان الميدان للذهاب إلى البالسترا، تضخمت الجموع تضخماً ظاهراً فغزت الأغورا كما تغزو الأمواج الشاطئ. وكان ضجيج هذا المد البشري الهائل يجعل الأوراق تدوي وتبدو وكأنها تهز تمثالي الوفرة والوفاق، اللذين كانا يهيمنان على الجمهور، من على منصتيهما.

وصاح بائع خضر وهو يلوح بنبتة ترمس ضخمة كان يمسكها من جذورها كالرمح:

- دعوا الأفريقي الخائن يظهر نفسه؛ وسيرى ما هو رأينا نحن السرقوسيين الحقيقيين فيه! ولكنه صمت مرتبكاً بعد أن لمح فجأة الجنرال هيموكرات شخصياً وهو خارج من القلعة متقدماً بين الجموع. فتظاهر بأنه يتباهى ببضاعته واستمر في حمل النبتة الضخمة:

- انظر إلى هذا الترمس! هل تجد مثل هذا الشيء في السوق كله؟ إنها تحتوي على حبوب أكثر مما يكفي من الحبوب التي تكفي لسرقوسة كلها، ويمكن لعائلة كاملة أن تتغذى على لحمها لمدة ثمانية أيام! ومع ذلك فقد كان الجمهور أبعد ما يكون عن إظهار نفس ليونة الروح التي كان يبديها بستاني السوق، وكان حضور الجنرال في زي منصبه قد أثار سخط الساخطين على العكس من ذلك. نفس الشخص الذي تحدث أولاً ضد هيموكرات وضع يده على فمه وصاح: "بتولية!"⁸⁴ وفي الحال، لا كصدي ضعيف بل كصخب متزايد، رددت آلاف الأصوات: "بتولية! بتولية! بتولية!"

شحب وجه هيموكرات، لكنه لم يرف له جفن. كان يعرف تماماً ما يعنيه هذا التهديد، هذا التعجب الاستنكاري: كانت "البتالية" هي المورد الأسى لشعب سرقوسة عندما يضحيقون ذرعاً بمطالب طاغية أو أنشطة مواطن خائن ويريدون التخلص منه بأي ثمن. كان النفي بالتزكية من قبل الجمهور، وكان اسم الخارج عن القانون مرسوماً على عجل على أوراق شجرة الزيتون الخفيفة، وكان هذا هو الحكم الشعبي الذي لا يمكن أن يسود ضده أي قانون مكتوب؛ وبالفعل كانت الأيدي المحمومة تنتزع الأغصان من الأشجار المجاورة، وكان الساخرون يرافقون الجنرال

⁸⁴ Le Pétalisme « الاسم الشائع. (العصور القديمة) الحكم الشعبي الذي حكم به السراقوسيون بالنفي، لمدة خمس سنوات، على أولئك الذين بدت سلطتهم خطرة على الحرية العامة من مواطنهم.

ويدفعونه نحو التيموليونتيوم حيث كان يعقد اجتماع الشعب عادة. لم يفكر هيموكرات، الذي كان محاصراً في هذا السيل، في الدفاع عن نفسه. كانت نظراته الواضحة المتغطرة تحتقر أن تستقر على مهينيه. وعندما وصل إلى التيموليونتيوم، صعد إلى أعلى المنصة حيث يجلس قضاة الحكم الشعبي⁸⁵ الذين يقيمون العدالة، وقال للسرقوسيين الذين كانوا يشكلون كتلة سوداء متجمعة عند قدميه:

- أعيديني إلى قرطاج، أيها الشعب الأحمق، أيها الدوريون المتكبرون الحمقى! أعيديني إلى قرطاج! سأعود في اليوم الذي تنهارون فيه تحت وطأة أمجادكم التي لا طائل من ورائها، وسيمتد وهج نار مولوخ الأفريقي على جباه انتصاراتكم عاجزاً عن حكمكم.

⁸⁵magistrats amphipoles الاسم الشائع. (العصور القديمة) الحكم الشعبي الذي حكم به السراقوسيون بالنفي، لمدة خمس سنوات، على أولئك الذين بدت سلطتهم خطرة على الحرية العامة من مواطنهم.

الفصل الثاني

كان العمل في المدينة تحت الأرض قد انتهى منذ زمن طويل. ولكن دوركاس كان قد حافظ على عادته في المجيء إلى هناك كل يوم ليقتضي ساعات طويلة يحلم ببراكسيلا وهنا على الأقل لم يكن هناك شيء يشغله أفكاره، فقد كان هو نفسه في هذه المدينة الجنائزية كأنه رجل جديد، رجل يكاد يتجرد من جسده ومن عواطفه الدنيوية المعتادة التي تبلغ اثنتين وتسعين عاطفة، وقد بدأ بالفعل في الرغبة في الأفراح المثالية التي يجب أن يشعر بها المرء فيما بعد الموت. وهكذا، في هذه العزلة وفي هذا الصمت، بلغ تمجيده ذروته، وتراءت أمام عيني روحه صورة الهيروفانتيد في كل منعطف من منعطفات الشوارع البيضاء الضيقة.

ولكنه رآها ذات يوم بجسدها كما كانت تظهر أمامه وهي تغادر المعبد، مختتمة موكب الكاهنات. وفي هذه المرة أيضاً، كنّ جميعاً معاً، العذارى الثمانية المقدسات في طريقهن إلى أحد مذابح بيرسيفوني. وعلى الرغم من أن حجابهن كان قد أسدل على وجوههن، إلا أنهن كن يتحدثن مع بعضهن البعض مثل البشر العاديين. ولكن الجرس البلوري لأصواتهن لم يكن يبدو أنه يدنس هذا المكان المقدس، بل على العكس من ذلك، فقد كان يتناغم مع الضوء الشاحب الذي يكاد يكون قمرياً في الهيبوجيم؛ وبالمثل، كان يتردد في قلب دوركاس مثل موسيقى لذيذة.

وعندما اقتربت العذارى لم يكن أمام زوج فاني من الوقت إلا أن يختبئ في شق من الجدار؛ ومن هناك كان في وضع مثالي يسمح له بأن يرى ويسمع دون أن يراه أحد. وفي أي ظروف أخرى كان سيخجل من سماع كلمات لم تكن تقال له؛ ولكنه لم يكن لديه وسيلة للهرب، وإلى جانب ذلك كانت فرحة العثور على نفسه في طريق براكسيلا قد قضت على كل ما كان يخشاه في هذه اللحظة. وكان خوفه الوحيد هو أن يثير صوت قلبه، وهو يدق كالمطرقة الصلبة على سندان صدره الملتهب في صدره، انتباه الكاهنات. ولكن كلا؛ فقد مررن دون أن يشككن في وجود رجل هناك يتجسس عليهن، وحافظن بحكم العادة على إيقاع خطواتهن المتساوي، وتقدمن اثنتين اثنتين وهن يتبادلن عبارات خفيفة. قالت ديمو:

- لقد نذرت اليوم لبيرسيفونيا نذراً: ألا توجه نظرك إلى المدينة ونحن في الرواق في المساء. إن المدينة ضوضاء وضجيج، وكل ضوضاء حياتنا القديمة التي تنتهي عند سفح خلوتنا. فأجاب جلاوسيوس الذي كان يسير بجانب ديمو: (على العكس من ذلك، أحب أن أقارن هذه الضوضاء وهذا الصخب البعيد بالسلام الجميل الذي يسود قلبي، ويجعلني ذلك أعز الآلهة أكثر، وأشكرها بحرارة أكبر لأنها دعنتني إلى خدمتها.

وارتفع صوت براكسيلا عالياً قليلاً، مع تنويعات جعلته يشبه أعمدة المعبد الدورية، التي لا تتزعزع في بنيانها، ولكنها مع ذلك بدت مرنة: "يا

أخواتي، لقد أصبح من المبالغة أن نحاول أن نفرح في حالتنا الحاضرة بتذكر الماضي. ألم نتخلَّ عن كل ما أحببناه في الماضي وتخلينا عن أنفسنا تمامًا، حتى أننا في الواقع توقفنا عن العيش بأنفسنا وأصبحنا في الواقع مقدسات نقية ومختارة للإلهة؟

ومثل هديل الحمائم، ارتفعت همهمة من كل الأفواه العذارى:

- نعم، نحن مقدسات الآلهة الطاهرة المختارة. وبذهابهن ظل دوركاس مدفوناً في شق الجدار مدة طويلة. لم تهدأ دقات قلبه. وكانت رائحة زكية تعبق في الهواء، ممتزجة بذكري التوابل المحروقة أمام المذبح، ورائحة عطر العذارى؛

- وكانت ذبذبات كلمات براكسيلا مثل انبعاثات هذه العطور معلقة أيضاً في الشارع الأبيض الضيق، بين القبور...

وفي عدة مناسبات منذ ذلك الحين، رأى دوركاس العذارى مرة أخرى، وأحياناً كن جميعاً معاً، وأحياناً كاهنة واحدة ترافق الكاهن. ومن سماعه لهن وهن ينادين ويجاوبن بعضهن بعضاً، أصبح يعرفهن بأسمائهن. حتى أنه كان يستطيع أن يميزهن من بعيد بخصائص إيماءتهن أو طيات ثيابهن رغم أنهن كن جميعاً محجبات ومتشابهات. وكان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تعبر فيه براكسيلا وحدها إلى الهايوجيوم بصدفة مباركة. ماذا سيفعل عندئذ؟ هل سيكون لديه الشجاعة لإظهار نفسه لها، ليخبرها

كيف ولماذا كان هناك؟ في الواقع، لم يكن يعرف. ولكن رغبة عارمة كانت تقذف به مقدماً عند قدمي الهايبروفانت. لقد كان في تلك الحالة من الحمى العقلية التي تجعل كل جنون يبدو ممكناً.

وجاء ذلك اليوم أخيراً، وكان ذلك في الصباح، عندما كان كل شيء لا يزال نائماً في سرقوسة الحية، فوق المدينة الجنائزية. لم يكن دوركاس نفسه قد استراح بالكاد في تلك الليلة. كان قد أثار في ذهنه اعتبارات شتى، جامعاً بين غيرته الوطنية وحبه البطولي للهيروفيانتوس⁸⁶، وعند الفجر تسلل إلى المدينة الجنائزية. وساد الصمت هناك صمت أكثر إحكاماً وأكثر إحكاماً من المعتاد؛ وهناك، بين أرواح الموتى القدماء، ظل يحلم حلمه. وكانت براكسيلا تثير في عينيه كل ما في وطنه من نبل وفضيلة؛ وكانت هي حاميته الخارقة، النصر المجنح الصغير، ذو القدمين المنيعتين والجبين الذي لا تشوبه شائبة، الذي كان يقود كل النصر الأخرى الواقفة على عتبات المنازل وتحت الأروقة، والذي كان يحرس الجزيرة والقلعة والمنطقة كلها من أقصى أورتيجيا.

وبنفس الطريقة كانت الدوافع الدينية لدوركاس تتلخص في شخص براكسيلا وحدها؛ ولم يكن يعرف شيئاً تقريباً عن الطبيعة الغامضة

⁸⁶ I'hierophantide أنتيك، GR. الكاهن الذي، في الديانات الغامضة، ولا سيما الإليوسية، كان يوجه المبادرين المستقبلين بإظهار أعراض الأسرار لهم بشكل رسمي.

للإلهة؛ ولم يحاول قط أن يتغلغل في المعنى الخفي لعبادتها؛ أما اليوم فقد كان هناك شيء قاهر، إرادة ثانية ولدت في نفسه دفعته إلى معرفة المزيد؛ وأمام كل مذبح صادفه في طريقه كان يتوقف، ويتساءل عن الحجارة الصامتة. ولكن هذه المذابح كانت كلها تقريباً عارية وخالية من أي رمزية ظاهرية؛ وكانت بالكاد تميزها عن القبور، ومثلها مغروسة في الحائط ومثلها باردة لا شعور لها. قال دوركاس لنفسه: "سأمضي في حجي حتى النهاية"، "سأزور كل الأماكن المكرسة التي تأتي إليها الكاهنات لتقديم قرابينهن واحدة تلو الأخرى.

لقد كان الآن في جزء من الهايوجيوم⁸⁷ لم يدخله من قبل؛ ولا بد أنه كان، تحت الأشراد، المكان المقابل للمحجر المهجور الذي نظمه دينيس الأول قبل قرنين من الزمان كسجن. تذكر دوركاس سماعه حكايات أجداده، وهي تروي قسوة الطاغية الذي كان يجد متعة راقية في الاستماع من خلال ثقب في الحجر إلى أنين وآهات ضحاياها. ومنذ ذلك الحين، تحولت هذه "اللاتومي"⁸⁸ إلى حديقة غناء مزينة بالتماثيل والنافورات، حيث كان السرقوسيون يحبون التنزه في أوقات فراغهم. وكانت الطيور تغرد والأزهار

⁸⁷ l'hypogée في العصور القديمة، أي تجويف تحت الأرض (محجر، سرداب، معبد)، وخاصةً مقبرة تحت الأرض (الهيوجيوم هو نوع من المدافن التي كانت تستخدم بشكل رئيسي على طول ساحل شرق البحر الأبيض المتوسط؛ وتعتبر الهيوجيوم في وادي الملوك في طيبة من بين أكثرها روعة.)
⁸⁸ (latomie عتيق) مقلع الحجارة أو الرخام. (عتيق) محاجر سابقة كان يُحتجز فيها السجناء.

تنمو بكثرة، وتذكر دوركاس كلمات الشاعر الدوريان: "الدم يلد الورود والدموع شقائق النعمان".

ولكن هنا، في هذا الطابق الأخير من المدينة التي أعيد بناؤها مرات عديدة، لم يكن شيء ينبت - ولم يعد الموت، وقد شاخ، يلد ذرة من الحياة. ولكن على المذبح الذي ارتفع أمام عينيه رأى دوركاس باقة من الخشخاش... وبعد أن اقترب رأى الهيرووفانتيدة مستلقية على الأرض، وجهتها إلى الأمام؛ وقد امتزج بياضها الأبيض بلون الأرض الطباشيري، وغطاءها الكتاني فوق رأسها يطيل الخط المتعرج لجسدها. كانت تصلي؛ وكانت أنفاسها الثابتة ترفع ظهرها، وكتفاها متباعدان كغصني قيثارة. ومن وقت لآخر، كانت تنهيدة عميقة تجعل هذه القيثارة الحية تتموج أكثر فأكثر. ظن دوركاس أنها كانت تبكي.

فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ خَلْفَهَا مَسَافَةً وَأَنْتَظَرَ.. جثا على ركبتيه على بعد مسافة خلفها وانتظر، وبعد لحظات، نهضت براكسيلا وأخذت باقة الورد من المذبح. كان وجهها لا يزال محجوباً، ولكن يديها كانتا عاريتين؛ وكان بياضهما الممزوج بالتجسد الدموي للباقة قد ترك انطباعاً عميقاً في نفس دوركاس لدرجة أنه كان على وشك الإغماء. والآن انصب كل انتباهه على يدي الكاهنة الرائعتين. كانت تفصل البتلات واحدة تلو الأخرى بأصابعها

الخفيفة وسرعان ما تناثرت على المذبح بقع كبيرة لامعة مثل قطرات الدم. وارتفع صوت براكسيلا الصافي في أرجاء المدينة الحزينة فارتجفت أقيبتها:

"يا بيرسفونيا الجوفية يا هيكاتي الرهيبة، يا ابنة ديميتير المهيبية"، قال الهيروفانتيد: "أنا أنتهي إليك يا ذات الشعر الداكن! تمشين أمامي، مضيئة أو كئيبة بالتناوب، حزينة أو مليئة بالأمل مثل روجي.

- خذي لحمي، خذي دمي، خذي رغبتني وإرادتي. أجدد قرباني لك على هذا المذبح، من أجل مدينة مجدك، من أجل سرقوسة من ألف تاج. لا تدنس يدٌ غريبة جمالها المشع، ولا تدع ظلّ فكرٍ مذنبٍ يفصل عن فكرك الفريد العذراء المكرّسة لخدمتك."

ووضعت شفيتها على المذبح، وسط زهور الخشخاش الدامية، واستدارت ببطء. ورأت دوركاس راكعاً بلا حراك على الأرض، أبيض أيضاً في سترته الصوفية التي يبلغ وزنها رطلاً. وبدا لها كما لو أنه من أحد القبور نصف المفتوحة، وقد استيقظت فيه الأرواح فجأة وبعثت فيه الحياة من جديد؛ ونظر إليها بعينه المثبتة عليها نظرة جامحة. ولكنها لم تبد أي علامة من علامات الرعب؛ ولا شك أنها تعرفت عليه؛ ولا شك أنها احتفظت بذكرى ذلك اليوم الذي حملها فيه بين ذراعيه دون أن يلمسها بنظرة غير طاهرة؛ لأنها قالت له بصوتها المتناغم الغنائي:

-ما الذي تفعله هنا يا دوركاس يا ابن داميلس... فارتجف وهو يسمع هذا الفم المقدس الذي لا يوقر أحداً، وكأنه قام لتوه من القبر. وغمغم: "يا براكسيلا! يا أنقى الأنقياء!"... وماتت الكلمة على شفثيه، ولكنه استعاد عافيته ونهض وقال بقوة أكبر: "لا تغضبي إذا ما أمسكتني أمام أحد مذابح الآلهة. أليس من المشروع لأي إنسان أن يصلي من أجل ازدهار بلاده؟ من خلال الكتان الذي يغطيهما لمعت عينا براكسيلا الملتهبتان: "نعم، قالت: "نعم، من المشروع لأي إنسان أن يستدعي حماية الإلهة؛ ولكنك بالتأكيد لا تعلم أن هذا المكان مقدس وأن الدخول إليه ممنوع على المدنسين؟

-قال براكسيلا: (لست أجهل ذلك)، وازدادت جرأته، لأنه عرف من لهجة الكاهنة أنها لم تكن غاضبة منه. ثم أخرج من صدره مفتاح المدينة الجوفية الذي أعطته له الكاهنة وأظهره لبراكسيلا وقال: "انظري هذا المفتاح يا براكسيلا، لقد عهد إليّ به الكاهن الأعظم نفسه، ذلك الذي له السلطة علينا جميعاً، والذي يحرم حتى النطق باسمه. لا شك أنه كان يثق في ولائي. فهل تكونين أشد منه قسوة وتجبريني على إعادته إليك؟ ترددت براكسيلا؛ وكانت عيناها اللتان لم يرهما دوركاس قد انغلقتا عليه:

-قالت في النهاية: (كلا، لن أسيء إليك هكذا، فأنا أيضاً أؤمن بوفاء قلبك؛ ولكن تذكر أنه لا يحق لأحد أن يعرف وجوه الكاهنات أو حتى أن يلمس أطراف عبااتهم.

وأضاءت الفرحة الملتهبة وجه دوركاس العاطفي: (إن زيوس شاهد على أني أفضل الموت مائة مرة على أن أسيء إليك) ثم قال وهو يضم يديه: (ولكن دعيني أدفئ روجي بروحك يا براكسيلا! أنا في أشد الحاجة إليهما، لو تعلمين فقط! إن عبئاً ثقيلاً يثقل كاهلي؛ فمئذ نفي الجنرال هيموكرات أصبحت حراسة المدينة كلها في يدي، وكثيراً ما أرتجف وأنا أفكر أن مصير سرقوسة السامية في يدي. فساعديني بنصيحتك يا أنقى النساء يا من يخترق أسرار اللاهوت. كوني ملهمتي وهكذا سيكون هناك اثنان منا في المائة يسهران على أقدار وطننا: أنت بالصلاة وأنا بالسلح، وكانت براكسيلا قد أصغت إلى دوركاس دون أن تتحرك يداها الشاحبتان اللتان كانتا مشبكتين تحت ثغرها. وبصوت يكاد يكون عديم الإحساس أجابت:

- أنا مدينة لك بحياتي يا دوركاس، ولا أستطيع أن أرفض مساعدتك. ولكن عسى أن تحميينا الآلهة!

الفصل الثالث

لقد كان أوليس محقاً هذه المرة: فالمذبح الذي أمر به هيرون قد اكتمل، على الرغم من ضخامته، في وقت أقل مما كان سيستغرقه بناء البيت الضيق لفيلسوف في أي ظرف آخر. لقد انتصب في وسط المدينة، بين الإفريز الملون للمسرح والأعمدة البيضاء للساحة العامة، حيث ترقد رفات تيموليون⁸⁹، البطل الذي جاء ذات مرة من كورنثوس لإعادة استقلال السرقوسيين. كان هيرون قد أراد أن يجمع كل الآثار العظيمة التي تذكرهم بانتصار حريتهم بهذه الطريقة أمام أعين الشعب.

ولم يدخر أي جهد لضمان أن يكون الصرح الجديد جديراً بمكانة بين روائع أجمل المدن. كانت المنضدة الضخمة التي كان من المقرر أن يتم التشييع عليها قطعة واحدة من الرخام التسياني الذي لا تشوبه شائبة، وكانت حبيباته الدقيقة اللامعة تلمع في ضوء الشمس مثل جلد التماثيل البيضاء التي ترتجف في عريها. وكان هناك سارية ذات لفائف تحاكي شكل السرخس الليدي الطويل، تمتد من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر تحت المذبح، وبين هذه اللفائف لوحة جدارية مرسومة تحكي أعظم عمل بطولي في تاريخ سرقوسة:

⁸⁹ Timoléon تيموليون، باليونانية القديمة ، ولد حوالي 411، وتوفي 337 قبل الميلاد، كان جنرالاً وسياسياً يونانياً من كورنثوس

معركته ضد الأثينيين في الوقت الذي هزم فيه أسطول نيقياس على يد الإسبارطي جيليبوس في مياه بحر صقلية. كان هذا النزاع القديم بين دوريان لاسيديمونيا واليونان الكبرى وبين أيوني أثينا لا يزال حياً في أذهان الجميع، لأنه كان منقوشاً في دماء هذين الجنسين التوأمين، اللذين كانا متساويين في الغيرة على مجدهما، ولكن كلاهما كان مغرماً بالجمال البطولي إلى درجة أن آية من يوريبيدس بعد المعركة كانت تتلى بصوت عالٍ جعلت هذين العدوين من أبناء الهيلين يسقطان في أحضان بعضهما البعض.

كانت هناك صور أخرى مألوفة لعبقرية الشعب تزين المذبح. وكان أحد النحاتين قد استحضر رؤوساً عملاقة للغورغونات الثلاث، ستينو ويوريال وميدوسا، وهي تزيد كما جرفتها شاربيديس إلى الشاطئ؛ ورأسي الغريتين بيفريديو وإنيو وقد ارتدتا على وجهيهما طيات كثيرة كما يخلقها اليوروس على سطح الماء. بدت هذه الشخصيات النسائية الخمس، بتعايرهن المختلفة، ولكنهن جميعاً ضخام الجثة متجهمات، وكأنهن يتذوقن مسبقاً فرحة الشعور بدماء الضحايا الحارة التي تسيل على جباههن.

لقد كانوا هناك بالفعل، هؤلاء الضحايا، البالغ عددهم المائة وخمسون ثوراً صغيراً الذين كان من المقرر أن يضحي بهم في لحظة، وكانت كتلتهم خلف المذبح، وقد شكلوا خلفه مجموعة منحوتة من كتلة من التناز كان

قد نحتها ميرون من اليوثيريس. كانت كلها سوداء معتمة، حتى قرونها كانت سوداء، ومنخراها متجهتان نحو جبل ثيمبريس الذي انحدرت منه. وكان يكفي لحراستهما ثلاثة رجال، على الرغم من أنهما كانتا متهورتين متحمستين ناريتين؛ ولكن قبل أن يؤتى بهما كانتا قد جيء بهما مع العجلتين بعناية؛ والآن، وهما لا تزالان تحلمان بذلك النعيم، وقفنا بلا حراك، لا حركة غير حركة أنفاسهما في خاصرتيهما العميقتين.

بدأ الحشد من حولهم يتكاثف. جاء الناس من كل مكان، من إيببوليس وتيتشي، ومن كل شوارع أكرادين المتعرجة والمتشابكة. وجاءوا مشياً على الأقدام أو في عربة، من القرى المتناثرة في السهل، وراء مجرى نهر أنابوس؛ وكان هناك أناس قد ساروا منذ اليوم السابق وما زالوا يحملون في أيديهم عصا غليظة في حجم عصا هيراكليس. ولم تخف بعض النساء من إحضار أطفالهن الصغار، وقد حملنهن وقوفاً على أكتافهن على طريقة الأمفورا. وكان الأطفال يتدافعون في المستنقعات، ويتدافعون من كل جانب دفعة واحدة، وبدا كأنهم يخرجون من بين الحجارة.

ومع ذلك، كانت أورتيجيا تتمايل على الأمواج مثل سفينة ثلاثية بيضاء مربوطة بالشاطئ. وكان قصر الملك ومعبد أرتيميس الرئيسي والقلعة ورواق نافورة أريثوسا قد تضاءلت كلها في الضوء الضبابي الذي سقطت أشعته عليها، بينما كانت الشمس تسقط بحدة على وسط المدينة، حيث كان

يقف مذبح هيرون الجديد اللامع. عندئذٍ خرج الملك العجوز، ولم يكن يرافقه سوى دوركاس. وعلى الرغم من كبر سنه، فقد كان يمشي على قدميه، غير راغب في أن يكون مثلاً للتباهي أمام شعبه. وكان قد رفض أيضاً أن يصطحبه حرسه المعتاد من الهوبليز في هذا المهرجان من الحرية. وكانت العلامة الوحيدة الدالة على قوته هي التاج الذي نقشه أورثون على شعره الأبيض، وكان سميكاً وعالياً كالبرج المعشوشب بالورود؛ ومهما يكن ثقيلاً فإنه لم يكن يبدو ثقيلاً على جبين الرجل العجوز المهيب. وبجانبه تقدم دوركاس باحترام. وكان الملك يعامله بألفة ويتكى أحياناً على كتفه. وعندما مرا بالمنزل المجاور للقصر الذي كان يسكنه الضابط مع زوجته الشابة، رأيا وجه فاني الأبيض يشرق من النافذة. وكانت متوقعة هناك، لا لتلقي نظرة على وجه هيرون الموقر، بل لتلقي نظرة أخرى على حبيبها دوركاس؛ وعندما كان قريباً جداً منها، لا يفصله عنها إلا سمك الزجاج، قبلته بيدها، ثم فتحت النافذة برفق كأنما تريد أن تترك عصفوراً يطير بعيداً. ورأى الملك العجوز، الذي احتفظت عيناه بكل حدة الشباب، القبلة فابتسم. ثم قال للضابط: (لا بد أنك ولدت تحت نجم محظوظ يا دوركاس، فأعظم هدية يمكن أن تمنحها الآلهة للرجل هي الزوجة المخلصة!

- قال دوركاس: (بالفعل، وأنا أصلي كل يوم إلى اللاهوت أن يجعلني جديراً بمثل هذا الفضل... وبينما كان ينطق بهذه الكلمات، لم يستطع أن يمنع

نفسه من التهنيد. لقد بدأ يبدو له هذا الحنان العظيم من فاني الذي طالما سعد به سعادة بالغة يبدو له غير معقول وصبياني؛ ولم يعرف كيف يستجيب له، وتمنى أحياناً لو أن تلك التي كان يسميها شعلته الصغيرة، ونوره الصغير، لم يكن لها من الآن فصاعداً بالنسبة له إلا عاطفة الزوجة الهادئة... وعندما وصل الملك إلى التيموليونتيوم⁹⁰، كان الحشد مكتظاً لدرجة أن دوركاس، وقد ساوره القلق، ندم في نفسه على أنه لم يركب الهوبليز. ولكن، كما لو كان بسحر ساحر، انفتح ممر أمام الرجل العجوز المتوج بوروده الذهبية، وتعالق هتافات هائلة من كل فم. لم يتبق له سوى أن يبدأ الذبيحة. كان رئيس الكهنة الذي يحمل الاسم نفسه واقفاً تحت مظلته، وجهته معصوبة بعمامة أرجوانية سميقة، وكان الثيران المائة والخمسون قد اقتيدوا معصوبي الأعين حول المذبح. وخلفهم كان الكهنة قد فرشوا الشعير المملح على الأرض. اتخذ الطاغية الطيب مكانه في وسط المنصة التي كانت قد أعدت للعائلة المالكة، والتي كان عرشه يعلو عليها؛ وبإشارة من يده الممدودة سلم الثيران المذبوحة إلى رئيس الكهنة ليقدمها شكراً لزيوس المحرر.

سالت الدماء. وبعد هتافات الناس، ارتفعت صرخات الثيران المضطربة من الدهشة إلى السماء؛ ومن أحد طرفي المذبح الهائل إلى الطرف الآخر

⁹⁰ Timoléontium تيموليون، يوناني قديم، ولد حوالي 411، وتوفي 337 قبل الميلاد، كان جنرالاً يونانياً وسياسياً من كورنتوس

كانت أجنحتها المتشنجة تبرز سوادها الباهت على بريق الرخام المتلألئ. كان الدم يتدفق؛ أولاً في شلالات فوق جباه الجورجيون المبتهجة، ثم في جداول متناثرة على طول اللوحة الجدارية البطولية، ثم في وسط الساحة في بحيرة سميكة راكدة، يزداد زلالها ارتفاعاً كل دقيقة. عند هذه النقطة، أغمي على العديد من الناس في الحشد، لدرجة أن انصباب هذه السلعة البرية المتهبة قد أضفى على الهواء كآبة حيوانية.

غير أن هيرون الذي كان جالساً بلا حراك على منصته كان يراقب الذبيحة، وفي قلبه شكر زيوس القدير، الحامي الأبدي لأبناء هيلين، على حقنه دماء شعبه وقبوله دماء هذه الوحوش التي لا فائدة منها في المقابل. سألت الدماء، وخفتت كل الإشاعات؛ ولم يسمع إلا صوت رئيس الكهنة رافعاً ذراعيه في صلاة من أجل المدينة، وفي المخاض الأخير من العذاب، كان مائة وخمسون ثوراً أسود يلهثون على الرخام الأبيض. ووقع نظر الملك العجوز على هيرونيموس الصغير الواقف أيضاً على حافة المنصة. كان الطفل، الذي كبر فجأة وأصبح مراهقاً تقريباً، يدير لساناً نارياً على شفثيه الحمراءوين:

واحتشدت عيناه الصغيرتان القاسيتان بفرح شرس، واندفعت روحه كلها - كما كان ظاهراً - إلى ذلك الدم ولجأت إليه وسبحت فيه في سكرة جسدية. وبينما كانت الرائحة الملبسة لا تزال تتلاشى وتجعل الغربان تحوم فوق

سرقوسة بألف تاج، كان الطفل الملكي، وقد قبض قبضتيه على بعضهما البعض، وفتح منخريه يستنشق بشهوة رائحة الدم والمعاناة والموت... انتهى الجزء الليتورجي⁹¹ من الذبيحة. ونزل هيرون ببطء من درجات العرش؛ وسرعان ما اختفى الشخص الذي يحمل الاسم نفسه أيضاً، تاركاً المضحين يحرقون القربان ويشاركون الجموع في قطعه. وكان الشعب كله الآن هو الذي سيحتفل بشعائر حرите: ومن كل جانب ارتفعت الأغاني على النمط الدوري، منخفضة وفاتنة، وإن كانت النساء والأطفال قد انضموا بأصواتهم إلى أصوات الرجال. كان من الواضح أن الموسيقى كانت وظيفة أساسية لهذا الجنس، بل كانت روحه الثانية؛ كانت مصدر "النشوة" والبهجة والقوة السرية. فمنذ المهد فصاعداً تعلم الأطفال حديثو الولادة أن يثنوا لهجاتهم عليه، وتمرنت الفتيات الصغيرات على الترانيم المتناغمة التي كانت تسحر أزواجهن. وفي هذه اللحظة كانت هذه الروح الثانية من شعب سرقوسة ترتفع نحو اللاهوت في فورة واحدة رائعة، ولكن سرعان ما تبعت الترانيم ترانيم أخرى. واصطف المراهقون تحت الأروقة وأضافوا على الشيوخ منظر القتال وقد تشابكت أطرافهم اللينة التي دهنوها بزيت الشبت، كما تشابكت الأغصان البيضاء للأشجار المستوية؛ وكانت جباههم المكلفة بالشعر الكثيف المستدير تلامس بعضها بعضاً أحياناً

⁹¹ Liturgique تشير كلمة ليتورجيا إلى جميع الطقوس والاحتفالات والصلوات المخصصة لعبادة إله واحد أو أكثر، كما هي محددة وفقاً لقواعد قد تكون مدونة في النصوص المقدسة أو التقاليد.

كأقراص أحيطت بأشجار الغار. وكان بعضهم يحاكي رقصات قتالية؛ وكانوا ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً، وعند سماع صوت المكبر انطلقوا جميعاً نحو الهدف؛ وكانت ركبهم النشيطة وأرجلهم المتوترة تندفع إلى الأمام بدقة متناهية بحيث لا تستطيع العين أن تميز حركة واحدة من بين هذه الأجسام الكثيرة المتجمعة؛ - وهكذا في نقش رخامي بارز من الرخام تتحدد جماعة المحاربين المتحركة في خط واحد. وفي هذه الأثناء كانت النساء يحطن بالكهنة ليحصلن على نصيبهن من اللحم. كنّ قلقات ومشغولات، وقدمن وجوههن إلى اللهب البنفسجي للمحرقة حيث كانت أحشاء الضحايا تُستهلك؛ وبعضهن احتلن للحصول على ضعف نصيبهن. لكن الكهنة لم يكثرثوا لذلك، كانوا يعلمون أنه إذا ما تم إطعام الجميع فسيظل هناك ما يكفي لإطعامهم وعائلاتهم، وهكذا خدموا واستمروا في خدمة الجموع. وانتهت الوليمة التي كانت قد بدأت بالتأمل، بالحمى والهرج والمرج، وقد أحضروا من البيوت المجاورة فناجين من النبيذ الأسود المكلل بالمرdqوش. وشرب الناس نخب مجد المدينة، ونخب الشيخوخة السعيدة للملك هيرون، ونخب زيوس المحرر والإلهة الثلاثية. أمام المذبح، بالقرب من المحرقة، كانت هناك رقصات أخرى، وأغانٍ أخرى تهتز في الهواء، واخترع الشبان الذين كانت أقدامهم عارية في الدم البارد الذي كان يجف على الأرض، طرقاً جديدة للتباهي بمهارتهم. وكان الشيوخ المائلون نحوهم يبتسمون؛ وبدا أن هذه الدماء في المدينة، وقد تحررت أخيراً من كل

القيود، ستكون آخر ما يسفك من الدماء، دماء مائة وخمسين ثوراً تقدّم كضحايا، بينما هناك، على المنحدرات الخصبة لثور ثيمبريس كان مزمار رعاة سرقوسة يهز قطعاناً أخرى لا حصر لها، يهدوء، تحت السماء النائمة.

الفصل الرابع

بصحبة دوركاس، عاد الطاغية الطيب إلى القصر. وكان همه الأول وهو يصعد السلالم أن يسأل عن ابنه جيلون الذي لم يره على المنصة عند التضحية. فأجابه أحد الحراس قائلاً: "إن الأمير جيلون ليس على ما يرام"، ثم عاد إلى صمته الأمر.

ولم ترض هذه المعلومة الغامضة الملك العجوز، فذهب إلى الشقة التي يشغلها ابنه داخل القصر دون أن يكلف نفسه حتى أن يضع تاجه، ولكنه التقى على عتبة القصر بأرخميدس العظيم، فأقلقه ذلك وطمأنه في آن واحد: لقد أحب العالم جيلون وأحبه جيلون بدوره؛ وفي هذا القصر الذي كان الجميع فيه منصرفين إلى الحياة النشطة كانا هما الكائنين الوحيدين المشغولين بالعلم والتأمل.

-فقال الملك: (حسنأ، ما الأمر؟) فوضع أرخميدس إصبعه في فمه، وقال: (لا جديد. في هذه اللحظة هو يستريح. يجب أن نحترم هذا الهدوء الذي ترسله إليه الحكمة الإلهية).

وعاد هيرون إلى الورا دون إصرار؛ فقد كان يعلم أنه لا يوجد علاج للمرض الذي كان يعاني منه جيلون وكان يعلم أنه لا علاج له؛ فقد كان ضعفاً يومياً، وفناءً متتابعاً لكل القوى الجسدية، بينما كانت الروح من ناحية

أخرى تزداد حيوية، وتلقي بريقاً جديداً، وترتاح شيئاً فشيئاً من المادة شيئاً فشيئاً مثل الحجر الثمين من غثائه.

-وتابع أرخميدس قائلاً: (لقد وعدته بأنني سأكون هناك) وكان يتكلم ببساطة، كما لو كان مدركاً أنه يؤدي واجباً، ووجد من الطبيعي أن يتخلى عن ذلك الذي كان بهجة حياته، ذلك الذي كان يملأها تماماً.

فتأثر دوركاس وغمغم قائلاً: إذن فأنت تقدم أعمال القلب على أعمال العقل، فأجاب أرخميدس: نعم إن اللطف أفضل من العلم كما يفضل العسل الذي يحلي الفم على الخمر الذي يهيج العقل ويزهو به. وصلنا إلى الغرفة التي اعتادت الأسرة الملكية أن تجتمع فيها حول الملك، الذي لم يبلغ سن الشيخوخة، عند المساء. ولم يكن هناك ما يوحي بالسلطة العليا، ما عدا الكرسي المرتفع المسنود بالعاج الذي يعلوه نصر ذهبي صغير، والذي لا يحق لغير الملك أن يجلس عليه. جلس عليه، وأزاح دوركاس على الفور التاج الثقيل عن جبهته. ومشى أرخميدس كعادته جيئة وذهاباً مدفوعاً بحماسة أفكاره. غير أنه بعد أن سار في صمت لبضع لحظات، توقف أمام هيرون وقال له:

-حسناً يا ابن عمي، هل أنت راضٍ عن يومك؟ هل كانت حماسة الشعب على مستوى توقعاتك؟ قال الملك: كل شيء كان كاملاً؛ كل ما كان ينقصه هو حضور جيلون وحضورك أنت، قال أرخميدس: (لا أحب أن أرى سفك الدماء) فسكت الملك ولم يرد وقيل في البلاط أن العالم اللامع كان يتبع

سراً عقيدة فيثاغورس، وأنه كان يؤمن بإله واحد يجب أن يقدم له الإنسان قرابين لا دم فيها. على أي حال، كان سلوكه الخارجي على غرار قواعد الزهد الفيثاغوري⁹²:

وكان يتحاشى بعناية أن يقضي حتى على أصغر الحشرات، وكثيراً ما كان يترك البعوض في حر الصيف يعلق بوجهه بدلاً من أن يخاطر بإيذاء نفسه بطرده بيده. كان هناك الكثير من الناس في اليونان الكبرى وصقلية وخاصة في سرقوسة ممن حفظوا في نفوسهم الوصايا التي أورثهم إياها الفيلسوف المتكشف؛ وبالأمس كان إمبردوقليس⁹³ مثل أرخميدس اليوم أحد أقوى الحلقات في سلسلة الحقيقة التي حافظت من الهند إلى مصر ومن الشرق إلى الغرب على تقاليد المثالية النقية من خلال أشكال الخرافات المحلية العديدة.

وبعد هزيمة تابع الملك العجوز: "على أنه كان أمراً قريباً، على أية حال، أنه قد فاتك بعدم مجيئك مشهد عجيب، فريد في حوليات العالم، وأجمل لو حدث، من مشهد المذبحة التي كانت تضم مائة وخمسين ضحية تم ذبحها

⁹² L'ascétisme pythagoricien ومع ذلك فقد ظل هذا الزهد معقولاً، إذ رفض فيثاغورس أي شكل من أشكال الإمامة، ودعا إلى الرفاهية والصحة، وعرف كيف يكيف نفسه مع متطلبات العصر. كانت المدرسة الفيثاغورية التي أسسها فيثاغورس (580-495 ق.م) في فيثاغورس في منطقة ماغنا غريكا أخوية علمية ودينية في آن واحد: كانت الفيثاغورية تقوم على التلقين وتقدم لأتباعها طريقة حياة أخلاقية وغذائية، بالإضافة إلى البحث العلمي في الكون.

⁹³ Empédocle كان إمبردوقليس (باليونانية القديمة فيلسوفاً وشاعراً ومهندساً وطبيباً يونانياً من صقلية في القرن الخامس قبل الميلاد.

على المذبح). وكان الملك قد تكلم بانفعال وبشيء من تلك الجدية التي يضعها الرجال المسنون في التعبير عن أفكارهم الحميمة، وكان الملك قد تكلم بانفعال وبشيء من تلك الجدية التي يضعها الرجال المسنون في التعبير عن أفكارهم الحميمة. وتوقف أرخميدس أمامه، وقد أذهله صوته مرة أخرى. وكان يستمع، قال هيرون ببطء: "أنا رجل عجوز، لقد حكمت شعبي ستين عاماً، وخلال هذه السنوات الاثنتي عشرة كان أعظم طموحاتي أن أعيد إلى المدينة الحريات التي جعلتها عظيمة جداً في عهد تيموليون وهيرون الأول جدي. ولتحقيق هذه الغاية، كسبت صداقة قرطاج وصداقة روما بدورها، كما يبهر بحار بين شعبي سيلا وشاربيديس اللتين تود أمواجهما الجشعة أن تبتلعه. ولكن الليل يجعل الربان خائفاً: ماذا سيحل بهذه الحريات التي استعدتها واحدة تلو الأخرى؟"

-ماذا سيحدث لمجد وجمال سرقوسة؟ إن جيلون كما تعلمون قد وسمه الموت بالفعل، ولعله سينزل إلى القبر قبلي. إذن سيكون هيرونيموس، ذلك الطفل الشرير والقاسي، هو الذي سيحمل العبء الثمين بين يديه. أكره التفكير في ذلك. هذا الهاجس يزعجني ويسمم شيخوختي. والآن، وفي حضرة الشعب المحتشد، دفعني رغبة عارمة إلى النزول عن درجات عرشي وأضع تاجي على شعري الأبيض بكلتا يديّ وأضعه في وسط المذبح حيث رتب التاج. ما رأيكم يا أصدقائي؟ ألم يكن منظرًا جميلاً؟

وكان أرخميدس ودوركاس بطيئين في الرد، وعيونهما مبللة بالدموع. ولكن في ذلك الوقت، دخلت ابنتا هيرون إلى الغرفة. كانتا طويلتين وسمراوين؛ وكان شعرهما المرصع باللؤلؤ يشكل عدة طبقات على جبهتهما، وكانتا ترتديان ثياباً طويلة من القماش المرصع بالذهب. ووضعتا نفسيهما على يمين ويسار المقعد الملكي، وأخذتا تحتضنان الرجل العجوز، وتقبلان يديه ووجهه بالتناوب وتتحدثان إليه بكلمات رقيقة. وترك هيرون نفسه في دلاله وابتسامة أبوية على شفثيه، ثم قال لأرخميدس و دوركاس:

-هذا ما منعي من وضع تاجي. آه يا أصدقائي، إن الذي لا يريد أن يكون عبداً في بيته يجب عليه أولاً أن يبعد النساء عن بيته. ولكن الأميرات ابتسمن بدورهن. فقالت فيليستيس التي تزوجت أندرنودور:

- لماذا الخوف من نزوات هيرونيوموس يا أبي؟ ألن نكون هنا لإرشاده؟ فأجابت نيريس الابنة الصغرى، التي كانت تدعى هيراكليوس أيضاً:

- "إلى جانب ذلك، لماذا تتحدث عن الموت؟ إن الأمراض هي التي تصنع الشيخوخة وليس السنوات. أنت قوي وبصحة جيدة. إن الآلهة ستدعك تبقى معنا لفترة طويلة قادمة.

أوماً هيرون برأسه وهو نصف مقتنع، ومثل كل الأقوياء، حساس لمداهنة النساء.

-قال في النهاية: "نعم، أنا أعرف": "أنتما تريدان أن يحكم هيرونيموس أو بالأحرى تريدان أن تحكما له. أنا لن أحرمكما من هذا الحق الذي يخصكما. ولكن ضعاً في اعتباركما يا بنتي، أن تصرفاتكما يجب أن تكون محكومة لا بمتعتكما، بل بالعدل، ولكي تصرف الحديث عن هذا الخط القاسي، ولأنها أيضاً كانت تحب أن تفرض رغباتها، قالت نيريس مخاطبة أرخميدس:

- هل نلعب لعبة حل الألغاز؟ سيصل جيلون إلى هنا بعد قليل، ولا شك أنه سيقدم لنا بعضاً من تسلياته المفضلة.

كانت تتكلم بصوت عجيب، دون ذلك التكلّف في "الابتدال" الشائع بين سكان سرقوسة. وقيل في المدينة أنها، مثل الحورية التي تحمل اسمها، كانت تملك القدرة على سحر جميع البشر، دون أن تقلقهم قط إلا لتجعلهم يتألمون. أما أختها فيليستيس، من ناحية أخرى، فقد كانت تتمتع بقلب قادر على كل أنواع الانفعالات تحت وجه متقشف إلى حد ما؛ وكلتاهما، بجمالهما المثالي ولكن المتغطرس، كانتا موضع إعجاب الناس وخوفهم في آن واحد.

كان أرخميدس قد وافق. ولعله كان واقعاً تحت تأثير الجاذبية المعصومة التي كانت الأميرتان حولهما. وعلى كل حال، فإن صداقته لجيلون جعلت من واجبه أن ينغمس في كل ما يمكن أن يليه عن لحظاته الأخيرة. وجلس

على المقعد الذي كان قد أعد له قبالة الملك العجوز، وبدأت نيريس في الحال "لعبة الجريف" متوجهة بالكلام إلى والدها: (ما هو السبب الذي يجعلك لا تصدق أحلام الخريف؟)

فأجاب الملك: (لا أدري)، (لم أقل قط من أحلامي؛ ولكن دوركاس سيخبرنا.)

فأجابه دوركاس الذي كان لا يزال واقفاً إلى جانبه: (أليس الأمر كذلك، إن العقل في الفصل الذي تسقط فيه الأوراق يكون أقل قدرة على الاحتفاظ بالصور، حتى إذا استيقظت هذه الصور طمسها واندمجت أمامه، كما تندمج الأوراق في أسفل الشجرة العارية؟)

- جيد! قالت فيليستيس. من سيعطينا الآن الجواب على هذا اللغز: "أنا مولود من أبوين بلا أسلاف، وأنا بلا نسل، أنا "إفيبي"⁹⁴ متوج بالورد، شاب دائماً، مغرٍ دائماً".

- قال أندرنودور الذي كان قد دخل لتوه: (إنه الربيع) فانفجرت نيريس ضاحكة في وجه زوج أختها الغليظ: (لا على الإطلاق). هل سمعت يوماً أن الربيع لا نسل له، في حين أنه على العكس من ذلك يلد كل ما يحيا؟ لا يمكن أن يكون إفيبي الذي يتحدث عنه اللغز إلا إيروس، الذي يقال إنه

⁹⁴éphèbe في اليونان القديمة صبي صغير يبلغ سن البلوغ.

ابن سيبريس⁹⁵ ولكنه في الواقع ولد مباشرة من الفوضى، في فجر الزمن.
ما رأي أرخميدس اللامع؟

- مَاذَا يَظُنُّهُ فِي الْحُبِّ مَنْ كَانَ يَتَجَنَّبُهُ دَائِمًا بِحَدَرٍ؟ ثم أليس الذين يطيعونه
هم آخر من يعرفونه؟

- قال دوركاس: "لا يزال بإمكانك أن تضع هذا في فم إيروس". (إن مسحوق
الذهب الذي يأتي من أثيوبيا قد حل محل قوسي وسهمي) ولكن الملك
العجوز مال إلى أندردور (و جيلون؟ إنه يستغرق وقتاً طويلاً. ألم يستيقظ
بعد؟)

- "سأكتشف ذلك"، قال أندردور.

غادر الغرفة وساد الصمت. وكانت الأميرتان قد انضمتا إليه وكانتا
تتحدثان بأصوات منخفضة. وكان أرخميدس قد استأنف قطار أفكاره،
وكان دوركاس ينظر إلى وجه الملك، حيث كانت الانعكاسات والظلال تمر
تباعاً كما في سماء المساء، وأخيراً ظهر جيلون شاحباً بطيئاً ولكن دون أن
يتكى على اليد التي قدمها له أندردور. ولما رأى الحلقة العائلية التي كانت
تنظره ابتسم ابتسامة خافتة: (لقد كنتما تلعبان لعبة الجريف). اتضح

⁹⁵ Cypris أحد الأسماء القبرصية للإلهة أفروديت الإغريقية أفروديت - سيبريس (البرقة)، وهو اسم المرحلة الأخيرة في
تطور يرقات القشريات الدائرية (البرنقيل) ...

بشكل رائع! لقد كنت أدور في ذهني للتو حول مشكلة تۇرقني في حلها، وأود أن أطرحتها على ابن عمنا أرخميدس؛ فقال أرخميدس: (أنا أستمع إليك) وكان المريض قد جمع شتات نفسه، ومن خلال جفنيه المنخفضين كان لهيب عينيه المتلألئ يلمع؛ وكانت أصابعه النحيلة البيضاء كالمغازل العاجية تبدو متوهجة في نصف الضوء الذي ملأ الغرفة. ولكن عندما جاء الحراس ليضيئوا المصابيح البرونزية العالية، ظهر جيلون وسط المحيطين به كشخصية غامضة فاترة. هل يبدأ الأمر من حيث يتوقف المحدود عن أن يكون قابلاً للتطبيق؟ على سبيل المثال، هل يمكننا القول بأن المادة لا نهائية لأنه لا يمكن قياسها؟

-لا، قال أرخميدس دون تردد: "لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يتصور اللانهائي بذكاء الإنسان المحدود؛ ولن ينكشف له اللانهائي إلا عندما يتحرر من جسده المادي فيرى روحاً لروح الحكمة التي نظمت الكون. أما المادة، فإنك تظلمها كثيراً بافتراضك أنها لا يمكن أن تكون أبداً غير محدودة وملموسة؛ فقد كانت في الأصل واحدة، ولم تكن العناصر المختلفة التي تحتويها قد تجلت بعد. فالمادة القابلة للانضغاط أو التمدد حسب الإرادة، والقدرة على أن تغطي مساحة أكبر بعشر مرات من المساحة التي تشغلها في الضخامة، أو أن تنقلص إلى حجم قشرة الجوز، هذه هي المادة التي يريد البعض أن يعتقد أنها لا نهائية ...

- بواسطة هيراكليس! هذا قوي! ضحك أندرونودور ضحكته المبتذلة. وقال:
(هلا أخذت على عاتقك أن تعد حبات الرمل التي تتكون منها الكرة
الأرضية؟)

- أفضل من ذلك. لقد كنت أعمل منذ زمن طويل على عمل سأطلق عليه
اسم (الأرياري)⁹⁶ سأتمكن فيه بالجمع بين العد الهندي واليوناني من
تقدير ليس فقط حبات الرمل في كرتنا، بل تلك الموجودة في كرة أكبر بكثير
يفترض أن مركزها الأرض وحدودها مدار الشمس. وتابع العالم ضاحكاً:
(لقد كنت أشتغل منذ زمن طويل على هذا العمل).

وكان جيلون هو الوحيد الذي لم يبتسم وظلت عيناه المريضتان اللتان
كانتا مملوءتين بالوقار والصفاء مثبتتين على فم أرخميدس العظيم:

- إنني أهدي إليك هذا الكتاب يا عزيزي جيلون؛ وسترى أن الأشياء
المخلوقة مهما بدت لنا غير محدودة لا تساوي شيئاً بالقياس إلى اللانهائي
الذي هو الإلهي.

- شكراً لك يا ابن عمي ". لكن أسرع وأنهاي عمك. "

ثم ابتسم ابتسامة خافتة، وأضاف وهو يرى جبين أرخميدس قد اسودّ:

⁹⁶ l'Arénaire الأرياري هو عمل لأرخميدس يحاول فيه تحديد عدد حبات الرمل التي يمكن أن تملأ الكون. وللقيام بذلك،
كان عليه أن يخترع طريقة لوصف الأعداد الكبيرة للغاية، والحصول على تقدير لحجم الكون.

-ماذا يهم على أي حال، بما أننا يجب أن نلتقي مرة أخرى يوماً ما؟ لا شيء يتولد من الروح، ولا شيء يهلك من الموت القاتل، فليس هناك إلا الامتزاج والانفصال. أليس هذا ما علمتني إياه؟

خلال هذه المحادثة، ظل الملك العجوز صامتاً وعيناه مثبتتان على التاج الذي وضعته دوركاس عند قدميه. ولم تكن التأمّلات الفلسفية تهمة كثيراً، ولطالما أسف في قرارة نفسه على أن عبقرية أرخميدس لم تكن تميل إلى الاعتبار العملية. وقال أخيراً: (لقد حان دوري لأطرح سؤالاً على ابن عمنا اللامع).

وانحنى إلى أسفل، والتقط التاج الثقيل ووضعه على حجره. قال هيرون: "أودّ أن أعرف ما إذا كان الصّائغ الذي صنع هذا التاج لم يستبدل سبيكة بالمعدن النقي الذي زود به. لقد كنت أشك منذ فترة طويلة في أنه يتصرّف بطريقة احتياليّة، على الرغم من أنني لا أملك دليلاً ملموساً. واليوم، أكثر من أي وقت مضى، يلاحقني هذا الشكّ.

قال أرخميدس: -. "هل هناك أي طريقة لتوضيح الأمر؟ لا أستطيع أن أفكر في أيّ طريقة أخرى غير إذابة المعدن لمعرفة ما هو مصنوع منه." قام الملك العجوز بإشارة محبطة:

-كيف أفعل ذلك؟ لا توجد طريقة أخرى؟ أليس من المرّك أن تكون قادراً على مناقشة طبيعة النجوم ومع ذلك تكون غير مميز عندما تواجه شيئاً

تستطيع أن تلمسه بيدك؟ هذه الجوهرة مثيرة للإعجاب. انظر إلى هذه الورد: إنها تتنفس؛ فالنسغ لا يزال في بتلاتها. لا أستطيع أن أحمل نفسي على أن أسمح لأحد أن يلمسها.

انفعل أرخميدس :

- هذا مستحيل، مستحيل تماماً وإلا، وإلا كيف يمكنني أن أتأكد من أن هناك استبدال؟ لا بد أنك وزنت التاج، لا شك في ذلك، فأجاب هيرون:- لا شك أن هذا كان أول ما يشغلني. إنَّ وزنه مساوٍ لوزن السبيكة التي قدمها ثيوفراستوس، أمين خزانتي، إلى أورثون تحت نظر دوركاس.

ولم يعد أرخميدس يصغي إليه؛ وكان جبينه منخفضاً، وقد استأنف سيره في الغرفة وهو يتمم بكلمات غير واضحة. ثم غادر فجأة دون أن يودّع أحداً، فقالت نيريس:- (ها هو ذا يعود مرّة أخرى إلى نظرياته واستنتاجاته.

في رأبي"، قال أندرنودور: "سيكون من الخطر محاكمة أورثون، حتى لو كان مذنباً. فالصائغ سينتقم من أحدنا في أول فرصة. ما رأي دوركاس؟

- من ناحيتي، لا أخشى أحداً".

ولكن عندما سمع نفسه، خجل على الفور وأسرع إلى هيرون الذي كان ينهض. فقال له: "ليس من اللائق بملك أن يتعرض للخداع، حتى في الأمور الصغيرة. إن اليقظة وعدم الثقة هما النبعان الرئيسيان للحكمة.

الفصل الخامس

فإذا كان دوركاس قد احمر خجلاً بعد أن أعلن أنه لا يخشى أحداً، فذلك لأنه في ومضة ضمير مفاجئة كان قد لمح خطر محادثاته السرية مع براكسيلا. ولكن في الواقع بدا هذا الخطر مستحيلاً. لم يكن هناك شيء أكثر سرية، ولم يكن هناك شيء أكثر هجراناً من مدينة المذابح والقبور الصامتة حيث كان هذان العاشقان المتحابان في المثل الأعلى يأتیان ليحصنا نفسيهما في عاطفتيما الخارقة للطبيعة ويبثان آمالهما لبعضهما البعض. فأى أذن تسمعهما، وأي عين تتبعهما في تلك الأزقة الصامتة التي لم يكن يصل إليها إلا عذارى بيرسيفوني؟ الاسم نفسه جاء فقط في أوقات متوقعة مسبقاً، عندما انفتحت دورة المراحل في الجحيم واختتمت لابنة ديميتير المجيدة. ولإثارة الشكوك، كان على دوركاس أن يخون نفسه بطيشه. لقد تحاشى بعناية في كلماته أي إشارة إلى كلية العذارى المقدسة وخاصة إلى الهيروفانتيد؛ أما أفعاله فقد رتبها بطريقة لا يمكن ملاحظتها. وسرعان ما استعاد راحة باله، وهدوءه الذهني وذهب بقلب خالٍ من كل تخوف لرؤية براكسيلا.

في الواقع، كان سيعبر نهر ستيكس ليصل إليها. فمنها إليه كانت تلك الصلات الخفية التي تربط النفوس وتمسكها قد نسجت شبكتها الغامضة. وكانا قد تعرفا على بعضهما البعض كأخوين، لا من حيث العرق

فحسب، بل من حيث المشاعر أيضاً، مثل أولئك الأبطال الآلهة الذين يمكن رؤية تماثيلهم في المعابد، يساعدون الألوهية. كانت تطعاتهم ورغباتهم متشابهة. كانا ينبضان بنفس الأفراح ويعانيان نفس المشاعر. كان الأمر كما لو أن الجوهر النقي للوطنية السرقوسية قد تركز فيهما. فأيهما، الجندي ذو الوجه الذكوري أم العذراء التي ظلت جبهتها غير مرئية، كان يمتلك حماسة سرية أكثر؟

ولا يمكن أن يدرك هذا إلا إله، مع أن حماسة هذين الروحين المتشابهين كانت ترتفع كالشعلة الواحدة نحو السماء في المحادثات السامية التي كانا يحثان فيها بعضهما بعضاً على خدمة وطنهما على نحو أفضل. ثم نسيا في غمرة حماسهما الزائد، خصوصية المصير الذي جمعهما على هذا النحو، على الرغم من القوانين، وعلى الرغم من كل حكمة البشر. بالتأكيد لم يحدث قط منذ أن كانت أسرار عبادة بيرسيفوني في المدينة الجوفية أن حدث مثل هذا التعدي على النظام القائم: لم يحدث قط أن ظهر رجل بين القبور وأزعج بحضوره تأمل الكاهنات.

لكن دوركاس لم يهتم. في كثير من الأحيان، كان يصل إلى الهايبوجيوم قبل وقت طويل من وصول براكسيلا. وأحياناً كان ذلك في الصباح الباكر، وأحياناً قبل المساء ببضع ساعات؛ ولكنه كان دائماً في المكان الذي تحدثنا فيه لأول مرة، بالقرب من ذلك المذبح الذي أدمته الهيروفانتيدة

بخشخاشها، والذي ضبطها دوركاس أمامه راقدة تصلي وجهتها على الحجر.

كانت هذه أكثر بقعة مقفرة في الصحراء، ولا حتى على الطريق الذي سلكته العذارى. ومع ذلك فقد كان لدى دوركاس سبب لتفضيله على أي مكان آخر، فهو مكان متقشف وهادئ ومفعم بالسحر الروحي! وبدا له أن براكسيلا يجب أن تشعر بحماية خاصة هناك، وأنه هو نفسه كان يستمد قوة جديدة للحفاظ على حبه في المناطق غير المادية بما يستحضره من ذكرى العاطفة التي شعر بها هناك. وفي ذلك اليوم كان قد انتهز فرصة أن السرقوسيين كانوا يحتفلون بعيد الضحك لينزل إلى المدينة تحت الأرض مبكراً؛ وكأن براكسيلا كانت قد توقعت حضوره في تلك الساعة. تجاذبا أطراف الحديث. وكانت الكاهنة الشابة تنظر في عيني دوركاس بعينيها الخفيتين، وكان يراها من خلال حجابها كما لو كانت في متناول يده. وظل زمناً طويلاً محرراً من هذا الحاجز بينهما، وتمنى لو أن معجزة ما خارجة عن إرادته، أو صدفة ما من الصدف ستكشف له فجأة عن وجه براكسيلا. ولكن هذا الانشغال المزعج تحول شيئاً فشيئاً إلى مصدر للعواطف اللذيذة. لقد شعر بسحر خفي في إعادة تركيب الصورة العزيزة عليه صورة بعد أخرى، في أن يكون الفنان الذي يرسم رؤية مثالية بألوان مختارة بحرية.

ولكي يساعده على ذلك كان يستعين بأدنى الإيماءات، وأدنى إشارات صوتها. ولم يكن قد أصبح يعرف ملامحها فحسب، بل كان يعرف أيضاً تعابيرها المتغيرة كالبحارة الذين يعرفون حالة السماء من تغيرات النسيم. وكلما ازدادت حميميتهما المعنوية ازداد هذا التقدير الجسدي حساسية بالنسبة له؛ وعلى عكس ما يحدث عادة، فقد كان يتكهن من الداخل إلى الخارج ومن خلال روحها كان يتغلغل في وجهها. كانت روح براكسيلا هادئة قوية، ولكنها أيضاً مقلقة في بعض الأحيان، مثل كل ما سقط من روائع اللانهايي تحت نير الشكل البشري! لقد كان دوركاس مفتوناً برؤية هذه الروح، حمامة من نار، تتمايل فوق هذا الجبين المغلق، كأنها خيمة. لقد كان متأكداً من ذلك الآن: أياً كانت درجة التجرد التي أوصلتها إليها حياة الرهبنة فقد بقيت فيها امرأة أسى من كل ما سواها، طاهرة جداً ومنزهة جداً عن الغرور الأرضي، ولكنها لا تزال حساسة لكل عاطفة وقادرة على فهم كل ألم. وفي هذه اللحظة كان دوركاس، وعيناه مثبتتان عليها بحماس، قد انحرف لأول مرة - ودون أن يتعمد ذلك - عن الموضوع المعتاد لحديثهما. فعادة ما كانت نفس أفكار الحماسة الوطنية والمجد هي التي تجمعهما وتسكرهما معاً، مثل كأس من الخمر التي كانا يضغطان على شفثيهما في كل مرة؛ ولكن دافعاً لا يقاوم حمل دوركاس على الابتعاد، فألفيته فجأة يقول:

- أنت أسعد مني يا براكسيلا؛ فحياتك كلها مركزة في أداء الواجب المفروض عليك؛ أما أنا فأعاني ألف عائق، وأصارع الصعوبات التي لا تنقطع...
- لا تشكو قدرك يا دوركاس، قالت براكسيلا: (إن هذه العوائق لا شيء، لأن روحك تنفصل عنها وترتفع فوقها بين الأشياء التي تميل إليها. أليست هذه هي السعادة؟

قال دوركاس: "نعم". إن السعادة هي الشعور بالانسجام التام بين رغباتك وإرادتك، وفهم دوركاس أن نظرات براكسيلا كانت تنتشي من تحت نقابها.
- هذا هو بالضبط ما يمنحنا السلام نحن خدام الآلهة. كل رغباتنا منسجمة مع مشيئتها الإلهية التي تسود فينا. نستيقظ ونذهب إلى الفراش بفكرة وحيدة هي طاعتها. وبينما نحن نائمون، لا تزال هذه الفكرة تشكل نسيج أحلامنا، وعندما نلتف في الصباح، حول رواق أريثوزا، نوجد أصواتنا لنقدم الشكر لبيرسيفوني الخالدة، لا تزال نفس روح الخضوع. توقفت فجأة ونظرت إلى دوركاس وفوقهما كان ضجيج المدينة الذي كان حتى ذلك الحين همهمة مشوشة قد ازدادت وتميّزت أكثر فأكثر، وإن كان من البعد أن نعرف سبب ذلك، وما إذا كان السبب هو الغضب أو الفرح، الغضب أو الهديان، الذي كان يهيج الجموع.

- ما الأمر؟ لم يسبق أن وصلتنا مثل هذه الضجة من قبل. هل انتفض الشعب؟ لا تقلقوا، قال دوركاس: "ما نسمعه هو صدى ابتهاجهم." قالت الكاهنة: "اليوم هو عيد الضحك، وفي هذه اللحظة بالذات سيتوج تمثال

جيلوس الذي يقف فوق رأسنا في حديقة لاتوميس القديمة، فلتسبح الآلهة!". إذن يا دوركاس، إن صلواتك وصلواتي لم تذهب سدى؛ فقد حصلت مع صلوات الأرواح المتحمسة التي سبقتنا على هيرون المحسن لسرقوسة بدلاً من ديونيسوس القاسي؛ ونمت الأزهار في شجيرات كثيفة حيث كان الطاغية يحني أذنه ذات يوم ليسمع شكاوى ضحاياها. لكنها توقفت مرة أخرى. وبإيماءة غريزية أسرع من اندفاع عقلها، وضعت يدها على يد دوركاس: " دوركاس، هل سمعت... نفساً بشرياً في مكان ما، بالقرب منا... " كان شحوب مفاجئ قد غزا وجه دوركاس. أنت مخطئة يا براكسيلا، هذا مستحيل. لا يمكن لأحد أن يكون قد دخل هنا كما ترين، كل شيء مغلق، كل شيء صامت...

- لكنك كنت ترتجف أيضاً" قالت الكاهنة.

ولم يشأ أن يعترف بأن يد براكسيلا التي كانت مستندة إلى يده هي التي كانت سبباً في شحوبه وانفعاله. والواقع أنه لم يسمع شيئاً من هذا الضجيج الذي لا شك أن صداه قد امتزج في أذنه مع ضجة المدينة البعيدة، ومع ذلك فقد قال لبراكسيلا ليطمئن: (هل انحرفت إحدى العذارى في عبور الهيبوجيم⁹⁷ عن طريقها؟

- كلا، قالتها براكسيلا بيقين قائد يعرف أن جنوده يطيعونه؛ (إن العذارى في هذه اللحظة حول نافورة أريتوسا. هذه هي الساعة التي يسترخين فيها

⁹⁷ l'hypogée دواميس تستعمل قديماً كقباب

كل يوم برمي فتات الكعك الذي نقدمه للإلهة إلى السمكة الفضية في البركة. أكرري يا دوركاس، لا بد أن أحداً ما قد فاجأنا.

-قال دوركاس: (إذا كان الأمر كذلك، فهل علينا أن نتخلى عن رؤية بعضنا بعضاً مرة أخرى يا براكسيلا؟)

كانت الـهـيـروفـانـتـيـد قد استقامت تحت نقابها وقالت: (اسمعي يا دوركاس؛ لقد عقدنا ميثاقاً ومهما يكن من أمر، فسأحافظ عليه. وإذا كان هناك ما يمنعني من العودة إلى هنا فلا يمكن أن يكون إلا صوت ضميري. وعادت إلى هدوئها المعتاد، وكان دوركاس معجباً بها ومحبباً لها أكثر مما كان يحبها. كم كان معجباً بها وكم كان يحبها! ودفعه دافع من كيانه كله إلى أن يجثو على ركبتيه أمامها، وأن يقبل أسفل ثوبها الطويل. لكنه كبح جماح نفسه خوفاً من تدنيس المقدسات. ألم يكن كافياً أن يدها قد لامست يده لا إرادياً؟ والآن بعد أن تلاشى سحر تلك المداعبة التي كانت قد تلاشت، بقي لديه ارتباك خرافي. كان خوفه الوحيد، وقلقه الوحيد، هو فقدان حضور براكسيلا. أما الباقي فلم يكن يهمه. ومع ذلك فقد توسل إليها أن تسمح له بمرافقتها إلى مدخل الممر السري الذي كانت تعود منه إلى الرواق وهي تتركه وتقول بصوتها الرخيم: (وداعاً يا دوركاس!). وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسيران فيها على هذا النحو، جنباً إلى جنب، في نفس أثر النور، ذلك النور الأبيض الساكن الذي بدا وكأنه ينبعث من مناطق الموت ذاتها. إلى اليمين وإلى اليسار، على طول الشوارع الضيقة، كان صف القبور

المزدوج يحيط بهما في تأمل وصمت. كانوا قد توقفوا عن الحديث مع بعضهم البعض وكانوا يتقدمون إلى الأمام، وعيونهم مثبتة على غبار الأرض الذي لا يُرى. وبدا كما لو أن وطء هذا التراب الجليل، المصنوع بلا شك من اللحم والعظام، بنفس الخطى المتساوية الورعة، قد أضفى على علاقتهما الحميمة طابعاً أكثر قدسية، وأقام بينهما شركة ستدوم إلى الأبد. ومع ذلك، عندما اقتريا من الممر الذي سيفترقان فيه، أبطأت دوركاس خطاها عمداً. كان جسدها الدافئ المرن المرهف يعبق في الهواء برائحة البخور الخفيفة، وبدا حجابها الناعم المتصاعد بهدوء مثل دخان البخور. وفكر دوركاس في ذلك اليوم الذي حملها فيه بين ذراعيه، وشيئاً فشيئاً كانت قد انجذبت إلى صدره. وكم من مرة منذ ذلك الحين تساءل عما إذا كانت قد أدركت عناقهما الطويل العفيف، وعما إذا كانت قد شعرت، من خلال الحجاب الذي يلفها، باضطراب دقات قلبه! وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تبدو في حالة إغماء عندما أودع عبئه الثمين تحت الرواق إلا أن شيئاً ما في داخله كان يصر على الاعتقاد بأنها لم تكن فاقدة الوعي. ولم يكن يجرؤ قط على أن يلمح إلى تلك الساعة المقلقة؛ ولكن بدا له اليوم وقد شجعتة حميمية رحلتها المشتركة على أن يفصح أخيراً عن السؤال الذي كان يحرقهما منذ زمن طويل، وقد وصلا إلى الممر. وفتحت براكسيلا الباب، ورأى دوركاس، في ومضة تلك اللحظة، مرة أخرى، وهو يتشبث

بالجدار الصخري، كتل المكنسة المزهرة التي كانت، كجداول ضئيلة من النور، ترشده في سيره المضطرب. وَأَشَارَ إِلَى الْحَائِطِ إِشَارَةً لِيُنصِتَ إِلَيْهَا:
-هل تذكرين يا براكسيلا؟ وقد لاحظ مسحة رعشة على وجهها فهم أنها كانت تحمر خجلاً.

قالت: (نعم) أذكر. كان ذلك يوم غمرت المياه الممر. كنت أسير وشعلتي في يدي نحو الينبوع السياني، وفجأة شعرت بقشعريرة جليدية تضرب قلبي، وأحسست بالموت. وعندما استيقظت من هذا الخمول - ليس فجأة بل شيئاً فشيئاً - بدا لي في البداية أنه حلم، وأني وصلت إلى مناطق الجحيم الدافئة، وأن الآلهة الجلييلة تدفني بين ذراعيها. ثم فتحت عيني نصف فتحة، دوركاس، ورأيتك... وفجأة غيرت نبرتها وأضافت: (ولكن يجب ألا تفكر في ذلك أبداً، أبداً، هل تسمعي يا دوركاس؟ إنه لم يكن ذلك الهيروفانتيد الذي ضممته إلى صدرك، بل كان روحاً ضائعة عائدة من الشاطئ الآخر. وبعد أن تكلمت هكذا، اختفت.

الفصل السادس

هناك، في سرقوسة الحية، كانوا يحتفلون بجيلوس⁹⁸ روح الضحك الذي ألّمه الدورانيون⁹⁹؛ وكان بالنسبة لهم رمزاً من رموز الفضيلة وشعاراً لتلك القوة في النفس التي لا تسمح لنفسها بأن تسقط بأي تعويذة شريرة من تعويذات القدر. وكان يمتزج امتزاجاً عجبياً بحبهم للبطولة والحكمة، بنفس الطريقة التي يمتزج فيها طعم المرّ النافذ في الكأس التي يشرب فيها المحكوم عليه بنسيان خطاياها، مع طعم الخمر الأكثر حدة الذي يصحح ويلين. كان جيلوس يسود في البيوت بين الأضرحة المنزلية، وفي مفترق الطرق حيث شارك تعاطف الجماهير مع الفتية المنتصرين بأجنحة ذهبية. حتى أنه كان يظهر على عتبات المعابد، مذكّراً بأن الدين يجلب البهجة للناس. كان جيلوس صديق الأطفال والنساء، الكبار والصغار؛ كان يوزع على الجميع ذلك الخير الأسمى، البهجة، الزيت الذي ينعم العجلات، الدفاء المنعش الذي يشتعل في الموقد السري للقلب وينتشر بلطف إلى العالم الخارجي. لذلك احتفل بجلوس في ذلك اليوم في كل أنحاء المدينة، ولكن بشكل خاص في حديقة لاتومييس القديمة، حيث كان للإله

⁹⁸ Gélos): Gélos (روح الضحك؛ روح الشيخوخة؛ إلهة الأنسجام والتوافق

⁹⁹ Les Doriens من شعوب الإغريق القدماء

تمثال ضخم. أراد الجميع أن يلمسوه، ليخرج صوته النحاسي الرنان. ألم يكن من المهم التأكد من أنه كان دائماً لطيفاً جداً مع أتباعه؟

وأحضرت إليه الزهور وألقيت في حفنات في فمه المفتوح على مصراعيه وفي محجري عينيه اللتين لا شقوق فيهما. وتساقطت أمامه زهور فاتحة متعددة الألوان تبدو كأنها ومضات فرحه - بينما كان وسط خضرة الحديقة الأبدية وصدره العاري وذراعيه في تاج، يعرض جبهته الصلعاء اللامعة لأشعة الشمس المتوهجة، ذلك الإله القوي الآخر للبهجة.

وظهرت امرأتان من بعيد: داماليس الملقبة بـ جاسنتا لبياض بشرتها، ورودوكلي زوجة ثيوفراستوس أمين صندوق الملك هيرون. كانتا ممسكتين بأيدي بعضهما البعض وترشدان طفليهما الصغيرين وسط الحشد. وعندها فقط ظهرت جوليس من بين مجموعة من أزهار اللوتس وبدون أن تطلب منهما ذلك، اعترضت طريقهما.

- في الوقت المبكر! ها هي ذا داماليس تعزي نفسها عن ترقلها ... الجاسنتا التي فقدت زوجها في آخر موعظة احمرت خجلاً رغم شحوب وجهها:

- إذا كنت هنا فمن أجل ابنتي الصغيرة. إنّ الطفلة ضجرة محبوسة دائماً في البيت؛ وقد تبعت رودوكلي التي جاءتني مع ابنها الأصغر لتأخذني.

- قالت رودوكلي وهي تبتمس للطفلة:

- نعم - وقد وعدني أبوها ثيوفراستوس أن يأخذنا إلى الكوميديا؛ وقد رتبنا أن نلتقيه قرب تمثال الإله؛ ولكن الوصول إلى هناك ليس بالأمر الهين. وزادت في تهذيب لهجتها:

- وأورثون الصائغ، زوجك العزيز، هل هو بخير؟

وهزت جوليس كتفها القويتين: (إنه بخير كما هو متوقع من شخص يعمل أضعاف ما يجب أن يعمل. هل يأكل؟ إنه يبتلع أكثر مما تستطيع أحشاؤه هضمه. هل يعمل؟ إنه يتعب عينيه في تلميع تماثيله وميدالياته حتى منتصف الليل. والشيء نفسه ينطبق على البقية. إذن فهو مجرد جلد وعظام، أيها الرجل العزيز؛ ولكن هذا الجلد صلب كعظم الحوت. قالت داماليس في رفق: (لا تتدمري) (ما دام الموريس¹⁰⁰ لم يسلبوا صحتنا فلا داعي للخوف من أمراض أخرى).

- أنت على حق"، أجاب جوليس. فأرحي أفضل من أسد ميت. حاشا زيوس أن أشكو من زوجي! إنه رجل لا مثيل له في سرقوسة. إن الثعلب يصنع آلاف الحيل؛ أما القنفذ فيصنع حيلة واحدة فقط، ولكنه بارع. وكذلك أورثون الذي لا يفوقه أحد في صناعته. ولكن الأطفال كانوا يتجاذبون أيدي أمهاتهم؛ وكان لا يزال أمامهم مائة خطوة قبل أن يصلوا إلى قدم

¹⁰⁰ Les Moires في الأساطير الإغريقية، الموريس هم ثلاثة آلهة للقدر: كلوثو ولاشيس وأتروبوس. وهم مرتبطون بالدورات الكونية، آلهة الطبيعة والنباتات والخصوبة. أصبحوا الأقدار في الأساطير الرومانية.

التمثال الذي كان رأسه اللامع يبرز من بين كتلة من الورود. وانطلقت الشابتان من جديد بصحبة جوليس التي بدت مصممة على عدم تركهما، ولكن الحشد كان قد تضخّم من حولهما. وبعد لحظات، توقفت رودوكليه، وقد أصابها الإحباط: "يا له من حشد! لن نتمكن أبداً من العثور على ثيوفراستوس بين هذه الوجوه الكثيرة!

-قالت جوليس: "يمكنك الاعتماد عليّ في التعرف عليه". لقد كانت عيناى تريان جبين العملاق يلمع من خلال جبل إتنا؛ وكانت قد تحركت إلى المقدمة وأخذت تشق طريقها بين الجموع؛ وكانت تلتفت من حين إلى آخر لتمزح عندما يشتاق لسانها لذلك: (أترون يا صغاري، إن الأمر هنا كما في الحياة، فمن لا يدفعون يُسحقون. لا تخجلي يا داماليس؛ وتمسّكي بقلنسوتي؛ وأنت يا رودوكليه، احذري أولئك الناس الذين بحجة التملق لامرأة أثناء مرورها يسرقون قلاذتها أو أقراطها. لديك ياقوت في أذنيك بحجم عين الثور. صحيح أنهما لا يكلفانك شيئاً: ما على ثيوفراست إلا أن يغمس في الخزينة.

ثم ضحكت ضحكة عالية النبرة، كان صوتها يشبه صهيل الحصان. ولكن رودوكليه أجابتها بمرارة:

- أمسكي لسانك يا جوليس. إن ثيوفراستوس ليس رجلاً يتصرف فيما لا يخصه. إن الملك هيرون يعرف هذا جيداً: لهذا السبب يترك كل شيء في

يديه. والأمر نفسه ينطبق على أورثون على ما أفترض، ولا يمكن لأي منهما أن يخون ثقة سيده الطيب.

وأخيراً وصلنا إلى التمثال، وبعد أن قدّمنا له عباداتهم، تحركت النسوة الثلاث قليلاً إلى جانب واحد. وكان الزحام لا يحصى؛ وعند قدم الإله كان الزحام لا ينقطع، وكان هناك أمواج بشرية يحملها التيار كما تضرب الأمواج شعاباً مرجانية.

- قالت داماليس: (لا أستطيع أن أرى ثيوفراستوس على الإطلاق)

- (صبراً قالت جوليس سنجد بعضنا بعضاً مرة أخرى) واستمرت زوجة الصائغ في البحث في الحشد بعينها الثاقبتين. وفجأة قالت:

- ولكن أنظروا إلى تلك الشقراء هناك، وهي ترتدي ثوباً بلون الجمشت، وتمشي أمامها وهي أكثر فخراً من أرتيميس، دون أن تقبل حتى إصبع قدم الإله. ألا تشبه فاني، زوجة دوركاس الصغيرة؟

- "هي نفسها"، قالت رودوكليه، ليس من عاداتها أن تُرى وحدها في الأماكن العامة. وفي يوم كهذا! لا بد أن يكون لها سبب في ذلك، فقد انتظرت جوليس التي لم ترفع عينها عن فاني حتى أصبحت قريبة منها ولا تستطيع الفرار. ثم نادت عليها: (يا فاني أيتها النور الصغير! لِمَ جئتِ إلى هنا إن لم تكوني لتقومي بواجبك تجاه جيلوس؟ يبدو لي أنك نسيت أن تلقي عليه

التحية وأنت تمرين من أمامه، فرفعت فاني رأسها. في الحقيقة لم أت من أجل الإله بل جئت لأبحث عن دوركاس. "ليس أكثر من درع "نيكياس" قالت "جوليس". أعتقد أنك تضيّعين وقتك. دوركاس لديه أشياء أفضل ليفعلها من التجول بين الناس - وتدمرت الزوجة الصغيرة قائلة: (وا أسفاه!) وتمتمت: (إن اليوم عطلة للجميع إلا أنا!) وكانت عيناها تعبران عن كآبة شديدة حتى أشفقت عليها داماليس فوضعت يدها برفق على كتفها: (عزيزتي فاني، ابق معنا. نحن فقط ننتظر ثيوفراست ليأخذنا إلى المسرح. لا أعتقد ذلك"، قالت فاني. إن المدينة مليئة بالمسرح المكشوفة التي تعرض فيها مسرحيات إبيشارم وسوفرون؛ وإنه لمن المعجزة أن نجد مسرحاً واحداً. ثم قالت فاني: (إذا كان لا بد له من الذهاب، فمن المؤكد أنه كان سيدعوني إلى اللحاق به) قالت جوليس وهي تفكر ويدها الكبيرتان متكئتان على بعضهما: (أخبريني يا فاني هل ربما بقي عزيزك دوركاس في القصر؟ كلا، قالت فاني: (كلا، لقد ذهب في طريق آخر عندما غادر.

-آه! ومن أي طريق سلك؟ من الشارع الذي ينحدر نحو رواق أريثوزا) قالت فاني بسذاجة: (آه! وأي طريق سلك؟) وساد صمت، ثم رن صوت رودوكلي في فرح: (ها هو ذا ثيوفراست!) ومالت نحو ابنها الذي كانت لا تزال ممسكة بيده: (انظر إلى أبيك يا عزيزي!) وتقدم ثيوفراست بخطى مسرعة كرجل يشعر بالتأخر. وابتسم من بعيد للمجموعة السّاحرة المكونة من ثلاث

شابات وطفلين صغيرين، وابتعدت جوليس دون أن تنبس ببنت شفة. وفجأة اختفت وسط الزحام:

- أنظروا، جوليس تغادر! قالت داماليس.

رودوكلي متجهمه الوجه: - إن المينادس¹⁰¹ معها! لا شك أنها في طريقها لتخبر أورثون بكل ما رأت وسمعت.

-قالت داماليس: (نعم، إن فضولها لا يقل خطراً عن غيرتها. عندما تجدين نفسك في نفس طريقها، فمن الأفضل أن تكون أمامك بدلاً من أن تكون في أعقابك. كان ثيوفراست قد أخذ بيد الطفلتين من يده، وبفضل قامته الطويلة والسلطة التي منحه إياها مركزه وجد بسهولة طريقاً وسط الزحام. وسارت الشابات الثلاث خلفه، ولم يرفعن أعينهن عنه أبداً خوفاً من أن ينفصلن عنه فجأة. تقدمت فاني بين رودوكلي وداماليس. وكانت تكتم تهيدة من حين إلى آخر: (عزيزتي رودوكليه، كم أنت سعيدة بوجود زوجك إلى جانبك) في النهاية: (نعم) قالت رودوكليه، ولكن ماذا كنت ستقولين لو أن الموت قد أخذ منك زوجك مثل داماليس؟

وجفلت فاني ولم تقل شيئاً، فقد رأت للتو خد جاسنتا الأبيض يزداد شحوباً على خدها، وقالت لنفسها إن بيرسفونيا التي تقرر مصير البشر إلهة قاسية جداً. وسألت ثيوفراست وهي تستدير: هل تود التوقف هنا؟

¹⁰¹ Les Ménades في الميثولوجيا الإغريقية، المينادس، أو باخاي في الأساطير الرومانية، هم عبدة ديونيسوس وباخوس. يعتبر البعض أن مأساة يوريبيدس "باخاي" هي النص التأسيسي للأسطورة الأدبية.

كان أمامهما مسرح من الخشب ربما كان قد أقيم ليلاً لهذه المناسبة، مثل معظم المسارح التي كانت تملأ البلدة. ولكنه كان مبهجاً وجميلاً، وقد رُسمت على عتبة واجهته حروف ذهبية وأغصان من اللبلاب المعمر متشابكة مع الأعمدة الجصية التي كانت تسندها. وكان على المنصة رجل يقوم بارتجال شديد لجذب الجمهور. ولا بد أنه كان من الفريجين لأنه كان مضطرباً كالعبد تحت السوط، وكانت قبعته ذات الفتيل المقوس قد سد لها على أذنه.

" ادخلوا!" قال، " ادخلوا! بعد لحظات قليلة سترون المجيدة تلعب دورها بإيشارم العظيم، إيشارم كوس، الذي كثيراً ما توج به أهل سرقوسة! لا تذهبوا إلى أي مكان آخر؛ فلن تسمعوا إلا تمثيلات سوفيرون¹⁰² السخيفة، أو تمثيلات دينولوك¹⁰³ الأكثر سخافة. هنا ستجدون أمام أعينكم مشهد الكوميديا السرقوسية. ماذا أقول؟ الكوميديا الدورانية¹⁰⁴ كوميديا حقيقية لا مثيل لها! لأنه إذا كان لنا أن نوقن أن الإله باخوس

¹⁰² Sophron كان سوفيرون من سيراكوز شاعراً يونانياً صقلياً وكاتباً صامتاً ازدهر في صقلية حوالي عام 430 قبل الميلاد. كتب سوفيرون حوارات إيقاعية ركيكة وإيقاعية باللغة الدورانية، حيث كان الرجال والنساء يمثلون في كثير من الأحيان مشاهد فكاهية من حياة الإغريق الصقليين.

¹⁰³ Dinoloke كانت الكوميديا الدورانية ممثلة في ثلاثة شعراء هم إيشارم وفورميس ودينولوك. لم تكن ديمقراطية مثل الكوميديا الأثينية.

¹⁰⁴ Comédie Dorienne وقد قام بالكوميديا الدورانية ثلاثة شعراء هم إيشارم وفورميس ودينولوكوس. ولم تكن ديمقراطية مثل الكوميديا الأثينية: فقد كانت محمية من قبل ملكين هما جيلون وهيرون، وظلت غريبة عن روح الهجاء السياسي الذي كان يميز الكوميديا الأثينية القديمة.

نفسه هو الذي اخترع الألعاب المسرحية مع رفاقه الساتيريين فإن إبيشارم هو الذي كان له شرف إخضاع الكوميديا الساتيرية لقوانين المسرح، وجعلها جديدة بأهل المدينة. ادخلوا جميعاً، صغاراً وكباراً، حمقى وحكماء على السواء! تفضلوا بالدخول! تفضلوا بالدخول إنه فقط دراخمة واحدة - ستة أوبولات - للمقعد الواحد! وإذا لم تكونوا راضين، سنعيد لكم المال عند خروجكم!

ولكن لم يكن الجميع يدخلون، بل كان الكثيرون يكتفون بالتحديق في وجه الفريج الأحمر وعينيه المخدوشتين وقلنسوته المعوجة. وفي بعض الأحيان، ولكي يجذب المزيد من الانتباه، كان يرتدي قناعاً؛ ثم بدا صوته أكثر ثقباً. كان يرتجف كما لو كان قد قام للتو من القبر... كان صوته الناري يخرج من نفس الطريق، من خلال الثقب الضيق في القناع الذي كان ينادي الجماهير باستماتة:

- ادخلوا، ادخلوا! تعالوا ادخلوا! إنه فقط دراخما للمقعد الواحد! قاد ثيوفراستوس الشابين إلى ما وراءه، ودون أن يتركا يدي الطفلين، صعدوا الدرج إلى المنصة. في الداخل، كان الجمهور لا يزال قليل العدد. جلسوا على طبقة، وكان الطفلان يقفان أمامهم. وفي منتصف المنصة كان هناك تمثال لباخوس، وكان التمثال مجوفاً من الداخل، وكان يحتوي على عدة تماثيل أخرى؛ ولكي ينتظر المتفرجون بصبر حتى يبدأ العرض، تم إنزال

التمثال ليكشف بدوره عن صورة إبيشارم¹⁰⁵ وجيلوس وسيبريس والشاريت والساتير¹⁰⁶.

ومع كل تحول من هذه التحولات الجديدة كان الجمهور يضحك أكثر فأكثر؛ وبدا أن رودوكلي كانت تجد في ذلك أكبر قدر من السرور، وكانت داماليس رغم حزنها لترملها الأخير تبتسم في رضا. وظلت فاني وحدها غير مكتثرة، وعيناها الزرقاوان مثبتتان على دوركاس؛ ولم تنهضها مسرحية إبيشارم نفسها مهما كانت مفعمة بالحيوية والبهجة من كبوتها؛ وكانت متلهفة للعودة إلى البيت، لتعرف ما إذا كان هناك؛ وقرب النهاية مالت على داماليس:

- لم أعد أطيق أكثر من ذلك، يجب أن أذهب!

- قالت داماليس: (اصبري قليلاً. فقط انتظري لتري ما سيحدث ل (لا فلوريوز).¹⁰⁷

لكنها أطلقت صرخة لأن فاني أغمي عليها فجأة. وكان لا بد من حملها عبر المدرجات إلى المنصة حيث استمر الفريج في مخاطبة الجماهير. وعندئذ فقط ظهر دوركاس يبحث عن زوجته الصغيرة قلقاً لأنه لم يجدها كعادته

¹⁰⁵ Épicharme إبيشارموس (باليونانية القديمة)، ولد حوالي 540 قبل الميلاد وتوفي في سيراكيوز حوالي 450 قبل الميلاد، كان شاعراً كوميدياً يونانياً وفيلسوفاً ما قبل سقراط.

¹⁰⁶ Satyre الساتير هو مخلوق من الأساطير الإغريقية. تشكل الساتيرات، المرتبطات بالماناد المؤنثة، "الموكب الديونيسي" الذي يرافق الإله ديونيسوس. كما يمكن ربطهم أيضاً بالإله بان
¹⁰⁷ la Glorieuse المحيطة

على عتبة منزلهما متلهفاً مبتسماً. فاني يا نورتي الصغيرة، ما الأمر؟ فتحت فاني عينها فجأة على صوت زوجها الحبيب.

- دوركاس، عزيزتي دوركاس، إنه أنت! لقد عاد الصفاء إلى وجهها مرة أخرى؛ لقد نسيت كل أحزائها، ويومها الطويل الذي قضته في البكاء عندما كانت البلدة كلها تحتفل جيلوس إله الفرح...

- وغادرا معاً، وقالت فاني لدوركاس في الطريق: "هل تحبني؟ هل ما زلت تحبني؟ لقد حزنت كثيراً عندما فكرت أنك لم تعد تحبني!..."

الفصل السابع

كان أرخميدس يمشي محمومًا تحت أعمدة التيموليونتيوم¹⁰⁸. فمنذ أن طلب منه الملك أن يوضح له شكوكه حول التاج الذي نحتته أورثون، لم يعرف العالم اللامع الراحة. فقد كان يطارده الهاجس نفسه ليلاً ونهاراً: كيف يحدد ما إذا كان هناك سبيكة أو تبديل، وإلى أي مدى؟ ... وبعد أن أوضح العديد من المشاكل التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين مستعصية على الحل، عانى من عدم قدرته على حل هذه المشكلة البسيطة جداً في مظهرها، والمعقدة جداً في حقيقتها. كان غروره أقل اهتماماً بها من شغفه للعلم. وكان قد قطع شوطاً بعيداً في دراسة قوانين الطبيعة بحيث لم يكن ليعترف بأن أي عائق يمكن أن يوقفه في تحقيقاته. أما من الناحية المعنوية، فقد كان متأكداً من أن الحل موجود، وأنه لا بد من وجود طريقة لإرضاء هيرون دون الإضرار بعمل الصائغ. ولما عجز عن إيجاده اتهم عقله بالشلل وضيق الأفق، وشك في عبقريته، ونسي أمام عجزه الحالي كل الاكتشافات الرائعة التي توجت جبينه بمجد لم يحظ به أي إنسان حي. في تلك اللحظة كان منظر أرخميدس العظيم، شاحباً جداً، وملابسه رثة ولحيته كثيفة. بدا جسده كبيت غير مأهول، مليء بالغبار والعفن. في الواقع، كانت روحه غائبة باستمرار، تطارد أحلامها. وفي هذه الساحة

Timoléontium¹⁰⁸ رجل دولة إغريقي من كورنثوس حوالي 410 - سرقوسة حوالي 336 ق.م أرسل لمساعدتها...

المشرقة من تيموليونتيوم، ووسط هذا الحشد الهائل من الهباء، بدا ضيف قصر هيرون المجيد كساكن الكهوف الهارب من كهفه؛ وكان من الممكن أن يخيف النساء والأطفال الصغار لو أنه كان يجوب الريف بعضا مسافر مثل هوميروس الإلهي: ولكن في سرقوسة كان الجميع يعرفونه وقد رأوا مدى عمق تأمله اليوم، فتجنبوه باحترام.

غير أن جماعة من الشبان كانوا قد خرجوا لتوهم من البالسترا¹⁰⁹؛ وكانوا جميعاً في لياقة وقوة في إشراق منتصر من الصحة النشطة. وكان بعضهم يرتدي شعراً مجعداً وعباءات الفلاسفة الصغيرة، وكانت أكتافهم العارية تتلألأ في الشمس كثمرة ذهبية من ثمار شجرة التفاح. ورأوا من بعيد أرخميدس منحنياً مرهقاً، وقد بدا لهم من بعيد أكثر مما بدا لهم من قبل. وكان العالم قد توقف، وأسند ظهره إلى أحد الأعمدة، وعيناه نصف مغمضتين، وكان يفكر بينما كانت الشمس تضرب وجهه فتظهر تجاعيده العميقة. قال الشبان فيما بينهم: (إنه سيترك نفسه للموت إذا لم يوقفه أحد).

وازدادت جرأتهم فأحاطوا به، وشكلوا حلقة ضيقة ضمت أيديهم جميعاً؛ وبعد أن أحاطوا به هكذا، خاطبوه بألفة التلميذ الذي يخاطب سيده:
- أيها اللامع أرخميدس يجب أن تذهب إلى الحمامات. لا يمكنك بعد الآن أن تترك جسدك دون العناية الضرورية التي يتطلبها كل جسد بشري.

أنظر: لقد لوث الغبار ثيابك، وحتى أطرافك ذابلة يابسة جافة كأوراق شجرة الزيتون الذابلة بعد أن هب عليها النوتوس¹¹⁰ المحرق. تعالوا معنا؛ سنقودكم إلى العتبة.

وأحكم المراهقون الدائرة التي كانوا قد شكلوها حوله، وأجبروا أرخميدس على التقدم إلى الأمام. فتركهم يفعلون ذلك دون أن يكلف نفسه عناء الاحتجاج، متذكراً أنه غادر القصر بنية مهمة في الذهاب إلى الحمامات، وأنه في الطريق، وقد شتت ذهنه الانشغال الأبدي الذي كان يشغل باله نسي الغرض من رحلته. وهكذا غادروا التيموليونتيوم ودخلوا الشارع المؤدي إلى الحمامات. وكان يوماً دافئاً، وقفت النساء تحت الأبواب وأمام الدكاكين يزينّ تنانيرهنّ أو يدورن بكراتهنّ وهن يشاهدن العوامات اللامعة والأزياء الأنيقة للمتزهين وهم يمرون. كان يمكن رؤية زورق ثلاثي حديث البناء، يحمل اسمي ديميتير وبيرسيفوني، في الميناء الرئيسي، وهو بالضبط نفس الزورق الذي تركه الكورنثيون في سرقوسة عندما جاءوا لتحرير المدينة من نير الطغاة. كان ثراء السكان وازدهار التجارة واضحين للعيان، ولكن لم يكن ذلك كبرياء الطبقة الأرستقراطية ذات الامتيازات، كما في إسبرطة، ولا تباهي المترفين، كما في أغريجتو، حيث كانت البرجوازية تمشط شعر أطفالها بأمشاط الذهب بدافع الغرور. هنا كان

¹¹⁰ في الأساطير الإغريقية القديمة نوتوس هو تجسيد لرياح الجنوب، إحدى الرياح الأربع Notos.

كل شخص متمسكاً بمكانه - ولم تكن تلك العلامة المعصومة على انحطاط شعب ما، أي انقلاب الطبقات الاجتماعية والثروات. ولما رأوا أرخميدس العظيم تجره زمرة من الشبان إلى الباب، ابتسمت النسوة وهن يتجاذبن أطراف الحديث من باب إلى باب: (إنهم يأخذونه إلى الحمامات بالطبع! لقد مضى أكثر من ثلاثة أعمار منذ أن رأيناه يذهب إلى هناك. من ناحية أخرى، بمجرد أن يذهب إلى هذا المكان، سيبقى هناك لفترة طويلة. ويبدو أنه ما أن يدهن بالزيت حتى يمضي الساعات الطوال وهو يتتبع النقوش على ذراعيه وصدره كما يفعل الأطفال على جدران الأروقة؛ وكثيراً ما ينسى أن يلبس ثيابه؛ فيضطرون أن يلبسوه كل شيء من المرقعة إلى خفيه - يا للعار! أليس من الأفضل أن يكون قد تعلم القليل وعرف كيف يتصرف؟ إن أرخميدس اللامع يشبه عالم الفلك في قصة " إيسوب الأحذب"¹¹¹: فهو يستطيع قراءة النجوم ولكنه لا يستطيع أن يرى بوضوح كل ما حوله.

غير أن الشارع المركزي لأخرادين ظل مزدحماً بالمتنزهين. وكان أهل تيتشي الأنيقون، وأمرأ أورتيا العظماء وموظفو إيبولي يمرون بعضهم ببعض في صمت ووقار كما يليق بسكان مدينة يبلغ عدد سكانها ستمائة ألف نسمة، كل حي منها يشكل، إذا جاز التعبير، مدينة مستقلة. كان الهواء رقيقاً وعطراً. وكان هناك ضوء كهرماني رقيق، كضوء الظهيرة الربيعية المبكرة،

L'astronome d'Ésope le bossu¹¹¹

يبرز زينة النساء الرصينة والتطريزات الغنية على معاطف الرجال. وفجأة شوهد أرخميدس وهو يهرب من رواق الحمامات لا يرتدي شيئاً سوى لحيته الرمادية التي كانت لا تزال غارقة في الماء والتي شكلت مزاربين على طول ضلوعه. وهكذا، وهو عريان يقطر منه الماء، اندفع بين الجموع وهو يزاحم المتنزهين ويطلق نفس الصرخة مراراً وتكراراً: يوريكا، يوريكا!¹¹²

-لقد أصيب بالجنون التام! قالها السائسون والمغازلون الجالسون خارج بيوتهم.

- كان لا بد أن ينتهي الأمر هكذا. في محاولة معرفة قدر الآلهة، يسقط الإنسان تحت الوحش. وكان أرخميدس لا يزال يركض. وحاول أحدهم أن يلقي عليه قطعة من الثياب أثناء مروره، ولكن قطعة القماش انزلقت إلى الأرض بعد أن طافت على كتفيه للحظات قليلة. فابتعد الناس عنه ولم يجروؤا على إيقافه لأنه كان من الخرافات الشائعة ألا يلمسوا رجلاً فقد عقله. وهكذا سار على طول شارع دي لاكرادين الطويل والجسر المؤدي إلى أورتيجيا. للحظة، أمكن رؤية قامته الطويلة تمر من تحت الحصان المجنح المتلألئ بجناحيه المفتوحين. ثم، وبخطوة واحدة، وبلياقة شاب يافع، صعد الدرجات المؤدية إلى القصر.

كان الملك هيرون يتأمل في الغرفة التي كان يجلس فيها عادة عندما يكون وحده. وانفلتت من شفتيه صيحة دهشة عندما رأى أرخميدس يظهر

¹¹² أي وجدتها، وجدتها!

أمامه وهو لا يزال عارياً يقطر ماء، ولا يزال يردد نفس صيحة الانتصار:
أوريكا!

- لقد وجدتها يا أرخميدس. ولكن استر نفسك أولاً، فوالله ما زلت عرياناً -
وبيده هو، وقد حل عباءته الملكية عن صدره، ولفها هيرون حول العالم
اللامع. قال أرخميدس مبتسماً: (التاج!) قال الملك العجوز: (أحضروا لي
التاج!) وأضاف مبتسماً: (إذن تريد أن تحكم مكاني؟)
ولكنه تذكر في الوقت نفسه:

- أجل، التاج الذي نحته أورثون أهذا ما وجدته يا ابن عمي إذن ما هي
الطريقة التي تخبرني بها إن كانت شكوكي في محلها؟
قال أرخميدس في وقار، رافعاً إصبعه وصاغ ببطء القانون الذي اكتشفه
للتو: "كل جسم مغمور في مائع يفقد من وزنه وزناً من حجم المائع الذي
يزيحه."

- فقال الملك: (هذا اكتشاف ثمين، ولكن ما علاقته بما نحن بصددده الآن؟)
فأجابه أرخميدس: (ستعرف بعد قليل) وكان التاج قد أُحضر. فتناولته
العالم بين يديه وفحصه: "ما هو المعدن الذي يمكن أن يكون قد استخدم
في السبيكة في اعتقادك؟" قال الملك: "لا يمكن أن يكون إلا الفضة. فأني
مادة أخرى كانت ستؤدي إلى تشويه مظهر الجوهرة. حسناً، هل يمكنك أن
تحضر لي سبيكة من الذهب وأخرى من الفضة بنفس وزن التاج؟ قال
الملك: "لا شيء أسهل من ذلك."

- وقال مخاطبًا الحارس الذي طلب منه التاج: "هل سمعت؟ في هذه الأثناء، كان أرخميدس يشرح نفسه: لقد وجد طريقة لتحديد الجاذبية النوعية لجميع الأجسام، وذلك باتخاذ الماء وحدة. كان الأمر في غاية البساطة، وقد بحث طويلًا! فلما رفع أحد أطرافه في الحمام أحس فجأة أنه أخف وزناً، وومض برق الحقيقة أمام عينيه، فقال: (إن هذا أمر عجيب) ومع ذلك فهذه هي قوة العبقرية. لقد غطس آلاف وآلاف من الرجال حتى يومنا هذا أطرافهم المرهقة في ماء أحواض السباحة؛ واستطاع أرخميدس العظيم وحده أن يستنتج قانوناً سيغتنى منه العلم لقرون قادمة.

-شكراً لك أيضاً يا ابن عمي"، قال أرخميدس. إن ذكاء الإنسان يحتاج دائماً إلى نقرة من معصمه تحركه... ثم ارتميا في أحضان بعضهما البعض وتبادلا القبل... وفي تلك اللحظة دخل دوركاس وثيوفراستوس بالعباءة الملكية وبدا في تلك اللحظة أجدر من أي إنسان آخر بارتدائها... و دخل دوركاس وثيوفراستوس ومعهما سبائك الفضة والذهب. كان هناك حوض من البرونز مملوء بالماء الصافي عند مدخل الغرفة، على المصطبة. ذهب أرخميدس إليه وهو لا يزال يحمل التاج في يديه. ثم فعل الشيء نفسه مع سبيكة الفضة، ثم مع سبيكة الذهب: وفي كل مرة كان مستوى الماء في البرونز الصافي للحوض مختلفاً. ثم التفت أرخميدس إلى الملك الذي كان بين دوركاس وثيوفراستوس يراقب التجربة بانفعال.

- لقد أصبت في تخمينك يا ابن عمي". سأخبرك بعد قليل إلى أي مدى اختلقت الفضة بالذهب؛ إنها نسبة بسيطة يمكن أن تحدد، وهي عملية حسابية يمكن أن يقوم بها طفل. أما في الوقت الحاضر، فيكيفك أن تعرف أنك قد خُذعت، وانسحب.

وفي الحال قال هيرون وهو يشير إلى دوركاس: - لن أنتظر يوماً آخر لأصرف هذا الخادم الخائن. اذهب وأحضره يا دوركاس، أحضره؛ ولكن لا تخبره بماذا؛ فأنا أريد أن أرتاح إلى إرباكه بنفسي.

ومرت ربع ساعة. جلس الملك العجوز على كرسيه وفكر. فكر في جميع الاختلاسات الأخرى التي لا بد أن يكون أورثون قد ارتكبها، وفي جميع الأعمال الفنية الساحرة التي خرجت من يديه، وفي الميداليات والتمائيل الذهبية والأكواب المنقوشة والمرصعة بالأحجار الكريمة؛ واستولى عليه غضب شديد لمجرد التفكير في أن هذا القدر من الموهبة قد اختلط بهذا القدر من الازدواجية. فقال في نفسه: (لهذا السبب سأعفيه من العقاب وبذلك أتجنب الفضيحة؛ ولكنه يستحق أن يلحق درساً، وسأعاقب نفسي بأن أنزع منه إلى الأبد امتياز العمل في القصر) وتهد تنهيدة طويلة. وعلى الرغم من كل ما خبره من سوء نية الرجال، فإن مثل هذا كان يزعجه دائماً، وكأنه يكتشفه لأول مرة؛ وظل الغضب البليد يهيج في نفسه عندما ظهر أورثون أمامه.

وصل الصائغ متلهفأً واثقأً من مهارته التي لم تخفق حتى الآن؛ ونظر إلى سبائك الذهب والفضة وابتسم: لا شك أنه كان على وشك أن يتلقى أمراً جديداً. قال الملك فجأة: (لقد خدعتني يا أورثون) وتحت نظرات الرجل العجوز الصارمة شهق أورثون شهقة شديدة، ولكنه تمالك نفسه وتجلّى بوجه شجاع، فقال له الملك: (أنا، أخدعك أيها الملك العظيم هيرون! لقد كنت أفضل أن تكون يداي كلتاهما تراباً؛ كنت أفضل أن تكون الآلهة... لا تجدف عليّ، أجب هيرون بصوت هادئ - لقد خدعتني بشأن المعدن الذي زوّدت به للتاج. لقد احتفظت بجزء من الذهب واستبدلت به الفضة، فاحتج أورثون:

-هذا مستحيل! إن زيوس الذي يرى كل شيء يعلم أن هذا مستحيل، فنظر إلى التاج فوجده سليماً: (كيف يدّعي أحد ذلك والجوهرة لم تمس؟). لقد استطاع أرخميدس أن يكتشفها، قال هيرون في بطاء فارتجف أورثون من رأسه إلى أخمص قدميه، وازدادت بشرته الصفراء صفرة. وتلعثم قائلاً: "إنه سحر. هذا الرجل لديه تواطؤات سرية مع هيكاتي الرهيبة ذات الجرعات الكاذبة. لا تصدقه، أيها الملك العظيم، لا تصدقه. كان منظره يرثى له، وهو يرتجف ويوشك أن ينهار. فأعرض عنه الملك وقال: (انصرف، ولا تعد إلى حضوري مرة أخرى) فأسرع الصائغ إلى الطاعة. ثم خرج الشاب هيرونيوموس من الشرفة حيث كان يرمي بالقوس مع أحد رفاقه. وكانت عيناه الصغيرتان القاسيتان، ومنخره المنتفختان المتقدتان وفمه الأحمر

المفرط في الحمرة، شاهدة على غضبه: (لماذا طردته؟) قال لهيرون: (إنه ماهر جداً) وعندما لم يرد عليه الرجل العجوز، عاد إلى إطلاق النار على طيور السمان التي كانت في ذلك الوقت من النهار تطير أمام أورتيا في عصابات متراصة. ثم التفت إلى رفيقه كالون الأثيني الذي كانت قد نشأت بينهما صداقة مفاجئة، فقال:

- عندما يموت أبي ويلحق به جدي، سأكون طاغية سرقوسة. ثم آتي بأورثون إلي، فيضع صورتي على الدراخمة الفضية والذهبية، بدلاً من رأس بيرسفونيا أو أريثوسا أو بوسيدون. وكان طائر قد سقط أمامه يتخبط في دمائه، فالتقطه من طرف جناحه ورماه في البحر. وكان على الأمواج الشاحبة ثلم صغير من الزبد الأحمر يضيق شيئاً فشيئاً، بقعة واحدة غير محسوسة، كجرح في صدر الأمواج البيضاء للحوارية الصقلية التي بكت لرؤيتها نفسها وقد وقع خيانتها...

الفصل الثامن

ترددت أصداء الخبر في جميع أنحاء المدينة كالصاعقة: لقد مات جيلون، وعلى الرغم من أنه نادراً ما كان يظهر في العلن وكان له مظهر الفيلسوف لا مظهر الملك المستقبلي، إلا أن الناس أحبّوه؛ أحبّوه بقدر ما كانوا يخشون هيرونيموس الشاب الذي كانت رذائله معروفة جيداً، والأميرات ذوات الجمال المتغطرس اللاتي كن يشهن النيريدات الشريرات. ربما كان أورثون الوحيد الذي فرح علانية بموت الوريث الملكي. ولم يتردد في دكانه، وهو منحني على الزاوية التي كان ينحت فيها منحوتة، في أن يبوح بمشاعره لجوليس الذي كان واقفاً ينتظر مرور الجنازة. كانت الساعة العاشرة صباحاً والقافلة ستسير بعد قليل. ومقابل المحل، وابتداءً من أحد جانبي المسرح، امتد شارع المقبرة حيث ارتفعت، على استقامة مغازل أشجار السرو الحادة كالمغازل في موريس، مخاريط أشجار السرو الحادة. وهكذا استمر الشارع، عبر قلب المدينة، من المسرح إلى هضاب تيشيه. كانت جوليس تستطيع أن ترى من مدخل بابها طول الجادة كلها، وتذمر الصائغ قائلاً:

"هذا من واحد منهم. ولكن ليس هذا هو أكثر ما كنت أريده، فهناك اثنان آخران أود أن أراهما يذهبان إلى بلوتون.

- قالت جوليس دون أن تلتفت: الملك هيرون ودوركاس. أما الأول، فمن المحتمل أن تتحقق أمنياتك قريباً: رجل عجوز في السادسة والتسعين! أما الثاني فيمكنك أن تنتظر، فلا يبدو أنه يريد أن يموت!

-صبراً!" أجاب أورثون: "أنا لست في عجلة من أمري. يجب تذوق الانتقام ببطء. عندما يكون الفأر في مخالب القطة، فإنها تقلبه أكثر من مرة قبل أن تبتلعه. وتجعد جبينه بعدد كبير من التجاعيد الدودية الصغيرة، بينما واصلت يداه الرشيقتان إزميل زاوية الميدالية. واقتربت منه جوليس: (كيف تنوي أن تنتقم من دوركاس؟) فأجابه أورثون الذي صمت فجأة: (دعيني أعمل. يمكنك أن تخبريني) وأصرت جوليس قائلة: (لا أخفيك سراً. إنني لا أخفي عنك شيئاً، فكل ما أعرفه أخبرك به بأمانة. ألم أخبرك مباشرة يوم وجدت فاني، زوجة دوركاس الصغيرة، تبكي على عتبة الباب؟ وعندما كانت تنوح وحدها، بينما كانت العائلة كلها خارجة للاحتفال بـ"جيلوس" وكانت تبكي في كل مكان على حبيبها دوركاس، ألم أسارع إلى إخبارك؟

-قال أورثون: (هذا صحيح، ويجب أن نستمر دائماً على هذا المنوال؛ والآن دعيني وشأني) وظلت جوليس ساكنة لبضع لحظات، وشخصها الضخم واقفاً كقربة النبيذ أمام أورثون؛ وكانت تتحرق فضولاً وهي تحاول أن تجد وسيلة لإغوائه؛ وأخيراً قالت: (يا أورثون الصغير، كن لطيفاً يا أورثون، وثق

بي، وسأعد لك على العشاء هذا المساء طبقاً من تلك الأطباق الدسمة
المزدوجة التي تحبها كثيراً.

- كلا، أجب الصائغ دون أن يرفع بصره: (لا!)
- لا!

- طبق من سمك القد من بسينونتي؟
- لا!

- طبق من سمك الفرانكولن من فريجيا؟
- لا!

- طبق من سمك الطاووس من ساموس مطبوخاً في نبيذ حلو على نار
هادئة؟

- لا، لا ولا! هذا يكفي، جوليس! لا تغريني لو أخبرتك بسري هذا الصباح،
سيعرفه كل من في المدينة الليلة وسيفلت مني انتقامي.

فضم شفتيه على بعضهما البعض وأرخى جفنيه في تكشيرة تعرفها جوليس
جيداً وكانت تدل على تصميمه الذي لا رجعة فيه على عدم الاستسلام.
عادت جوليس إلى الباب بعد أن استنفدت كل حججها. كان ضجيج الموكب
قد بدأ يُسمع، وكان يمكن رؤية طابور طويل من الرجال والنساء يرتدون
ثياباً بيضاء ويحملون تذكارات من الزهور، فقالت جوليس: يا لهم من
أناس كثيرين! تعال وانظر يا أورثون.

- ماذا أفعل؟- "، قال الصائغ دون أن يترك عمله. لقد حان الوقت لأخرج من طريقي عندما يمر سرير الجنازة؛ فالناس الذين يرتدون ثياباً بيضاء دائماً ما يشاهدون في الجناز

- ليس كهؤلاء! أولاً وقبل كل شيء، عددهم أكثر بكثير، والزهور التي يرتدونها أجمل بكثير؛ فهي تختفي تحت الكمية. من هنا يبدو الأمر وكأنه حديقة في طور النمو.

-قال أورثون: "إنه جيد، إنه جيد!". وواصلت جوليس وهي على العتبة صائحة: (لا تكثروا من الهتاف، فإنني عندما أموت لن أضع الكثير من المال! وكانت الأبواق تدوي زحفاً حربياً؛ وكان إيقاع الخيول الممسكة بإحكام في أيديها يدوي متواتراً متناغماً؛ وكان الصوت يشبه خروج جيش في حملة مجيدة. كانت غنائم الزهور قد مرت. التفت جوليس فجأة وقالت: "ها هم قادمون، ها هم قادمون! إن الذي يمشي أمامهم جميعاً هو دوركاس، وهو يرتدي سترة بيضاء مطرزة بالذهب، إنه وسيم حقاً، يجب أن يكون وسيماً" وتذمر أورثون وأضاف شيئاً بين أسنانه. ولكن جوليس لم تكن تصغي إليه، فقد كانت مستغرقة تماماً في المشهد الذي كان يتكشف أمام عينها، وهو مشهد فخم ورائع أثار إعجابها بتأمله رغم نفسها. أما هيرون الذي لم يشأ أن تختلط الدموع المدفوعة الأجر بالدموع الصادقة التي ذرفها على ابنه، فقد أمر بإلغاء النائحات. كان الشعب كله هو الذي شكل جوقة الرثاء. وكما حدث في جنازة تيموليون، حمل السرير الجنائزي

شبان من المدينة تم اختيارهم بالقرعة، وكانوا جميعاً في هيئة رائعة كما لو كانوا قد اختيروا بعناية لجمالهم. وكانت إحدى أذرعهم عارية، وكانت رؤوسهم مكللة بالورود، وكانت انحناءات أفواههم الشهوانية المتينة في الوقت نفسه، في بيضاوية وجوههم الملمساء تظهر الرغبة المبريرة في الحياة وسكرة الموت.

لأن هذه السكرة السرية للموت، التي علّمها الفلاسفة، هي التي كانت تحوم فوق رثاء الجموع، كما يحوم طائر مفتوح الجناحين فوق نحيب الأمواج الجاهل. وسرعان ما ستظهر رموز هذا الإيمان غير القابل للاختزال في اللانهائي، عندما تنحدر رفات جيلون الجامد إلى أعماق القبر الباردة. لم تعد كأس باخوس المنحوتة بشكل بارز على الجدار الأوسط للتابوت الحجري ترمز إلى ملء الأفراح الأرضية، بل إلى سكرة الروح المتحررة من الجسد، التي تتذوق في النهاية خمر الحكمة وتشربها في جرعات طويلة. سيتحول باخوس، إله الحياة، إلى إله النعيم الأبدي.

وعاد إلى العمل. وكانت جملة جوليس قد غرزت كالحديد الملتهب في قلبه وسببت له جرحاً لاذعاً. وفكر أنه لولا حادثة التاج لكان له الحق في أن ينحت النقوش الرمزية والكأس المرصعة باللبلاب وتمثيل باخوس والآلهة في معدن التابوت. وازدادت كراهيته لأولئك الذين اكتشفوا غدره، وخاصة دوركاس، الذي اتهمه هو نفسه بأنه هو الذي فتح عينيه على هيرون

وأرخميدس. وكان كل غضبه مركزاً على دوركاس: دوركاس الذي جعله يسلمه سبيكة الذهب؛ دوركاس الذي جاء يبحث عنه في دكانه دون أن يخبره بشيء، وأحضره أمام الملك ليطرده من القصر بشكل مخز؛ دوركاس الذي طالما كرهه حتى قبل أن ينشأ بينهما هذا الموضوع من الخلاف.

- نعم، " تابعت جوليس من المدخل، "سنقدم الآن قربان العطور. أستطيع أن أسمع أصوات الشبان وهم ينشدون الترنيمة لبلوتون. كانت تتحرق شوقاً للذهاب، ولكنها كانت تخشى أن تغضب أورثون وتزيد من سخطه. وهكذا وقفت على عتبة الدكان وفمها نصف مفتوح وذراعاها متدلّيتان إلى أسفل، وهي تترقب كل أصداء الاحتفال. ولكن عندما دقت الأبواق مرة أخرى معلنة الدفن، لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك، ودون أن تنطق بكلمة، ركضت نحو أشجار السرو. وتمتم أورثون: (ذلك الأويري الذي نحت جدران التابوت الحجري) لقد هزمته ثلاث مرات في المسابقة...

ثم صمت، ولاحظ فجأة أن جوليس لم تعد موجودة، وواصل عمله. كانت ميدالية من الفضة رسم عليها إلى جانب رأس غورغون¹¹³ الأرجل الثلاث التي تشكل التريكيتر¹¹⁴، وهو شعار صقلية القديم، الذي كان الرعاة قبل

¹¹³ la Gorgone ابنة فوركيس وسيتو، وبالتالي فهي أخت الإغريق، ولكنها فانية، ميدوسا فتاة شابة جميلة يقع بوسيدون في حبا. ينتهكها بوسيدون في معبد مكرس لأثينا، فتعاقبها الإلهة نفسها التي تحولها إلى جورجون.
¹¹⁴ La Triquetra التريكيتر، والمعروف أيضاً باسم عقدة الثلاث، هو رمز مكون من ثلاثة أقواس متشابكة تشكل شكلاً مثلثاً. يمثل كل قوس كياناً مختلفاً، وغالباً ما يرتبط بالثالوث الأقدس في الثقافة المسيحية.

اختراع فن الصياغة بوقت طويل، يستمتعون بنحته من جذوع أشجار البلوط المتينة. شرع أورثون في جعل هذه الميدالية تحفة فنية. لقد أراد أن يشعر الملك، الذي طرده بقسوة شديدة، بالحق والندم عندما يراها. كان يعلم أنه في لحظات، بعد مراسم الجنازة، سيتدفق الناس من المدينة راكضين في كل الاتجاهات لحضور الألعاب الرياضية: سباقات الخيل، وسباقات العربات، وإلقاء الشعر، ومسابقات الموسيقى - كان هناك شيء للجميع. وكان الملك قد أخذ من خزائنه ثمان عشرة مائة من عملة ذلك الزمن ليوزعها على الفائزين في الألعاب. ولكن أورثون لم يقلق لذلك، فقد كان يعمل دائماً، وكانت على شفثيه ابتسامة ضيقة؛ وكان يفكر دائماً: عندما يرى الملك العجوز ما أتقن من فنون نحت هذا التمثال، سيموت من الغيظ لأنه لم يعد له من بعد صائغ ذهب). وكان الشارع مهجوراً، وكان الجمهور لا يزال محتشداً هناك، بين خطين مستقيمين من أشجار السرو. ومع ذلك، سُمع وقع أقدام متيقظة فنظر أورثون إلى الأعلى. فرأى دوركاس يخرج من جانب المسرح، وقد ألقى عباءة سوداء فوق سترته البيضاء المطرزة بالذهب. وكان من الواضح أن الضابط يحاول أن لا يراه أحد، ولكن أورثون ناداه متظاهراً بأنه لا يحمل ضغينة:

-حسناً يا لورد دوركاس، هل انتهت الجنازة بعد؟ قال دوركاس: نعم، إن جيلون الآن ينام نومه الأخير، وأراد أن يمضي في طريقه ولكن الصائغ منعه: (هل أنت في عجلة من أمرك؟) لم يكن يريد أن يظهر عمق مشاعره

أيضاً. شعر أن الصائغ قد عوقب بما فيه الكفاية. شعر بقليل من الشفقة على هذا الرجل الساقط. وانحنى على الميدالية وهدق فيها لبضع دقائق وهو راضٍ عن نفسه. وفي هذه الأثناء، لم يرفع أورثون عينيه عنها. كانت هناك سخرية شريرة تجعدت في وجهه. وكانت أنامله المنحنية التي احترقت من ملامسة المعدن توخزه الرضى عن إمساك دوركاس رغماً عنه.

- قال دوركاس في النهاية: "إنها جميلة جداً"، ولكنني لا أرى ما هي الأسطورة: "ها هي ذي"، قال أورثون وقد ازدادت ابتسامته سوءاً: "يا من رميت مرة رمحاً على درعي، احذر من غورغون المتحجر - واهرب من الرجل السريع ذي الثلاث أرجل."

الجزء الثاني الحرب

الكتاب الثالث
أحياء سرقوسة

الفصل الأول

في السور الضخم للمسرح اليوناني المنحوت في الصخر، حيث تلتقي جميع أحياء المدينة، كان مجلس الشعب منعقداً. وكان الملك العجوز هيرون قد توفي لتوه خلف ابنه جيلون في قبره. كان قد رحل دون ألم ذات مساء بينما كانت الشمس تغيب ببطء في الأفق. وقد وُجد جالساً أمام شرفته على البحر، وعيناه لا تزالان مفتوحتين ومملوءتين بتلك الرؤية الأخيرة من الصفاء. كانوا قد تحدثوا إليه، وبما أنه لم يجب، فقد أدركوا أن النشوة العميقة التي بدا غارقاً فيها كانت نشوة النعيم الأبدي. بعد بضعة أسابيع من الحداد العام، حان الوقت للتفكير في العمل. كان القلق الباهت يتصاعد من كل جانب، مثل الضباب الكثيف الذي يتصاعد من التربة المبللة بالندى الغزير. ماذا كانت آخر أمنيات الطاغية الطيب؟ كان قد حكم لسنوات عديدة لدرجة أن الناس كانوا قد فقدوا الأمل في أن يُحلّ محله في أي وقت مضى. غير أن الوقت قد حان الآن لمعرفة كيف سيُحكمون، وما هي الضمانات التي ستقدم للشعب مقابل خضوعهم له. الذكرى البغيضة للدينيسين وذكرى ثراسيبولوس التي لا تقل بغضاً، لا تزالان تثقلان المدينة وتضغطان عليها كما لو كانت سحابة من الدم. وانتقل اسم الشاب هيرونيوموس من فم إلى فم مع تهديدات الخوف. ومع

ذلك كان المأمول أن يبعده شبابه العظيم عن السلطة لبضع سنوات أخرى.

على الرغم من تجمع الكثير من الناس في العراء على ثلاث طبقات من المدرجات المكشوفة، حل الصمت الديني محل الضجيج المعتاد للحشد. كان الناس ينتظرون. ودون الحاجة إلى الصعود أو النزول من المدرجات، كان المتأخرون لا يزالون يتوافدون ويتخذون أماكنهم في صالات العرض التي كانت على نفس مستوى الشوارع المحيطة. وكان المسرح المتكى على منحدرات التل، يهيمن على الأفق، وكل سرقوسي كان ينظر إلى أعلى يستطيع أن يرى روائع وطنه المتناثرة. كان الريف الأشقر والبحر الفضي والمدينة البيضاء يشكلون مثلثاً مهراً من الضوء. كان نهر أنابوس يتدفق عبر القصب الناعم. كان حصن يوريال يقف مثل عملاق مسلح فوق الأبيول¹¹⁵. انتهى هنا الحزام الهائل من الأسوار التي كانت تحيط بها الأبراج المستديرة من كل حذب وصوب. وفي أقصى نقطة من المثلث، كان رأس بليميريوم يعلو باللون الأزرق فوق الأمواج.

وفي هذا المسرح الذي كان أكثر من مرة - متجاوزاً في عظمتة التراجيدية مسرحيات يوريبيدس أو سوفوكليس - كانت مصائر البلاد تُمثل فيه. كان

¹¹⁵ Épipoles إيبولي هي منطقة في سيراكيوز تقع على التلال فوق المدينة. وهي تتألف من عدة تلال، وهو ما يفسر صيغة الجمع. كانت واحدة من المواقع الرئيسية في الحرب البيلوبونيسية: هنا جمع الأثينيون قواتهم أثناء الحملة الصقلية. بحث مستخدمو ويكيبيديا على الإنترنت

تيموليون، الذي أصبح أعمى، يذهب إلى هناك في سنواته الأخيرة، عندما اضطرته الظروف الخطيرة إلى التماس رأي الشعب. وكان يصل، وهو جالس على مركبته، إلى هتاف الشعب بالإجماع، وكان متأكدًا مسبقاً من أن خطبه ستفوز بكل صوت... ولكن اليوم كانت مشاعر مختلفة تسيطر على القلوب، وفي هذا الصمت الذي كان يتزايد إلى حد الكرب كان يشعر المرء أن سرقوسه ربما لأول مرة أي منذ خمسة قرون من تأسيسها تشعر بضعف إيمانها القوي بمصيرها.

وكما كان يحدث في زمن تيموليون، أحدثت عجالات العربة ضجيجاً مزعجاً على الرصيف الرخامي، وشوهد أندرنودور ينزل وحده، وقد ارتدى جسمه الغليظ سترة حريرية شاحبة. وعلى الرغم من جرأته، فقد كان من الواضح أن انزعاجاً داخلياً كان يؤثر على سهولة حركاته. صعد الدرجات واستعد للتحديث إلى الجموع قائلاً: "لقد مات الملك هيرون أبونا المحبوب"، ولكنه تمنى بروحه وحكمته أن يبقى بيننا. سأخبركم عن أمنياته الأخيرة".

وبدأ أندرنودور يفتح اللقافة المخطوطة التي كانت ترتجف بين أصابعه، وبدأ يقرأ وصية هيرون. وحث الملك شعبه على أن يظلوا مسلمين ومتحدين ومجتهدين، وأن يحترموا صداقة روما، وألا يقدموا على شيء دون استشارة الآلهة والصلاة لها. وأخيراً، قال: "أطلب إليكم أن تقبلوا حفيدي هيرونياموس حفيداً لكم، وقد أضفت إليه خمسة عشر معلماً ليوجهوه بالمبادئ التي طالما سعينا إلى غرسها فيه. إن هذا الطفل لم يبلغ الخامسة

عشرة من عمره بعد، ولا شك أنه كلما كبر أدرك خطورة المهمة التي تقع على عاتقه وسيسعى جاهداً ليثبت أنه جدير بها. ولكن إذا نسي واجباته، فلا تترددوا في خلعه؛ فمصالح الشعب أعز علي من مصالح دمي؛ ثم أستم يا سرقوسيين، أستم جميعاً أبناءي الأحباء؟" وبعد أن فرغ أندرنودور من القراءة اختفى إلى مؤخرة المسرح، وسُمع بعض التهنيدات تنبعث من الصدور المقهورة؛ ثم عاد الصمت؛ ثم سرى؛ وسرت رعشة من طبقة إلى طبقة، في المسرح الواسع من أدنى الخليج إلى القوس؛ وكان أندرنودور قد ظهر لتوه وعلى يمينه هيرونيموس؛ وأخذ بيد الفتى المراهق وقدمه إلى الجموع المحتشدة.

وكان أول هم الملك الشاب بعد موت هيرون أن يترك قصر أورتيجيا وينتقل إلى قصر آخر أكثر فخامة بين تيتشي وإبيوليس كان ديونيسيوس يسكنه ذات يوم. وكان هذا القصر يحتوي على عدد من الغرف بعدد أيام السنة، ولم يكن أحد يعرف في أي منها ينام الطاغية. أحضر هيرونيموس معه كالون الذي أصبح رفيقه الذي لا ينفصل عنه. ومنذ ذلك الحين، أصبحت علاقتهما الحميمة أمراً معروفاً على الملأ؛ ففي الصباح، كان يمكن رؤيتهما ينزلان معاً تحت رواق القصر، بين الأعمدة الكريسيليفانتية حيث يمتزج الذهب والعاج بسلاسة. وكانا متشابهين في الطول، ولكن كالون كان يصف شعره طويلاً مجعداً فوق سترة منسدلة لا يربطها من الخصر إلا شريط أرجواني ضيق .

أما هيرونيموس فقد كان جبينه لا يفارق الإكليل، وخواتم ثقيلة تملأ أصابعه، وخاتم ثقيل يزين شفتيه، وحول عينيه القاسيتين دائرة من الكحل تمتد كهالة حول ضوء نجم متلألئ. بعد الظهر، خرجا في عربة. وكانا يقفان بلا حراك في مؤخرة العربة الرباعية تجرها أربعة خيول بيضاء ذات أعراف مفتوحة. بدا الأمر وكأنه شعار سرقوسة نفسه الذي يحلو للصاغة أن ينقشوه على ظهر الميداليات، حيث جلس النصر إلى جانب بطل شاب: ولكن البطل هذه المرة كان أميراً فاسقاً والنصر قد أفسح المجال لأثيني ذي جبهة غير نقية.

أما ما حدث بعد ذلك في القصر، فلم يعرفه الناس. غير أنه كان من السهل أن نفترض أن الليل قد واصل لهيرونيموس مسرات النهار المخنثة. وكلما عاد السرقوسيون إلى منازلهم في المساء، كانوا يرون قصر تيتشي الفخم يلمع في الظلام، وهو قصر عجيب، كما قيل، حتى أن الطاغية كان يبصق في وجه عبده عند الحاجة حتى لا يشوهوا فسيفساءه. واستيقظت الأساطير القديمة عن رذائل دينيس المشهورة على شفاه الخائفين؛ وذكروا جشعه الذي بلغ به أن يجرد الآلهة من عبااتهم الذهبية؛ وسوء ظنه الذي دفعه إلى أن ينام كل ليلة في إحدى غرف قصره الثلاثمائة والستين؛ وشهوته التي دفعته إلى اختراع ملذات لم يعرفها غيره من الرجال الأربعة عش، وبدا أن هيرونيموس قد ورث كل هذا الفساد على مر القرون، وزادت مراهقته من الفضيحة بغيضة.

وفي ذلك المساء، كان الملك الشاب ينهي عشاءه، وكانت يده المحمومة تلوي القاعدة الهشة للكأس المرصعة بالعقيق، وكان كالون الذي كان ينتظر قدومه قد تأخر في الحضور، وكان هيرونيemos قد نفذ صبره. لماذا لم يأت كالون الذي كان دائماً متلهفاً ومطيعاً؟ هل كان قد سئم من الخدمة التي كان يتلقاها؟ أو لعل امرأة ما - فتاة شابة ذات صدر مدبب وخصر ضيق - قد صرفته عن خدمة الصداقة الملكية؟ هذه الفكرة جعلت يد هيرونيemos المحمومة تشد على قاعدة الكأس المرصعة بالعقيق. كان يفكر بالفعل في الانتقام الذي من شأنه أن يريح قلبه دماء، وفواق وشهقات، وشكايات، ودموع، بل دموع كثيرة... الدموع هي دم الروح الذي لا لون له، والتي تنساب من جروح أعمق وأشد إيلاماً من جروح الجسد. دموع كثيرة ممزوجة بالدم القرمزي في اللحم المفتوح، وتنهيدات كثيرة ممزوجة بالفواق المتشنج في الأفواه... ابتسم الملك المراهق، فقد كانت هذه الرؤيا ثمينة ولذيذة في شهوانية. ولكن كالون ظهر في ثوبه الأبيض وجبينه مكلل بالورود. ولما انفردا وأفرغا ببطء الكأس التي كان كالون قد قطف فيها الورود من شعره واحداً بعد الآخر، وضع الإيبيني الأثيني عينيه على عيني هيرونيemos: ولما انفردا وحدهما وكانا قد أفرغا ببطء الكأس التي كان كالون قد قطف فيها الورود من شعره واحداً بعد الآخر، وضع الإيبيني الأثيني عينيه على هيرونيemos: (هل تعلم - كما قال - لماذا تركتك تتعشى بدوني اليوم؟ قال هيرونيemos: (لقد كنت أتساءل. " فأجابه كالون

بفضاطة: "لا شك أن هناك نزوة ما. خلال السنوات الخمس التي عشناها جنباً إلى جنب، هل سبق لي أن خنتك يوماً واحداً؟ هذه مسألة أكثر خطورة. اسمعني فقط.

واقترب من هيرونيemos، هناك مؤامرة ضدك، هناك مؤامرة تحاك ضدك، ففي هذا اليوم بالذات، بينما كنت عائداً إلى القصر لأنضم إليك هنا، حاول أحدهم أن يضع خنجراً في يدي ليضربك به، فتراجع هيرونيemos بغريزته إلى الورااء. ووقعت عيناه على يدي كالون البيضاء الساكنة الموضوعة على الطاولة بين الأحواض والأطباق الذهبية.

- هل هذا ممكن؟ هل هذا ممكن؟ ولم تقبضوا على البائس؟ أين هو الآن؟
ما اسمه؟

- لا تقلق"، قال كالون بصوته الهادئ.

- إنه ينتظرنى. إنه شخصية مغمورة تدعى "ثيودوتس"

- اذهب وأحضره! أو بالأحرى لا، أحضره! سوف يتبعك اثنان من أتباعي ويقبضون عليه بينما تتحدث إليه. اذهب بسرعة، يا عزيزي كالون، فليس هناك دقيقة واحدة نضيعها، سنكبله بالحديد الليلة، وغداً يستجوبه عي أندرنودور.

وألقى نظرة على العشاء الذي لم يؤكل، وعلى الزهور التي لم تقطف بعد، وعلى المزهريات المرمرية حيث لا يزال يلمع فيها لون العنبر المائل إلى الوردى من النبيذ النادر. كان لسانه الأحمر يلوي شفثيه:

- وعد، عد بسرعه !

وكان أندرنودور قد قرر إبقاء المؤامرة سرية قدر الإمكان. فقد كان يعرف مدى قلة تعاطف الشعب مع الملك الشاب، وخشي أن تؤدي أدنى شرارة إلى إشعال هذا العدا المكبوت. وعلاوة على ذلك، كان من السهل عليه معاينة الجناة دون أن يغادر القصر. عندما انتقل هيرونيموس إلى القصر لم يفشل في تجديد غرفة التعذيب التي نظمها ديونيسيوس. وهنا استدعي ثيودوتوس في الساعات الأولى من الصباح الباكر. جلس أمامه هيرونيموس قلقاً مرهقاً، وأندرنودور الغليظ القوام، والأميرات اللاتي انهار شعرهن الغزير في شباك سمكية مغطاة باللؤلؤ.

وسأل أندرنودور السجين:

- "لقد اقترحت على كالون الليلة الماضية أن تغرس خنجراً في حوض الملك الشاب. من المستحيل أن تكون قد خططت لهذه الجريمة بمفردك. لابد أنك تواطأت مع أشخاص آخرين أكثر أهمية منك." قال ثيودوتوس:

- "في الواقع كان لي شركاء." قال أندرنودور، "كان رجلاً من عامة الشعب، قصير القامة أسمر اللون، ذو مظهر نشيط، عينان ناريتان ملتفتتان غائرتان تحت قوس حاجبيه تلقيان أضواء متقطعة على وجهه كالمشاعل..

- هؤلاء الشركاء سمهم." شحب وجه ثيودوتوس فجأة وبقي صامتا أمام العائلة الملكية.

قال عم هيرونودور بقسوة: - "ألا تريد أن تتكلم؟"

-لا، يا مولاي؛ لن أقول كلمة أخرى، ولكنه فوجئ على الفور. كان قد فُتح للتو من تحت قدميه باب مصيدة انفتح فجأة وخرج منه جهاز تعذيب كامل، أيادٍ حديدية طبقت نفسها على يديه، ودوائر تنفث مسامير حادة تسجن ركبتيه وخاصرتيه وصدره. وبقي مجمداً على هذا النحو غير قادر على الحركة، ولم يكن حرّاً سوى رأسه وكتفيه. رفض ثيودوتس ذلك رفضاً قاطعاً. ثم انحنى هيرونيemos نحو عمه. تمتم الثور النحاسي! كان هذا الثور أداة تعذيب شبيهة بتلك التي صنعها فالاريس من أغريجتو لتقديم القرابين للإله مولوخ. كانت الضحايا البشرية المحصورة في جناحيه تلتهم شيئاً فشيئاً، وكان أنينهم الذي يمر عبر النحاس الرنان يتحول إلى موسيقى غريبة مخيفة أو خاشعة بالتناوب، بينما كانت النيران تلتهم لحمهم ببطء. اقترب الوحش الهائل؛ وبدا حياً حتى بدت خياشيمه وردفه كأنها ترتجف من الطبيعة. في البداية، لم يُسمع أي شيء. نظرت الأميرات إلى بعضهن البعض بقلق: ماذا لو استسلم المذنب دون الكشف عن أسماء شركائه! لكن الجلادين الواقفين حولهما، بعد أن خمن خوفهما، طمأنوهما: -قالوا: "سوف يئن بعد لحظة" عندما تصل ألسنة اللهب إلى ركبتيه. لم يكونوا مخطئين. بعد لحظة، سُمعت أولى الشكاوى، مشوشة في البداية، ثم أصبحت أعلى وأشدّ ذهولاً. ولزيادة شدتها أدخل مزاران من العاج في منخري الثور البرونزي، ومن ذلك الحين كانت حفلة موسيقية هائلة بدت فيها كل أصوات الأحزان وكأنها تتضخم وتئن معاً. زئير الوحش المتوحش،

ونباح الكلب المستغيث، ونحيب الوحش المندهش الذي يريد أن يفر ويصده حقد الصياد - كل هذه الأصوات كانت تهدر وتولول في نفس الوقت في تناغم وحشي. وملاّت الحفلة الموسيقية الهائلة القاعة الفسيحة، وضربت الجدران المدوية بنغماتها الثائرة الحزينة، وأزيها الذي يملأ الحجرة الفسيحة، وأزيها الذي يبعث على الغضب والغيظ. واستمر ذلك لفترة طويلة، ولوقت طويل كان صوت الرجل المعذب، يمر من خلال الخياشيم البرونزية حيث ترتجف المزامير العاجية يستعير كل صرخات الطبيعة ويستحضر كل آلام الأرض. ثم ساد الصمت؛ - وصارت صرخة واحدة، صرخة واحدة عالية النبرة رهيبة تلخص هذه الجوقة من الشكاوى: صرخة الرجل الذي أمسكه الموت من حلقه وعانقه وانتهكه. قال هيرونيموس: "بسرعة لنخرجه! لقد حان الوقت". لم يكن جسد ثيودوتوس أكثر من شعلة نار سوداء مشتعلة؛ وكان وجهه بالكاد يمكن تمييزه وسط شعيرات لحيته وشعره المتطاير. ومع ذلك، كان لا يزال لديه الشجاعة ليقول:

- لن أتكلم. لماذا لم تتركوني هناك لأموت؟ ثم قال أندرانودور والأميرات والملك الشاب والجلادون جميعهم كان لديهم نفس الإلهام الشرس:

- اربطوه بالعجلة! ستجعله العجلة يستسلم! كانت هذه هي المحنة الأكثر فظاعة، تلك التي لم يقاومها أحد من قبل. رُبطَ ثيودوتوس بمحور العجلة،

التي اتسعت قضبانها فجأة، مما تسبب في تشقق أطرافه وانفصالها. خضع لدورة أولى في صمت، ثم ثانية؛ ولكن في الثالثة استسلم:

- كفى! كفى!" هكذا صرخ. فوقف على قدميه، ونظر في عيني أندرنودور ونطق باسمه بصوت منخفض، ثم قال بصوت منخفض: - كفى!

- "آه! آه!" قال أندرانودور. لقد ظننت ذلك. ثراسون، ذلك الصديق الرومي الذي أرادوا أن يفرضوه علينا كأحد الأوصياء الخمسة عشر على العرش. " ثم التفت إلى الملك الشاب، فلمح هيرونيemos ومضة من الغضب في عينيه المرهقتين...

- قال: "دعهم يذهبون ويذبحونه الآن!" ولكن تأره لم يكن قد شبع بعد. وبدأ هو نفسه في استجواب السجين.

- آخرون! اذكر أسماء آخرين! وألقى ثيودوتس من فمه المتشنج، من شفثيه اللتين أكلتهما ألسنة اللهب نصفين، أسماء أخرى؛ أسماء عدة أتباع في خدمة الأمير الشاب؛ وبينما هو يفعل ذلك أرسل أندرنودور جلاداً لإعدامهم. هل هذا كل ما في الأمر؟ سأل هيرونيemos؛ ولم يقل ثيودوتس شيئاً آخر. كان وجهه يتحلل للحظة وعيناه غائمتان؛ كان على وشك الموت. ومع ذلك، كانت هناك إرادة قاهرة، شيء أقوى من قدره، كانت لا تزال تمسك به أمام العائلة المالكة. ماذا كان ينتظر؟ فُتح الباب. وعاد الجلادون معلنين أن العدالة قد تحققت. ثم نهض ثيودوتس مستجمعاً قواه وسال لعبه من الألم، وصاح في وجه الملك والأميرات وأندرانودور بما يلي:

- لقد كذبت لم يكن ثراسون ولا التّابعين مذنبين. المذنبون الحقيقيون، لن تعرفوا أسماءهم أبداً. لقد وثقوا بي، وهم يعلمون جيداً أنهم لن يخونوا لدرجة أنهم في هذه الساعة يمشون بحرية في سرقوسة يستنشقون الهواء الدافئ والشمس. وانطلقت من الثقب الأسود في فمه نفثة من الضحك الحاد. دعوه يموت! . صاح هيرونيموس ولكن لا فائدة من ذلك. كان ثيودوتي قد لفظ لتوه أنفاسه الأخيرة.

الفصل الثاني

ما إن انضمت براكسيلا إلى دوركاس في المدينة الجوفية حتى قادته إلى قاعدة عمود مكسور حيث جلسا جنباً إلى جنب. ولم تكن الهيروفانتيدة قد بدت مضطربة تحت حجابها إلى هذا الحد، وكان قلبها يخفق بينما كانت تزعج طيات القماش مثل طائر محاصر. وقبل أن تتمكن من التقاط أنفاسها التفتت إلى صديقها الذي كان يصغي إليها وقالت بصوت خافق: (دوركاس! أه كم أتوق إلى رؤيتك مرة أخرى يا دوركاس!

ولم يجب دوركاس بأي رد، فقد خشي أن تفضح لهجة كلماته العاطفية ما في مشاعره من الحماسة الخفية؛ وكان يكفي أن تخترق وجهه عيناها المحجوبتان عينيه المحجبتين، وأن ترى حيرته وانفعاله المتزايد كلما وجد نفسه بقربها. وعلى أية حال، كانت على وشك أن تتكلم مرة أخرى؛ واستأنفت حديثها بهدوء أكثر:

-بموت هيرون كم تغيرت أشياء كثيرة من حولنا! لم أرك منذ اليوم الذي سبق ذلك اليوم الحزين. التقينا في الممر السري بالقرب من الرواق. هل تذكر؟ وقلت لي: (ليحمد الله زيوس على إطالة عمر هذا الملك الصالح!) قال دوركاس: (أتذكر). وا أسفاه، يجب ألا نظري أنفسنا بالنعمة الإلهية، لأننا لا نستحقها كل الاستحقاق، فهل ندرى حين نهى أنفسنا برؤية النور،

إن لم نكن في اليوم التالي سنغرق في الظلام؟ تنهدت براكسيلا تنهيدة عميقة:

- هذا صحيح! إن الآلهة نفسها توزع المنافع والعقوبات على الناس، وغالباً ما تكون يدها اليمنى التي تحمل العدل أكثر انفتاحاً من يدها اليسرى التي تحمل الرأفة. صدقني يا دوركاس، لقد اقترب الوقت الذي ستحتاج فيه إلى محارق بشرية لتهدئة غضب زيوس العظيم، وكان صوتها الساحر قد اتخذ نغمة نبوية. ارتجف دوركاس:

- ما الذي يجعلك تقولين ذلك يا براكسيلا؟ هل أعطاك "إيبونيم" تحذيراً سرياً؟

- لا، لا، لا شيء لم تخرج كلمة واحدة من شفثيه، إلا أنه نصحننا جميعاً بمضاعفة حماستنا في تضرعاتنا. لكن الخطر الذي يتهدد سرقوسة مؤكد؛ لقد تلقيت إشارات منه تتفق كلها مع القلق العام. ففي كل ليلة تقريباً تزعجني في نومي أحلام غير عادية: أرى وابل من الدم يتساقط على المدينة، وأذان الذرة الملتهبة كالسيوف ترتفع في الأخاديد. يا دوركاس، الحرب قادمة، الحرب القاسية...

انتفضت تنهيدة في صدرها. وبقي دوركاس، الذي اعتاد أن يعرفها بأقل رعشة من إيماءاتها وكلماتها، ساكناً صامتاً بجانبها. وكانت دهشته لا توصف وهو يرى روحها المفعمة بالنشاط والحيوية تضعف لأول مرة. ألم تترى مثله، ومثلهم جميعاً، دوريان سرقوسة وإسبارطة، على فكرة وأمل

المعركة التي وطدت إمبراطوريتهم على وجه العالم وزادت من تراثهم من المجد؟ ألم تكن براكسيلا، بحكم كهنتها، أكثر من أي شخص آخر مكلفاً بإعلان البطولة والتشجيع عليها؟ ومع ذلك فقد اقتربت منه الكاهنة الشابة بحركة رشيقة من الهجران، ارتسمت على وجهها، ثم انصرفت إلى نفسها:

-طمئني يا دوركاس، قل لي أن مخاوفي باطلة!" فأجاب دوركاس: "كنت لأفعل، ولكني لا أستطيع أن أكذب. إن أحلامك يا براكسيلا مثل هواجسي. إنها تخبرك بما تخبرني به أفكاري عندما أدير عيني من الحاضر إلى المستقبل. وحتى الحاضر مليء بالظلام، فهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك مع أمير متوحش كالذي يحكمنا؟ أذان لا تصغي، وفم لا يفتح إلا للإهانة، وشخص الملك الذي لا يمكن الوصول إليه دائماً تقريباً، وتفنن في الفجور، وقسوة لا مثال لها بين الناس: هكذا تقريباً كشف خليفة هيرون النبيل والفاضل عن نفسه لرعيته حتى الآن.

ويبدو أنه مصمم على إلغاء كل ما فعله جده. وعلى الرغم من أرخميدس وأنا، فقد استدعى إلى القصر الصائغ أورثون الذي طرد من القصر طرداً مخزياً لأنه أدين بالخداع. ولكن هذه مجرد واحدة من الأمور التي يمكن اعتبارها صهيانية. والأخطر من ذلك أنه استدعى أيضاً من أفريقيا معلمه السابق هيموقراط الذي كان الشعب قد نفاه من قبل، والذي يبحر الآن نحو الجزيرة مع أخيه إبيسيديس.

-قالت براكسيلا مرتجفة: (ماذا؟) (هل سيعود هييموقراط؟ إذن حزب قرطاج سيجد نفسه قويًا ومحصنًا داخل أسوار المدينة ذاتها!)

قال: (نعم وهذا نصف الخطر فقط: فإذا كانت قرطاج تهددنا فإن روما لا تقل خطراً. فمنذ أن أخذ أندرنودور الطفل من يده وأعلنه ملكاً أمام الجماهير المحتشدة في المسرح، على الرغم من صححات الاستهجان التي أطلقها الجمهور، لم يكف هيرونيموس وخاله عن لوم مبعوثي الرومان على كل المحاولات التي جرت من مختلف الجهات لإلغاء حظوظهم. وباختصار، إنهم يستخدمون كل وسيلة ممكنة ليخسروا صداقة روما، التي عمل هيرون الموقر جاهداً على كسبها. هل تعلمون كيف استقبل هيرونيموس السفارة الأخيرة التي أرسلها إليه القنصل مارسيلوس يقترح فيها تجديد التحالف الذي كان قائماً بين روما وجدّه؟

بسؤال مبعوث مارسيلوس عن أخبار اليوم في كان. إن هذه بالتأكيد إهانة لن تنسى بسهولة، ولم تستطع الهيروفانتيد أن تخفي بادرة من نفاذ الصبر: - ولكن الأوصياء، الخمسة عشر وصياً الذين فرضوا على هذا الشاب الأحمق، ماذا يفعلون؟ أين هم؟

- لقد ذهب العديد منهم إلى المنفى الطوعي أو انتحروا بدلاً من تحمل الكثير من النزوات البغيضة. الآخرون لا يجروون على الكلام. في الواقع إن أندرنودور الغليظ الجلد هو الذي يحكم، بينما يترك هيرونيموس ليقوم بالمناصب الخارجية التي ترضي غروره.

- أيها العظيم زيوس ما الذي تفكر فيه؟ لم يقل دوركاس شيئاً آخر. وكاد يندم على أنه سمح لنفسه أن يستعيد أمام عيني براكسيلا صورة ما كان يراه كل يوم. ومع ذلك فقد خفف عمداً من بعض تجاوزات الشاب هيرونيوموس والأميرتين. أما الآن فقد كان صامتاً. وبدت الهيروفانتيد ورأسها بين يديها غارقة في تأمل عميق. لا شك في أنها كانت تفكر في كيفية الدفاع عن المدينة، وكيف تحمها من التهديد المزدوج الذي تواجهه الآن. لقد تحدثنا معاً مرات عديدة، في أيام السلم، عن هذه الأمور، ورفعنا قناع المستقبل بيد جريئة! ودائماً كانت نفس الفكرة، ونفس الحماسة تقترح عليهم نفس القرارات: التضحية بأنفسهم كلهم، جسداً وروحاً، من أجل خير بلادهم.

هل تغيرت الهيروفانتيد منذ ذلك الحين؟ بالتأكيد لم يعتقد دوركاس ذلك. لكن كم كانت مختلفة عما كان يتوقعه! ماذا كانت ستقول له الآن؟ كان صمت الهايبوجيوم العظيم يخيم عليهما؛ وكان الضوء الأبيض يلفهما. ومقابل القبر حيث كانا جالسين، كان أحد مذابح بيرسيفوني قد نشر حجره الرمادي العاري؛ وكان هو نفسه المذبح الذي جردت فيه براكسيلا ذات يوم الدم من تاج الخشخاش... ورفعت رأسها أخيراً، وأطلقت كلمة واحدة من فمها ببطء: (دوركاس!) إذن فقد كان هو الذي كانت تناديه، هو الذي كانت تفكر فيه. ارتجف.

-دوركاس، سامحني، سامحني على حديثي معك عن نفسك. لكني أود أن أطلب منك طلباً. أنا أعلم أنك شجاعاً، وأن جرأتك قد تصل إلى حد التهور. وفي هذا القصر، حيث ترتكب جرائم كثيرة كل يوم، لست في مأمن يا دوركاس، فنظر إليها هذه المرة في ذهول وحسرة: (براكسيلا، قال: (إن حياتي لا يجب أن تكون ذات قيمة في وقت كهذا) ثم استرد نفسه وقال بلطف أكثر: (إن من مصلحة المدينة، ومن مصلحة سرقوسة الحبيبة أن أقول لك هذا الكلام. إذا كان لا بد من الموت، فليكن ذلك على الأقل دفاعاً عنها، ولكن ليس بإرادة طائشة مستبدة!)

فأشاح بنظره بعيداً حتى لا يلين لها؛ واستطردت قائلة: (عدني بأنك ستغادر القصر وتستقر في إيبولي. صدقني أن ذلك هو المكان الذي تنتمي إليه؛ ستكون في مأمن من نزوات الطاغية وستكون قادراً على منع وصد الهجمات بسهولة أكبر. يجب أن يتم ذلك، يجب أن يتم قبل وصول هيموقراط وإبيسيديس. أما بعد ذلك فسيكون قد فات الأوان، لأن همهم الأول بلا شك سيكون الاستيلاء على هذا المنصب الهام بأنفسهم. أنت على حق". إن أحياء "الايوبول"¹¹⁶ هي بالفعل مفتاح الدفاع عن المدينة. سأستقر هناك غداً، في حين أن هيرونيوموس لم يفكر بعد في سحب

¹¹⁶ Les Épiholes، وتعني [الأحياء] فوق المدينة) هي منطقة في سرقوسة تقع على مرتفعات المدينة. وهي تتألف من عدة تلال، وهو ما يفسر صيغة الجمع.

السلطات التي منحني إياها هيرون. وقفت براكسيلا. وشعر دوركاس بهدوء كبير يستقر فوقها.

- تعال، اتبعني"، همست قريبة من فمه، وقادته إلى سفح مذبح بيرسيفوني الرمادي العاري. وهناك جعلته يسجد إلى جانبا، وصوتها النابض بالحياة، الذي كثيراً ما حرك دوركاس حتى النخاع، دوى مرة أخرى تحت أقبية المدينة الجنائزية: "أيتها الآلهة، أحمل إليك دوركاس. يركع دوركاس بجانبك أمام جلالتك العليا. خذينا كلينا، اقبلي التضحية بحياتنا معاً، دعينا نموت معاً من أجل خلاص وطننا المشترك. توقفت، ثم تابعت بصوت أكثر حيوية:

- أيتها الإلهة، يا من تسافرين في دورة الكون المضيفة والمظلمة بالتناوب، أنتِ تقرئين أعماق قلوبنا، لأنه لا شيء يمكن أن يخفى عليك، يا صاحبة السيادة المهيبة على أقدارنا! أنتِ وحدك التي اخترقت قلقنا: أنتِ تعلمين أنني أحب دوركاس وأن دوركاس يحبني. أنتِ تعلمين أنني أحب دوركاس بحب عميق لا يمكن التغلب عليه.

رَأَى دُمُوعِي، وَدَمْعِي، وَنَشْوَتِي، إنني أحب دوركاس أكثر من سكرة النور، وأكثر من جمال الأمواج الخالد. إنني أحبه حباً شديداً لدرجة أنني لا أستطيع أن أكتفم عنه سري، وأنتِ ترين يا إلهتي أنني جئت لأعترف له بهذا السر عند قدميك. كنت أود أن أموت مئات المرات على أن أبوح له بحبي وجهاً لوجه، لو لم تكوني أنتِ حامية لنا. لكنك أنتِ حاميتي وحافظتنا؛ لن

تسمحي أبدأ لأي شيء دنس، أي شيء مدنس، أن يحول بيننا. بل على العكس، سترفعين إرادتنا إلى ذروة التضحية التي نقدمها لك هنا، في مدينتك الجوفية يا بيرسيفونية، مثل خطيبين للموت. وسوف تعطينا قوة جديدة لنحافظ على نفس الحكمة في معرفة حبنا التي كانت لنا في حالة جهلنا، عندما ظن كل منا أنه وحده في الشر الذي يستهلكنا معاً.

"أيتها الآلهة! اسمعي تهنيدات دوركاس وهي تنفلت، ثقيلة ومتشنجة، من صدره كالسيل الذي لا ينقطع. استقبلي تهنيدات حبيبي هذه، أيها الآلهة! تقبلهم في حضنك، في مسرات روحك الحميمة، دموع الحب المقدسة التي لا يمكن أن يتلقاها حضن ولا روح المحب الذي وضعتِ ختمك عليه..."

الفصل الثالث

كان إبيرونيموس لا يزال نائماً عندما دخل القصر هيموكرات وإبيسيدس اللذان كانا قد نزلا عند الفجر من تروجيلوس إلى شمال المدينة. لم يكن هيموكرات قد شاخ في سنوات منفاه، فقد كان لا يزال نفس الجندي الذي لفحته شمس إفريقية، بعينين شاحبتين في وجه أسمر اللون وسلوك بارد وجريء. أما إبيسيد فبدا وكأنه مصنوع من بقايا جسد أخيه؛ وكان قصير القامة، محايد الفراسة، متناثر الشعر، يكسو جبينه خجل وحياء. وبدا خلفه هيموكرات وكأنه أحد رجال البلاط أكثر من كونه حليفاً له؛ وكان يمشي على خطاه ويقلد سلوكه. وعندما أدخلوا إلى الغرفة التي تسبق مباشرة حجرة نوم الأمير الشاب، ألقى هيموكرات نظرة سريعة على ما يحيط بها. فرأى كم كان كل شيء أكثر فخامة وثراءً مما كان عليه في قصر أورتيجا الذي كان يسكنه هيرون. ولم يكن مندهشاً. فقد كان يعلم مسبقاً، عندما عاد إلى سرقوسة، كم كان تلميذه السابق فاسداً. فالكبرياء والقسوة والشهوة قد فعلت فعلتها كلها. كل شيء هنا كان ينطق بالنعومة والشهوة. لقد كانت المقاعد مصممة بطريقة تجعل من المستحيل الجلوس عليها إلا مستلقياً؛ أما اللوحات والمنحوتات فلم تكن تصور سوى مشاهد أو صور خليعة. وفي الخلف، كانت هناك مجموعة منفذة بشكل رائع تظهر عناقاً خبيثاً بين سيلينوس وجنية صغيرة، وكان الرجل العجوز والطفل

المتشبهان بقمة صخرة، وقد اعتدلت جذوعهما بنفس الحركة المتشنجة؛ وكانت الحياة فمهما تفيض بالحياة حتى أنك تشعر بنخاعهما يسيل من عمودهما الفقري الرخامي. وكان هناك أيضاً تمثال هيرونيموس في صورة باخوس وتمثال كالون في صورة جانيميد، وكنا متقابلين في زاويتي الغرفة. أما هيرونيموس فقد وقف مرتدياً ثوباً خفيفاً يخفي عيوب جسمه من اللدونة؛ وأما كالون فقد كان عارياً مثيراً للإعجاب لا يقارن به إلا أنقى الروائع التي أوحى بها براكسيتيلس¹¹⁷ جمال الأفيبس¹¹⁸ الطّاغي! واحتلت لوحة شمعية غريبة الجدار الأوسط بأكمله، وهي تستحضر قصة باسيفاي¹¹⁹. إناء من البورفيرى مثبت على مخالب ذهبية يحتوي في جوانبه بشفافية على الحب الهائل لحوريات العملاق وحوريات إيتنيديس.

- وتدمر إيبسيدس خائفاً: (إن الملك بطيء في المجيء).

- قال هيموكرات رافعاً كتفيه: (ما الذي يهم؟) ولكن الستار رفع وظهر هيرونيموس. كان بمفرده، ورغم حميمية الساعة، كان قد ارتدى الإكليل بالفعل. وتقدم ببطاء وابتسم للرجلين ابتسامة باردة متجهة نحوهما.

¹¹⁷ Praxitèle براكسيتيلس باليونانية القديمة، المولود حوالي عام 395 قبل الميلاد، والمتوفى قبل عام 326 قبل الميلاد، أحد أشهر النحاتين اليونانيين في العصور القديمة.

¹¹⁸ des éphèbes, éphèbe المراهق الذي يبلغ سن البلوغ والذي كان يخضع لالتزامات معينة في اليونان القديمة .

¹¹⁹ l'histoire de Pasiphaë كانت باسيفاي ("التي تشرق للجميع") زوجة الملك مينوس ملك كريت وأم المينوتور الخفيف (نصف ثور ونصف رجل) في الأساطير الإغريقية.

- قال: "وأخيراً جئت لتساعدني على التخلص من أعدائي." وشرح على الفور رغباته التي كانت لديه، الرغبة في لعب دور الفاتح. في اليوم التالي كنا سنغادر إلى ليونتيوم، لنستعرض قوات الجنرال دينوميديس الذي أرسل إلى هناك لمواجهة قوات مارسيلوس. لم يكن بإمكان ليونتيوم بوديانها الخصبة المزروعة بالحبوب أن تصبح مربية روما ومزودة لها، بينما كانت سرقوسة عشيقتهما لأكثر من قرن من الزمان. لقد كان لا بد من إعادة هذه الهيمنة بطريقة لا تزعزع: "بالطبع!" قال هيموكرات: "بالطبع! ولكن هل استشرت الأوصياء، الأوصياء الكثيرين الذين فرضهم عليك هيرون؟ انتصب هيرونيموس الذي كان مستلقياً على ركبتيه: - لا فائدة! لقد بلغت الخامسة عشرة بالأمس. كان يوم أمس عيد ميلادي، وقضيته في شرب نبيذ بيبلوس مع صديقي كالون. ولكني قمت أولاً بعمل سيادي، وتخلصت من أوصيائي، فقتلوا اثنين أو ثلاثة منهم ممن كان يشك في إخلاصهم. وخالك أندرنودور؟ غامر إبسيد آه، لقد كنا أنا وهو دائماً على اتفاق. أنت تعلم أنه يكره الرومان. وسيقوم بنفسه بحراسة القلعة أثناء غيابنا، وسيقوم دوركاس بحراسة بقية المدينة من حصن يوريال حيث استقر بالفعل. آه!" سأل هيموكرات: "هل تركت دوركاس يتولى منصبه القديم؟ -تماماً، وبكل سرور لأن وجوده كان يزعجني في القصر. ونظر إلى هيموكرات في غطرسة. ولكن عيني الأفريقي الصافيتين أمسكتا بنظراته، فأشاح الطاغية الشاب بنظره بعيداً: لقد وجد سيده. فأجاب هيموكرات:

(سنتحدث عن ذلك فيما بعد). أما الآن، فسأقوم أنا وإبسيديس بإعداد كل شيء للبعثة. كيف تنويان الوصول إلى ليونتيوم؟. على ظهور الخيل. إنها ليست مسافة طويلة: حوالي ثلاثين ميلا رومانيا على الأكثر. هذا سيعطيني راحة من ركوب العربات. نهض وعاد إلى غرفته، وسمعنا صوت كالون المألوف وهو يقول:

-إذن، هل الأمر خطير؟ " فأجابه هيرونيوموس: "ما هي المخاطرة؟ إن هيموكرات وإبسيكلوس ذاهبان معي؛ وإلى جانب ذلك، ستكون أنت هناك لحمايتي! وفي اليوم التالي، كانت الشمس قد أشرقت ساطعة على سرقوسة. وتحت أحد أقواس الهيكسبيل شوهد الملك وحاشيته، وقد بلغ من كثرتهم أن آثار أقدام الخيول في غبار الطريق أثارت سحابة بيضاء سدت الهواء، شوهدوا وهم يتعدون: قالت جوليس (وكانت قد قطعت هذه المسافة لمشاهدة الموكب): (لو كنت أنا الطاغية الشاب لما رحلت في سلام. هل سبق لأي أمير أن ذهب إلى الحرب دون أن يقدم هدية للآلهة؟ -بواسطة هيرميس! - أجاب تاجر زيتون، - هيرونيوموس يرى أن الآلهة لا تحتاج إلى هدايا. المال أفضل بكثير في يديه. وهذه ليست حربًا حقيقية، بل مجرد خدعة. فبمجرد أن يتم استعراض قواته استعراضًا روتينيًا، سيعود الطاغية. والويل لمن لا يحضر ليصفق له. وقد ظهر شكل أورثون الأصفر بين الجموع. ومن ذا الذي لا يصفق للأمير شاب شجاع كهذا، أليس هذا أفضل رد على الافتراءات التي تروج ضده؟ لقد كان في وسعه أن يبقى

هادئاً في قصره مستمتعاً بكل الملذات، ولكنه بدلاً من ذلك يذهب لنجدة أحد ممتلكاته المهتدة.

-كما تشاء!" قال التاجر. لنأمل على الأقل أنه بدفاعه عن ليونتيوم ضد الرومان لا يسلمها إلى قرطاج!... ومع ذلك، يبدو أن رحيل الطاغية قد خفف من توتر الجميع. وعادت فجأة بهجة الشعب التي خفتت منذ موت هيرون إلى الظهور، وكان يوم عيد عندما كان الناس في الشوارع وفي الميادين وعلى طول الميناءين يمشون بحرية ويتجاذبون أطراف الحديث ويتنفسون بلا خوف. وقبل المساء هبت عاصفة عنيفة؛ ولقت المدينة سحابة حمراء؛ وفوق رأس بليميريم كانت الصواعق تتوالى بسرعة مخيفة تضيء البحر الذي بدت أمواجه المتلاطمة سوداء. خلت المنزهات في لحظة، وأسرع الجميع إلى منازلهم.

كان كل شيء نائماً لفترة طويلة، عندما سُمع على مرتفعات هيكسابيل صوت عدوٍ محموم لفرسٍ كان أشبه بنافورة ماء عبرت تيشي وأتشرادين في اندفاعة واحدة واستقرت أمام القلعة، على عتبة أورتيجا. أُعطيت كلمة السر وفتحت البوابات. وهرول كالون منهكاً ومدخناً إلى أندرنودور. كان هيرونيوموس قد قُتل للتو. لقد تم ذلك في طرفة عين، وبسرعة لم يلاحظها أحد حتى رأوا الملك الشاب ملقى على الأرض مضرجاً بالدماء. عند وصوله إلى ليونتيوم، كان عليه أن يترجل عن حصانه ليعبر شارعاً ضيقاً ومنحدرًا للغاية يؤدي إلى المنتدى، حيث كان عليه أن ينضم إلى فرق الجنود الذين

يقودهم الجنرال دينوميديس. وتبعه جلساؤه، ولكن عندما توقف أحدهم ليربط حذاءه، بقي هيرونيemos وحيداً لثانية واحدة. ثم خرج أحدهم من بيت مجاور وانقض عليه: طعنة واحدة واستسلم طاغية سرقوسة الجديد للشبح، إن المدينة ستنتفض وتطالب باستقلالها بمجرد أن تسمع بموت هيرونيemos؛ يجب أولاً أن نؤمن مخزن الطعام، فالشعب الجائع سرعان ما يخضع، ولم يقل كالون المنهك شيئاً آخر. كان مستلقياً على سجادة وذراعاه العاريتان مربوطتان فوق رأسه، وتحت كلاميته الحمراء يمكنك أن ترى قلبه يخفق في صدره. هل كان ذلك بسبب سرعة السباق، أم بسبب حزنه لفقدانه الرفيق الملكي في ألعابه وملذاته؟ لم يقلق أندرنودوروس. وأرجأ دموع العبت إلى اليوم التالي وركض ليحذر الهوبليتس. ولكن في منتصف الليل استيقظت المدينة على وقع الصدمة. ووصل هيموكرات وإبيسيديس بدورهما، وترجلا من ثياب هيرونيemos فوق رأسيهما، وكانت أعلاماً دامية يلوحان بها في نصف ظلام تلك الليلة المشؤومة. ومن نوافذ المنازل، وعلى شرفات الأسطح، وفي الشارع، ظهر السكان خائفين وقلقين، لا يعرفون بعد هل يلعنون أو يمدحون القدر الذي خلصهم من الطغيان. لقد كانت لحظة قلق، عندما كانت روح سرقوسة تطفو في الفراغ، غير واثقة، مثل طائر هرب من قفصه المفتوح ولا يعرف أين يحط.

الفصل الرابع

كان الفوران في ذروته. كان أندرنودور المتهم بالتطلع إلى الطغيان قد أُعدِم بوحشية أثناء ذهابه إلى تيموليونتيوم لشرح سلوكه. وعانت الأميرتان اللتان لجأتا إلى مذابح قصرهما السرية من نفس المصير، رغم أنهما توسلتا وتضرعتا للرحمة باسم أبيهما هيرون الذي كان يُجَلّ ذكراه. ولكن ذكرى فضائل سلفهم هي التي جعلت رذائل أحفاده أكثر بغيضاً لدى الجماهير. لقد أقسموا على إبادة سلالة الطغاة بأكملها وقرروا أن تراق دماؤهم حتى آخر قطرة. ولكن أي يد ضربت هيرونيوموس؟ هذه المرة أيضاً، كان من المستحيل معرفة كيف دبّرت المؤامرة؛ فقد ألقى السرقوسيون اللوم على الرومان والقرطاجيين بدورهم. وفي خضم هذا الغموض، تشكلت الأحزاب وانقسم السكان إلى معسكرين: فجميع الجنود كانوا يكرهون اسم روما، وأغلبية السكان كانوا يعلنون نفس الكراهية لقرطاج. استغلّ هيموقراط وإيسيديس الاضطرابات العامة ليعينوا أنفسهم حكاماً على المدينة ويدخلوا قواتهم إلى المدينة. كان بإمكاننا الآن أن نرى شعارات المحاربين من الأفارقة، الفرسان ذوي الأعراف الخشنة، يختلطون بشعارات النصر المجنحة المرسومة على المقاييس. واستمر مارسيلوس في إرسال الرسالة تلو الأخرى إلى سرقوسة لينفي النوايا الحربية التي كانت تنسب إليه، وليعرض تحالف روما مرة أخرى. ولكن كان لا بد من اتخاذ قرار. ومضى

الوقت وازدادت الفوضى والاضطراب، ودُعي إلى اجتماع الشعب، وفي ذلك اليوم ومنذ الصباح الباكر كان أورثون يروح ويحيء في ساحة التيموليونتيوم الضخمة. وكان كل من يراقب تحركاته يرى أنه كان يعمل لحساب هيموقراط. ألم تكن هذه هي الطريقة المثلى للانتقام من دوركاس، الذي كان يعارض دائماً سياسة هيرونيوموس الأفريقية؟ وعلاوة على ذلك، كان القرطاجني كريماً، ولم يكن يفكر كثيراً في مكافأة الخدمات المقدمة. وإذا كان هو وإبيسيديس قد عُيِّنا في منصب الممدوحين، فإن ذلك يرجع إلى حد كبير إلى المناورات الماهرة التي قام بها الصائغ. أما الآن فقد كان الأمر يتعلق بكسب معركة أكبر وضمان تفوق قرطاج في سرقوسة مرة واحدة وإلى الأبد. وصلنا شيئاً فشيئاً إلى التيموليونتيوم. فمذ سن السادسة عشرة، كان لكل مواطن الحق في المشاركة في المناظرات. وكان بوسعك أن ترى الشيوخ والشبان يتدافعون فيما بينهم بنفس الحماس المتلهف. وهنا كان السرقوسيون قبل ذلك ببضع سنوات قد نفوا هيموقراط، أي قبل سنوات قليلة من ذلك الوقت، ولجأوا إلى البتالية.¹²⁰

كيف تغيرت الأمور منذ ذلك الحين! يبدو أنه بفقدان الملك الصالح هيرون فقد الشعب إحساسه بالحرية، ولم يعد يعرف كيف يدافع عنها بعد أن تُركوا لأجهزتهم الخاصة. ولكن من على المنصة كانت الخطب تتلو الخطب.

¹²⁰ (Pétalisme العصور القديمة) الحكم الشعبي الذي حكم به السراقوسيون بالنفي، لمدة خمس سنوات، على أولئك الذين بدت سلطتهم خطرة على الحرية العامة من مواطنيهم.

وكان القاضي أبولونيدس قد أخذ دوره في الكلام، وأصغى إليه الناس، إذ لم يكن يسمح لنفسه بأن يُستخف به. وتكلم وهو يميل قليلاً نحو الشعب؛ واهتز صوته قائلاً: "لم يحدث قط أن كانت دولة قريبة من خلاصها أو خرابها إلى هذا الحد. وبالفعل، لو أنكم جميعاً اعتنقتم بالإجماع الجانب الروماني أو القرطاجني لظهر السلام بشكل سحري داخل أسواركم. ولكن هناك خلاف بينكم، لدرجة أن الحرب التي يخوضها القرطاجنيون والرومان يمثل هذا العنف لن تكون بأي حال من الأحوال أقل شراسة من الحرب الداخلية التي تهددكم، لأن داخل أسوار المدينة نفسها لكل طرف قواته وأسلحته وقواده. قد تتساءلون أي تحالف سيكون الأكثر فائدة من بين التحالفين؟ هذا السؤال، مهما كانت أهميته، ليس له سوى أهمية ثانوية:

أن يكون له إلا شعور واحد، يجب أن يكون هذا هو هدف كل الجهود. ومع ذلك فإن سلطة هيرون يجب أن يكون لها في الذاكرة وزن أكبر من سلطة هيرونيموس عندما يتعلق الأمر باختيار الحلفاء؛ ألا يجب أن تكون صداقة روما التي كانت منذ خمسين سنة اختباراً سعيداً مفضلة على صداقة أمة غير مؤكدة اليوم وكانت خائنة في يوم من الأيام؟ وأخيراً، هناك اعتبار حاسم آخر وهو أنكم تستطيعون أن ترفضوا أي اتفاق مع القرطاجيين دون أن تخوضوا معهم حرباً، أما مع الرومان فيجب أن يكون لكم في الحال إما السلم وإما الحرب. اختاروا!" كانت هناك ضجة كبيرة.

كانت كلمات أبولونيدس قد أحكمت المعضلة التي كان يتصارع فيها الرأي. واندلعت مناقشات عنيفة بين الجماهير. وكان أورثون يركض من مجموعة إلى أخرى، ويثير حماسة أنصار قرطاج ويحاول تحويل أولئك الذين لم يحسموا أمرهم بعد إلى مبشرين. لكنه لم يلقَ دائماً استقبلاً حسناً. إن هيبة روما الثابتة التي لا تتزعزع، الدعم ضد التدخلات الأفريقية، وكان هذا بالنسبة للكثيرين - بالنسبة للنخبة الحساسة التي أصرت على تسمية الأفرقة "برابرة" - مفتاح نجاح حملته. كان كافياً لترجيح كفة الميزان في الاتجاه الآخر. كان اسمي مارسيلوس و حنبلع يدويان في الهواء، مدويين كأصوات، مثل سيفين يعبران فوق آلاف الرؤوس. وتخللت الكلمات إيماءات التهديد والعاطفة. اندلعت معارك الملاكمة من قريب إلى قريب. وتم تبادل إطلاق النار. ومنذ ذلك الحين أصبح العراك عاماً: كان الناس يتقاتلون أو كانوا يتقاتلون في ساحة سرقوسة العامة الهائلة؛ وكانوا يتقاتلون بحماسة وحشية دون نظام، ودون تمييز، ودون اهتمام بمكان سقوط الضربات. كانت الدماء تنزف من الوجوه المتشنجة؛ وكانت الدماء تنزف من القبضات المضمومة والأفواه المفتوحة؛ وكان صوت الضرب بالأطراف واصطدام الأكتاف الغاضبة يحل محل تناغم الكلمات الذي كان مميزاً من قبل. تحت سماء صافية جداً، مما جعل أدنى حركات الجموع أكثر وضوحاً، وأمام قبر تيموليون المتوج بالورود، وبين تمثالي الوفاق والوفرة اللذين كانت وجوههما الوداعة تبتسم للناس وهم

يتقاتلون بشراسة وحماس. وكانت هناك بالفعل فجوات بين الجباه السوداء المتلاصقة المترابطة؛ وبين الأجساد المتزاحمة المحتشدة كانت هناك مساحة ضيقة هنا وهناك لجثة... ومنذ أن ترجل أبولونيدس من على المنصة كانت المنصة خالية من الناس، وفجأة ظهرت قامة أرخميدس الطويلة يرافقها دوركاس. وبسط ذراعيه، وبدا كما لو أن صورة وطنه قد ظهرت أمام الجماهير. ومنذ وفاة هيرون ومذبحة العائلة المالكة انزوى العالم اللامع في أورتيجيا المهجورة. وكان قد شاخ قبل أن يلاحظه أحد، وشكلت لحيته التي أصبحت فضية اللون وتبدو الآن أرق من الفضة هالة مضيئة حول فمه. وكان في فقر ثيابه المتعمد، وفي بساطة إيماءاته الموقرة، يستحضر أزمنة الحرية الجميلة؛ وكان يريح عينيه من كثير من الترف الوقح، وكثير من الفجور المخزي الذي كان يعرض، في هيرونيوموس الشاب والأميرتين. وبيده الممدودة على الجموع الهادئة فجأة، تحدث أرخميدس إلى السرقوسيين كما لو كانوا أولاده:

"هل من الممكن أن يكون الأمر قد وصل إلى هذا الحد؟ أن السرقوسيين يقاتلون من أجل شيء آخر غير الدفاع عن حقوقهم؟ عندما ذهبت بينكم ظننت أنني لن أسمع من شفاهكم إلا كلمة واحدة فقط: سرقوسة! وبدلاً من ذلك، أسمع الأغورا تدوي باسمين هما الأكثر رعباً لقضية السرقوسيين: اسمي روما وقرطاج! هل تظنون حقاً أنه من الضروري أن تسلموا أنفسكم للحماية المذلة لأجنبي وتضعوا أقدس مصالح ووطنكم بين

يديه، وتحت حمايته؟ إنكم تدعون أنكم هيرون وتريدون أن تفرضوا عليكم تحالف روما. ولكن ماذا فعل هيرون، أسألکم، إن لم يعمل بحذر، بل بلا كلل لتحرير المدينة من كل جزية؟ ألم يكن أسعد يوم في عهده هو اليوم الذي استطاع فيه أن يعلن لشعبه أن آخر ضريبة قد رُفعت أخيراً، شاكرًا الآلهة؟

في ذلك اليوم، وفي حبه العميق للعدالة، وفي شعوره بأنه قد أنجز مهمته، كان على وشك أن يضع تاجه على مذبح زيوس ويمنح شعبه حريته. فماذا عساه يقول، بعد أن نال هذه الحرية من أجلكم، أن يراكم تستغلونها بهذا الشكل البائس؟ أجل، ماذا كان سيقول، أيها المولى هيرون النبيل، أن يرى المدينة وقد سلمت إلى عصابات من المرتزقة الذين يغزونها، وأن تجدوا أنفسكم وقد تغيرتم إلى درجة أن الغالين الذين يعملون لحساب قرطاج أو السيلتبيرين¹²¹ الذين يعملون لحساب روما يملون عليكم إرادتهم وينفثون فيكم أنفاسهم من خلالكم؟ آه! فبدلاً من أن تبيدوا بعضكم بعضاً لتعرفوا ما إذا كان عليكم أن تلعبوا في يد هذا الفريق أو ذاك من الأعداء، فكروا في أن تعودوا إلى أنفسكم من جديد، وابدأوا بمطاردة كل هذه الغوغاء التي تفرقكم خارج أسواركم. أقول لكم بكل يقين: إن الهدوء لن يعود إلى سرقوسة ما دمتم تقمعون أعداءكم. ما دمتم تتحملون هذه

¹²¹Celtibériens يشير مصطلح السيلتبيرين بشكل عام إلى الشعوب السلتية أو "السلتية" في شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد أطلق عليهم الجغرافيون اليونانيون هذه التسمية

العناصر الأجنبية في المدينة وفي الجيش. لماذا تترددون؟ هل احتمال الحرب هو ما يخيفكم؟ لا يمكنني أن أصدق ذلك: أليس من المتعارف عليه بين جميع الشعوب الدورانية أن يعتبروا السلام ترفاً يتم الحصول عليه بثمن تضحيات كثيرة، والحرب ضرورة قاتلة؟ على أي حال، أكرر لكم: إن أي خطر قد يهددكم من الخارج سيكون أفضل من اضطرابات الحرب الأهلية، ومن هذا الصراع بين الأشقاء الذي أراق دماءكم والذي سيقضي عليكم قريباً.

وسكت أرخميدس، ولكنه ظل واقفاً على المنصة يتأمل الجموع. وما كان لنفحة من الهواء النقي الذي مر في الجو وبدد الغبار غير الصحي أن يكون لها أثر أكثر فعالية من كلمات الشيخ الكبير المرتجف التي دعا بها السرقوسيين إلى العودة إلى حبهم القديم والصالح للحرية. لقد حدث التحول فجأة وبدون انتقال، وبدون تردد ظاهر. وفي نفس اللحظة، عادت كل الأفواه التي كانت تلعن بعضها بعضاً إلى الانسجام من جديد، وعلى التيموليونتيوم الهائل، أمام قبر المدافع الصلب عن الوطن، بين تمثالي الوفاق والوفرة المتناغمين، دوى صياح واحد تردد صداه من حي إلى حي من أحياء سرقوسة إلى أقصى حدود سرقوسة على جباه المنتصرين الصغار المكلفة بالغار:

"لا نريد مارسيلوس ولا حنبعل، ولا روما ولا قرطاج، نريد أن نكون أسياد أنفسنا ونحتفظ بحرياتنا سليمة! وبدا الحصان المجنح الذهبي، المتكبر،

غير المروض، الذي لا يروض، والذي ترتجف خياشيمه، وفمه الذي لم يمسه كبح، الحصان المجنح الذهبي، شعار الكبرياء الذي لم يخضع أبداً، يحلق في سماء المدينة بمزيد من المجد. كان اليوم قد انتهى ثلثا النهار بالفعل، ولكن كان لا يزال هناك وقت كافٍ لتنفيذ القرارات التي اتخذت للتو. واندفع الناس إلى الميناءين حيث كانت عصابت من العمال العالميين يفرغون البضائع، عراة الأسلحة، وإلى أورتيجيا، أمام القلعة حيث كان الجنود واقفين؛ وإلى تجار أكرادين الأثرياء؛ وإلى فيلات تيتشي الفخمة الجاثمة بين أشجار المصطكي المتموجة. وفي كل مكان، بفارغ الصبر الذي لا يقبل التهاون طُرحت نفس الأسئلة:

"هل أنت من مواطني سرقوسة؟ هل يحق لك المشاركة في مداولات المجلس؟ لا؟ إذن اذهب إلى منزلك لا حاجة لنا بك! وإذا اعترضوا أو تأخروا طُردوا بالقوة بالرماح في ظهورهم. وسرعان ما بدأت الهجرة الجماعية. وعلى طول الطرق الواسعة كنت ترى العربات الغارقة في الغبار، والمشاة المحملين بالأثقال يشقون طريقهم ببطء على طول الحقول، بين الأسيجة المزهرة بأزهار البردقوش.

وعندما كانت الشمس تغرب على مياه نهر تروجيلوس، كانت المدينة تتطهر من كل العناصر التي كانت تثير الفتنة داخلها. وقال ثيوفراستوس لدوركاس، الذي ذهب معه إلى حصن يوريالوس: "هذا أول شيء عاقل

يفعله الشعب منذ موت الملك العظيم هيرون، ولكن الوقت قد حان: كان ذهب سرقوسة ينتقل تدريجياً إلى أيدي الأجانب، وكانت روحها تخضع لأشد المؤثرات الضارة، وحتى شبابها كانوا يسمحون لأنفسهم بأن تغرهم نساء من بعيد لا يسعون إلا إلى تبديد شجاعتهم. نعم يا دوركاس، قد يكون الشر أعمق مما نظن؛ ولكن المهم أن الدودة قد استخرجت من الثمرة.

الفصل الخامس

كانت براكسيلا وحيدة تحت رواق نافورة أريثوسا. كانت تعرف أن الأزمة قد اقتربت من نهايتها... في هذه اللحظة بالذات في سهل سيانيا السعيد، بالقرب من معبد زيوس الأولمبي، كان سفير مارسيلوس وقضاة سرقوسة يقررون معاً السلام أو الحرب. ولعبت هذه اللعبة الحاسمة على سوء التفاهم والأكاذيب. كانت الأمور في ليونتيوم قد انقلبت فجأة إلى مأساة؛ فقد استولى الرومان فجأة على المدينة التي طالما طمعوا فيها، واستغل هييموقراط الموقف ليزرع الفتنة وينشر أخباراً كاذبة ضدهم، معلناً أنهم ذبحوا جميع قوات سرقوسة هناك، بينما كان هو نفسه قد ذبح الرومان على ضفاف نهر هيللا. استشاط الطرفان غضباً. وكان لا بد من الاعتذار أو سفك الدماء. هل يمكن أن يكون سلاماً، هل يمكن أن تكون حرباً؟ تساءلت براكسيلا بقلق. كل ما كان يجول في ذهنها حول هذا الموضوع منذ بوادر الاضطرابات الأولى، كل ما كان يندر بالخطر والتهديدات الغامضة والحدس المشوش، يتبادر إلى ذهنها الآن بوضوح لوحة جدارية مضاءة بنور الشمس على جدران مبنى. السلام؟ الحرب؟ ومعهما، مع واحد أو آخر من هذه الأشياء، تغير كل شيء فجأة في المدينة، تغير كل شيء في قلوب الرجال، في مصائر النساء، في مستقبل الأطفال. الحرب؟ لم ترها قط إلا في أحلامها. فمنذ أن دخلت الرواق المقدس وهي في الخامسة عشرة من

عمرها لتأخذ حجاب العذراء، لم يصل إلى أذنها حتى صوت المعركة البعيد. ومع ذلك ففي اليوم الذي لمسها فيه صاحب الاسم على جبينها وهو يلفها بعصابة العينين، قال لها هذه الكلمات "براكسيلا ابنة ثيمينتيس، مصير المدينة بين يديك. احرسى وصلي ليلاً ونهاراً مع رفاقك؛ عسى أن تتأثر برسيفانيا التي لا يخشى اسمها إلا الله بتوسلاتك؛ عسى أن تحفظ مدينة سرقوسة النبيلة من ويلات الطاعون وويلات المجاعة ومفاجآت الحرب. ومن ذلك اليوم فصاعداً لم تتقاعس أبداً عن التضرع إلى الآلهة بحماسة؛ وفعلت مثلها رفيقاتها زينوفيلوس ذات الوجه المشرق، وأنتيليا ورهينيا، ونايس وميلتينا الأختان التوأمان، وديمو السمرء، وجلوس الشابة ذات الشعر الذهبي. لكنها الآن لم تعد قادرة على الصلاة. هناك، على قمة الأيبولس¹²²، محاطاً بالجسور المتحركة والخنادق، كان حصن يوريال يقف منعزلاً وبطولياً، مثل حارس يراقب، ينتظر وحده التأثير الهائل لجيش. كان دوركاس هناك، في أخطر موقع، مستعد للهجمات الأولى. وخلفها جبل وارتفع ثيمبريس إلى أعلى منحدراته الشهوانية والسماء تنبسط بلطف، مكونة منظرًا ثانيًا من الجبال والوديان التي تنحدر منها ظلال واسعة زرقاء رمادية اللون في تتابع، كم كان كل ذلك هادئاً لطيفاً! ولكن دوركاس لم يستمتع به، فقد كان منعزلاً في عش النسربين السماء والأرض، بعيداً عن كل عين، بعيداً عن كل شعاع، بعيداً عن الحياة ...

¹²²Épipoles (باليونانية)، وتعني [الأحياء] فوق المدينة) هي منطقة في سيراكيوز تقع على مرتفعات المدينة.

دوركاس، أفضل منها هي المترفقة التي كان محكوماً عليها بالتضحية. أفلتت تنهيدة من شفتي براكسيلا. فأشار إليها رئيس الكهنة ألا تأتي لمقابلته، بل أن تنتظره هناك عند بركة أريثوسا المقدسة حيث تسبح السمكة الفضية. كان هناك، علاوة على ذلك، أنه كان معتاداً على التحدث إليها. ودون أن يسرع، استمر في التقدم بين الأعمدة، في وقار، وجبينه مطأطئ. ولم يسع براكسيلا المنتصبه بلا حراك، وهي تعلم أنه يحمل معه الخبر العظيم، إلا أن تفصح عما كان يعذب روحها:

-حرب؟ الحرب؟ إنها الحرب مع روما، أليس كذلك؟ نعم، يقول صاحب الاسم المستعار أخيراً. إن المؤتمر الذي انعقد للتو لم يؤد إلا إلى تفاقم الصراع. لقد ألقيت الكثير من نيران الفتنة من كلا الجانبين حتى لا نفكر في إطفاء النار. من الأفضل أن نحمل السلاح على الفور. على الأقل هذا ما شعر به النواب من كلا الجانبين.

-للأسف!" قالت براكسيلا. نحن ذاهبون للقتال قريباً، ربما غداً؟
- هذا المساء، بلا شك، سيأتي مارسيلوس هذا المساء بالذات لفرض الحصار على المدينة. أبواب الأسوار مغلقة بالفعل. ويجري تنظيم الدفاعات في كل مكان. انتشر الخبر بين السكان بسرعة غير مسبوقة. نظرت الإيبونيموس بشغف إلى براكسيلا من خلال أشرعتها.

- لقد آن الأوان يا ابنتي أن تمارسي كهنتك بشكل أكثر فاعلية. لقد بدأ دور جديد لك: عليك أن تستنهضي شجاعة النساء اللاتي سيكون أزواجهن

على الأسوار، وأن تصلي من أجل من سيسلمون من النساء، ولا تتوقعي أن تنجي نفسك. قالت براكسيلا: "أنا لا أخشى الموت، فالموت مكافأة"، قال المتكلم: "الموت مكافأة؛ ولكي تنعمي به يجب أن تكوني قد استحققتيه. تشجعي إذن يا ابنتي! أعطِ الكاهنات الأخريات مثلاً عن القوة المعنوية، عن تلك الثقة في اللاهوت التي تمكّن النفس من أن تبقى صامدة فوق الأحداث الأرضية.

ولمس جبهتها بيده برفق بينما كانت جاثية على ركبتها. ثم فتح الباب المؤدي إلى المدينة على جانب الميناء. كان حشد كبير من الأطفال والنساء قد وصلوا إلى هناك بالفعل، قادمين لطلب مساعدة العذارى. التفت إيونيوموس إلى براكسيلا:

- يمكنك أن تدعهم يقتربون. أخبرهم جميعاً أن أرتميس التي لا تقهر ستحرسهم. وقفت براكسيلا في فتحة الرواق المقوسة. وعندما رأتها النساء والأطفال، أسرعوا نحوها. كانت بيضاء بالكامل عند مدخل هذا المكان المقدس، ورأسها محاط بدائرة ذهبية، وكانت تمثل للجموع فكرة الحماية الغامضة التي يلجأ إليها الأقل تديناً في أوقات الشدة والكرب.

وكانت أول من اقترب منها امرأة عجوز جداً كانت قد نزلت من مرتفعات بليميريم؛ وكانت تحمل قرباناً للإلهة، وكانت الزهور النضرة ترتعش في يديها المجعدة: (يا أنقى الناس) قالت لبراكسيلا: (أنت يا براكسيلا شابة، أنت لا تدركين عذاب الحرب الرهيب. لكنني أعرف. لقد مات أحبابي منذ زمن

بعيد، ومات قلبي أيضاً، والآن يمكن أن تسيل الدماء دون أن يزيد عدد المشيعين لي؛ ولكنني جئت لأصلي من أجل الآخرين، من أجل الأمهات، من أجل من أجل الأخوات، من أجل الزوجات...". كان صوتها يتهدج في حلقتها مع فواصل من الصمت، مثل ماء يجري على لوح بالٍ، وبدت عيناها أيضاً كالماء الخامل الذي لا لون له تنعكس فيها صورة الأشياء الخارجية فقط. لاحظت براكسيلا في جَفَيِّ الْعَجُوزِ الْمُقْفَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتْ كُلُّ دُمُوعِهِمَا ورأت نفسها في تلك العينين المائيتين فأرسلت رعشة في عمودها الفقري، وكأنما انتقلت إليها فجأة كل أحزان هذه الحياة المنتهية. قالت: "ستسمعك الآلهة". إن أفضل الصلوات هي تلك التي لا تكون مدفوعة بالعاطفة الأنانية، بل بما فيه خير الجميع، وأمام براكسيلا الرحيمة استمر الموكب. وتوالت الزوجات والأمهات والعشاق واحدة تلو الأخرى، كما قالت العجوز، ليوصوا بما هو أعز ما لديهم. بعضهن، دون أن يتكلمن، قبلن يد العجوز. وأخريات، بفيضان من الدموع، تحدثن عن آلامهن ووعودهن. جاءت فتاة شابة ذات جمال متناسق وكامل، لا بد أنها تنتهي بالولادة إلى الأسر الأولى في المدينة، جاءت بصوت منخفض تتوسل إلى براكسيلا أن تسمع نذرها: لقد وعدت أن تكرس نفسها لخدمة برسيفانيا إذا نجا خطيبها من حديد الرومان. قالت ذلك بصوت خفيض، دون اضطراب ظاهر، فظنت براكسيلا أنها أساءت السمع: تقولين إذا نجا خطيبك من حديد الرومان؟ ولكن بعد أن تضع الحرب أوزارها، فهل تتخلين عن الزواج

منه؟ فخجلت الفتاة الشابة خجلاً خافتاً: - أفضل أن أضحي بنفسي من أجله وأتركه حياً! أيتها الطاهرة، ألم تذوقى قط قوة الحب البطولية؟ وانسحبت وجبينها مزركش بالأمل، ومشى خفيف من الحماسة. وتبعها براكسيلا بعينها كأخت صغيرة لروحها، ولم يكن أمام الرواق إلا شخص واحد كان لا يزال ينتظر أمامه ويداه مقيدتان على وجهه. وكان شعرها الأشقر المزبد مغطى بشبكة شبكية ناعمة. أما فستانها الذي كان منسدلاً من عند الكتفين، فقد ترك بياض نحرها مكشوفاً. حزام مربوط أسفل الثديين يمسك بطيات القماش، ورفعت الشابة يديها عن وجهها، وأظهرت للراهب عينين صافيتين متقدتين؛ ولكنها قالت ببساطة:

- لقد جئت من أجل زوجي العزيز.

أنا أحبه كثيراً، لو تعلمون فقط! لا يمكن لأحد أن يتخيل الحنان اللامتناهي في قلبي. عليك أن تتخيل أحلى ما في العسل وأحر ما في الخمر؛ وعليك أيضاً أن تعرف الرجل الذي أوحى إليّ هذه العاطفة العظيمة في نفسي، ولا أظن أن هناك رجلاً آخر على وجه الأرض يستحق أن يكون محبوباً مثل زوجي العزيز.

وشبكت يديها معاً وأضافت:

- إنه لأمر فظيع أن أفكر أن الموت يمكن أن يأخذه مني. وهو متهور جداً وشجاع جداً. فبمجرد أن ظهرت تهديدات بالاضطرابات في المدينة، ذهب ليتولى أخطر المناصب دون أن ينتظر حتى أن يعينه أحد في هذا المنصب؛

والآن لا أراه إلا على فترات متباعدة، كما لو كنا عاشقين متخفين. ولكن يكفيني أن أعرف أنه على قيد الحياة، وأنه يتنفس. ما لا يمكنني تحمله هو فكرة فقدانه للأبد. أوه، ألن تفعلني؟ ستصلين من أجله، أنت التي ستصل صلواتك إلى أذن الآلهة مباشرة؛ ستقولين اسمه أمام المذبح صباحًا ومساءً، كل يوم. عديني، أتوسل إليك.

- قالت براكسيلا بلطف: "أعدك"، لكن يجب أن أعرف الاسم على الأقل !

- دوركاس! اسمه دوركاس! "لا تنسه! "دوركاس، الجميع في سرقوسة يعرفونه عندما ينزل من حصن يوريال بسترته البيضاء وعينيه السوداوين، يتعرف عليه الجميع ويشيرون إليه: "إنه دوركاس! الضابط السابق في القصر!

دوركاس! عزيزي دوركاس! هل تتذكرين !

كان القمر الصافي يغمر الرواق، وأقبلت العذارى واحدة تلو الأخرى ليقفن حول براكسيلا. وَصَوْتُ الْمُنْشِدِ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ يَسْتَعْبِثُ بِالْآلِهَةِ الْقُوِيَّةِ "يا أرتميس التي لا تقهر، يا بيرسيفونيا المنيعه، يا سيدة كل الأقدار، عسى أن تكوني لنا موفقة! يا صاحبة السهام السريعة التي لا يستطيع أحد في أعماق الغابات أن يفلت منها، والتي تتحدى سيقانها الرشيقة الغزال ذا الركبتين الضيقتين؛ يا عذراء أكثر فتنة من الفجر، وأقدس من النور، وأجل من سر الليل؛ - عسى أن تكوني لنا موفقة! " وتساقطت الابتهالات

والاستجابات رويداً رويداً في البحر، ووصلت العذارى واحدة تلو الأخرى كما وصلت العذارى الثلاثيات البيض من الأسطول الروماني. ظهرن في البحر الصامت وتوقفن على بعد مسافة من أورتيجيا، وبلا حراك تحت الرواق كانت براكسيلا والكاهنات يراقبهن وهن يتمايلن على الأمواج الفضية.

أيتها الآلهة، استأنفت صوت الهيروفانتيد: (احمي أولئك الذين سيحاربون من أجل سرقوسة: احرسى الأسوار والحصون، وانصري شجاعة الأبطال، واحقني دماء الأبرار، ورققي قلوب أعدائنا) وأضافت في هدوء: اعفوا، اعفوا قبل كل شيء دوركاس!

كَانَتْ السَّفِينَةُ الثَّلَاثَةُ الْأَخِيرَةُ قَدْ وَصَلَتْ لَوْقِهَا فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ الصَّامِتَةِ. وكان القمر الذي كانت أشعته تسقط عليها بحدة قد اخترقها فجأة بسطوع شديد. كان هناك رجل يقف في مقدمة السفينة وجهته عارية تحت ضوء النجم الساطع. بدا وجهه كما لو كان قد عجن من طينة مختلفة عن طينة الرجال العاديين. كان أنفه المستقيم له صلابة النصل. كان فمه بلا لحية يلمع، مثل مشبك السيف الذهبي. وعيناه النسران تنظران إلى المدينة واقفة أمامه كبرج عجيب، عالية ومزدحمة من الكنوز. وكان ذلك مارسيلوس!

الفصل السادس

كانوا يتقاتلون منذ الفجر، دون أن يرى بعضهم بعضاً، بالمقاليع من فوق الأسوار. كان الرومان قد هاجموا من عدة جهات في وقت واحد بعنف غير مسبوق. كان من الواضح أنه لم يكن لديهم أدنى شك في أن أسلحتهم ستنتصر قريباً. كيف كان يمكنهم أن يشكوا في ذلك؟ وكان أكثر من ستين ألف رجل قد عسكروا في معسكر احتياطي في سهل أنابوس؛ وكانت الخيول الصغيرة المدربة خصيصاً لسلاح الفرسان الخفيف تنتظر في سرجها الكامل اللحظة التي يهاجم فيها الجنود وفي الميناءين، وعند مدخل تروجيلوس، كان هناك مائة وخمسون شراعاً تتأرجح أمام سفن سرقوسة؛ وكان يمكن رؤيتها من بعيد، وهي تختلف في الحجم والشكل: سفن ثلاثية ورباعية وخماسية، وسفن شراعية "خفية" كانت تمخر عباب الماء بسرعة النورس المكشوف الجناحين وسفن شراعية كاملة التجهيز تحمل ما يصل إلى أربعين مقعد تجديف متراصة من المقدمة إلى المؤخرة كدرجات المدرج، كان الأسطول الروماني كله هناك متلاًئلاً وجاهزاً ومعداته ممدودة للقتال البحري.

ومع ذلك - وكان مارسيلوس يعلم ذلك - إذا كان الرومان هم الجنود الأوائل في العالم، فإن بحارة سرقوسة كانوا محصنين على سفنهم؛ لذلك كان الجنود هم الذين يركبون السفن الشراعية الرومانية، وللتعادل في

المعركة كان لكل سفينة من هذه السفن الشراعية إلى جانب المهماز النحاسي المصمم لكسر أجنحة السفينة المنافسة، غراب حديدي يطوقها بمخالبه القوية ويشل حركتها ويجعلها منصة صلبة يمكن من خلالها الاشتباك بالأيدي كما في اليابسة. ولكن استعراض القوة هذا لم ينتقص من جمال أسطول سرقوسة شيئاً. فقد كان هيرون قد استثمر ثروته وفخره في إتقانه. فقد كان بإمكان سفنه الشراعية التجارية أن تتحول إلى سفن حربية رهيبة في طرفة عين؛ وكانت سفينة المسرح¹²³ نفسها، حيث كانت تُعرض لوحات من الإلياذة على الشعب، قد صُممت لتصبح السفينة الحصينة في حالة نشوب صراع، والرائدة التي تخضع لها كل السفن الأخرى. ولا ريب أن هذه السفينة وحدها، التي لا مثيل لها في الكون، قد سحقت بكتلتها العملاقة كل ما يحيط بها. كانت تسبح في أمواج بحر صقلية الفضية، قبالة قصر الملك السابق، فبدت وكأنها قصر آخر هائل وأميري، قلعة ثانية منيعة. وقد أتيح للناس الذين طالما سمعوا عجائبها تمجيداً ولم يروها إلا من بعيد في تمجيد من الزهور والنور، أن يزوروها؛ وكان ذلك طريقة لرفع المعنويات المتذبذبة وزيادة ثقة السرقوسيين في حظهم. وكانت ملفوفة ببدن مزدوج من خشب السرو، وكان من السهل أن يتسع هيكلها لألفي رجل. وفي الداخل، كانت الحدائق والبرك والبيوت الزجاجية المليئة بالأزهار النادرة قد وضعت، كما في

سفينة عملاقة تقام بها الاستعراضات والعروض المسرحية¹²³ Vaisseau-théâtre

مسكن أرضي. وفي مقدمة الجسر كان هناك معبد مكرس لسيريس¹²⁴؛ ومن هذا المعبد المكسو بالعاج يمكن رؤية كتلة الأمواج الزرقاء تتموج، بينما كانت هناك مشاهد من ميلاد الآلهة البحرية في الساحة الأمامية المرصعة بالأحجار الكريمة. وكان هناك العديد من الروائع الأخرى في السفينة العظيمة التي أثارت إعجاب الجمهور: صالة للألعاب الرياضية، وقصر وحمامات فخمة، ناهيك عن المسرح الضخم الذي كان يحتل الجزء العلوي من سطح السفينة والذي كان قد أفسح المجال لترسانة حربية كاملة؛ وقد تم الحفاظ على القطيفة الممتدة فوق الصواري، وكذلك ديكور البرج الرائع حيث كان الممثلون الذين يجسدون أبطال هوميروس الإلهي يحاكون الهجوم...

وقف البحارة الآن يراقبون، والبحر الأبيض من حولهم يواصل الضغط على أمواجه المتحركة، والأمواج تتلاطم بنفس اللجة العميقة، تارة صلبة لامعة كالرخام، وتارة لينة كسجادة من أوراق الشجر المتساقطة، غير مباين بما يجري في أعلى قممها من دراما مزيفة أو حقيقية...

لم يكن هناك نقص في الموارد في المدينة أيضاً. ففي قلعة أورتيا وحدها كان هناك ما يكفي من الأسلحة الاحتياطية لحشد قوة إضافية قوامها ثلاثون

¹²⁴ Cypris أحد الأسماء القبرصية للإلهة الإغريقية أفروديت - سيريس (البرقة)، وهو اسم المرحلة الأخيرة في تطور يرقات القشريات القشرية

ألف رجل في لحظة؛ وكان في قلعة أورتيا وحدها ما يكفي من المواد الغذائية؛ وكان الإيبوبولس¹²⁵ قد جمعوا نخبة الدفاع: "كان الهوبليتس¹²⁶ بدروعهم الثقيلة، ثابتين على أقدامهم كما لو كانوا على قاعدة نحاسية، شفاهم مشدودة وجباهم جادة، يؤدون حركات المعركة بنفس الحماسة التي يؤدي بها الكاهن طقساً مقدساً". هكذا كان الدورانيون يفهمون المعركة تقليدياً؛ فقد كانوا يتطلعون إليها بفرح عظيم، وقبل الانخراط فيها كانوا يدهنون رؤوسهم بالعطور كما يفعلون في وليمة الحب. وكان دوركاس قد أسندت إليه قيادة هؤلاء الهوبليتس الكرماء القلوب، وكان على رأسهم قد صعد بالفعل عدة هجمات، ولكن عددهم كان محدوداً وبقية القوات لم تكن مساوية لهم في القيمة. وكان السرقوسيون من كل الأعمار والمهن قد حملوا السلاح في أول اندفاع الحماسة فشكّلوا جماعة صاحبة غير منضبطة أحدثت من الضوضاء أكثر مما أعاقت عمل الجنود الحقيقيين الصامتين، وسار هؤلاء المحاربون المستعملون في الشوارع والميادين وهم يحملون الرايات مرفوعة والرماح في أيديهم وينشدون الأناشيد الوطنية ويجعلون الهواء يدوي بأصوات البوقينات¹²⁷

¹²⁵ Epipoles إيببولس (باليوناني، وتعني [الأحياء] فوق المدينة) هي منطقة في سيراكيوز تقع على مرتفعات المدينة.

¹²⁶ les hoplites الهوبلايت هو جندي يوناني مواطن مدمج بالسلاح يحارب سيراً على الأقدام. ولأنه من طبقة غنية، كان عليه شراء معدات المحارب الخاصة به. يتألف الهوبلايت أدناه فقط من صور طبق الأصل - نسخ من قطع أصلية أو مستنسخات من قطع أصلية أو مستنسخات مستندة إلى وثائق مختلفة.

¹²⁷ Buccines آلة نفخ منحنية على شكل البوق. كان البوق في الفياق يشير إلى التحميم؛ أما البوق فيدق على شكل كلاسجات.

المهيرة. وكان هيموقراط قد جندهم أملاً في أن يجعل منهم أنصاراً له في اللحظة المناسبة التي كان من شأن قرطاج بعد قسوة الحصار، وبعد أن انهزمت روما وضعفت سرقوسة أن توطد أخيراً العمل الذي بدأه - لأنه لم يكن قد تخلى في قرارة نفسه قط، عن أمل الاستبداد الذي كان سيد هيرونيموس السابق.

كان دوركاس إذن هو محور الدفاع الرئيسي؛ ومن بين الجنرالات الذين كانوا يقودون الأسوار معه، كان كل الآخرين - ناهيك عن هيموقراط وإبيسيديس - يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يدعمون في نفس الوقت مصالح المدينة بعض الخصومة الخاصة، ويبدو أن دينوميديس وملازمه سوسيوس لم يكونا غريبين عن مقتل الملك الشاب في ليونتيوم. فهو وحده، دوركاس، كان يسهر على سرقوسة بقلب خال من أي طموح خفي؛ وهو وحده الذي لم يكن يتمنى يوم النصر غير مكافأة أخرى غير مكافأة أداء الواجب. ولكنه لم يكن خالياً من القلق على نتيجة هذه الحرب؛ وكان يحكم على الأمور بتجرد، برباطة جأش رجل ضحى بحياته، ورأى دونية جيش سرقوسة أمام القوات الرومانية. فبينما كانت ستون سنة من السلام قد خففت من حدة المواقف، وبينما كانت القلوب لا تزال قاسية فإن السلاح قد فقد عادة الاستبسال. ما كان ينقص السرقوسيين قبل كل شيء لضمان شجاعتهم وموازنة هيبة مارسيلوس الهائلة كان قائداً لهم في سلطته المعنوية التي لا تتزعزع ثقة، البطل، نصف الإله الذي كان يحتاجون إليه لقيادة الحشود

إلى النصر. اعتقد دوركاس أنه وجد الرجل الذي يمكن أن يصبح كل هذا... ألم يكن أرخميدس قد أوقف بالفعل، بالتحدث إلى الشعب، الشغب الذي كان قد بدأ، وأعاد وحدة البلاد؟ والآن كان الأمر يتعلق بإقناعه بأن يأخذ زمام المبادرة في التكتيك العسكري، وأن يطبق عبقريته الفذة في أعمال الدفاع عن المدينة، كما طلب منه الملك هيرون مراراً. ولكن هل سيوافق العالم على ذلك؟ شكّ دوركاس في ذلك في قلبه. وتردد لعدة أيام قبل أن يتخذ هذه الخطوة السامية. غير أنه في إحدى الأمسيات، اتخذ قراره فجأة وهرول إلى أورتيجيا. رغم تأخر الوقت، كان أرخميدس لا يزال يعمل. وكان متكئاً على لوحة مضاءة بضوء خافت، وكان يتابع بانتباه الخطوط العريضة التي لا بد أنه رسمها بنفسه مؤخراً، لأن الحبر بدا رطباً وطازجاً. لم يدفعه اقتراب دوركاس إلى تغيير موقفه، بل واصل وجبينه متجدد وشفته غير متحركة، وهو يتفحص الخطوط المتشابكة تحت الكالاموس.¹²⁸ ولما رآه أرخميدس وجهاً لوجه، تحت ضوء المصباح الوامض الذي كان يقطر زيتته ببطء في الإناء الفخاري، استولى عليه الخوف مرة أخرى من أن يكون قد اعترى بأمل باطل. هل كان هذا الرجل العجوز، الذي أنهكه الكدح غير العادي طوال حياته، والكامن في أعماق هذا القصر الملمز في أعماق خلوته، يملك القدرة - على افتراض أنه أراد ذلك - على

¹²⁸ Calamus الكالاموس، من الكالاموس اللاتيني، هو قصبه مدبية تستخدم للكتابة: جافة على الألواح الطينية. وقد أعطى شكله المميز للكتابة المسمارية: مثلثات صغيرة، نتيجة ضغط الكالاموس على الطين الطري.

أن يعارض مغامرات مارسيلوس بنشاطه الانتقامي وأن يضمن نجاح عمليات الدفاع بقوة عقله المطلقة؟ ألم تكن هذه، علاوة على ذلك، مهمة تفوق طاقة البشر، أو على الأقل مهمة كانت تتطلب إعداداً بطيئاً وحكيماً؟ والآن، وعلى الفور، كان لا بد من اتخاذ إجراء... ولكن أرخميدس نظر إلى دوركاس وقال:

- دعنا نرى، ألم تقطع كل هذه المسافة من إبيبوليس في هذه الليلة المقمرة لتبقى صامتاً أمامي؟ " فأجاب دوركاس: "ألا تعلم؟

ثم ابتسم أرخميدس تلك الابتسامة العجيبة التي كانت تفتح كالزهرة في شجيرة لحيته البيضاء الكثة، وأظهر لدوركاس الصورة التي كانت قد انكشفت أمامهما وقال: انظر. هذا هو مخطط تحصينات المدينة. لا أعتقد أن أحداً منكم أيها الحراس الذين يحرسون الأسوار يمكن أن يمتلك مخططاً أكثر اكتمالاً من هذا المخطط. لقد تم تدوين كل شيء حتى أدق التفاصيل، النقاط القوية وكذلك النقاط الضعيفة، الأماكن التي يجب أن نكتفي فيها بصد العدو وتلك التي سيكون من المناسب مهاجمته فيها...

حتى الآن، لقد التزمت الصمت بحذر خلف الجدران، لأن غريبانكم ودلافينكم ومراوحكم ومنجنقاتكم لا تقارن بألة حرب الجيش الروماني. حسنا، علينا فقط أن نصنع المزيد، هذا كل ما في الأمر. بينما يخرج مارسيلوس إحدى آلاته الرهيبة سنواجهه بأخرى أكثر رعباً. وسنرى من

الذي سينتصر في النهاية! ابتسم مرة أخرى ووضع يده بشكل مألوف على ذراع الضابط.

- أكنت تظني أستطيع أن أنام أو أحلم بنظريات تخمينية في حين أن ستمائة ألف رجل قد يلقون غداً بالسيف؟ أيها الطفل! هل تظن أن الزمن قد جفف قلب أرخميدس في صدره إلى هذا الحد؟ لقد كنت أستمتع بهدوئي وأتلذذ بنشوة التأمل الفلسفي ما دامت البلاد في غير حاجة إلى خدماتي، أما اليوم فلم يعد الأمر كذلك: لقد بدأت لعبة حاسمة، وعلى كل فرد أن يساهم بنصيبه من الجهد، وتابع بصوت نابض بالحياة - كما ترى، لم أنتظر حتى أن تأتي إليّ. لقد أعددت بالفعل نظاماً دفاعياً كاملاً في عقلي. رأسي عبارة عن ترسانة مليئة بقطع الكتان والبوروبولوس¹²⁹، رامي النار، واحدة منها كفيلة بهزيمة جيش بأكمله. للأسف، أنا الذي لن أقتل حشرة، أستعد للتسبب في موت الآلاف والآلاف من المخلوقات البشرية! لكن لا داعي للتردد. ومهما فعلنا فسوف تراق الدماء لا محالة! قال دوركاس في نفخة من الغضب: "فلتسفك الدماء، ولكن لتعيش سرقوسة! سرقوسة ضرورية لجمال العالم. لا يمكن محو اسمها من الكون. امتنان عظيم جعله ينحني أمام الرجل العجوز. وكان معه الآن على يقين من النصر؛ وكاد يجثو على ركبتيه كالمؤمن أمام صورة اللاهوت وهو يردد

¹²⁹ Pyroboles من اليونانية القديمة بوروبولوس (رمي النار) → انظر بيرو- وبولي. اسم شائع، تعديل. مفرد، جمع. بيروبول، بيروبولس.

شعار الشاعر: (ماذا يكون صدر الإنسان بدون النفس التي ترفعه؟ وماذا
يمكن لطاقة أذرعنا أن تفعل إذا لم تكن الروح الخفية الغامضة موجودة
لتوجيه جهدها؟

الفصل السابع

لم ينم ثيوفراستوس في تلك الليلة. فقبل أن يغادر الخزانة، فوجئ بسماعه في إحدى الغرف السفلية صوت ارتطام مدوّ في إحدى الغرف السفلية كما لو كان ناتجاً عن ارتطام معول بالجدار الخارجي. كان قد استمع، لكن الضجيج لم يعد، ولكي يكون في مأمن، أطل سهره وهو يمشي صعوداً ونزولاً بين سبائك الذهب والأحجار الكريمة المكدسة. ثم خرج كما كان يفعل كل مساء ليعود إلى البيت، وهو متأكد تماماً من أنه أخطأ. الكنز، علاوة على ذلك كان على جزيرة أورتيا كلها أن تسقط في يد العدو، ومع ذلك كان ثيوفراستوس قلقاً. فبدلاً من أن يذهب مباشرة عبر المدينة للوصول إلى البيت، ذهب إلى داخل الأسوار. كان كل شيء على ما يرام ولم يدق أي إنذار. كان جنود الهوبلايت¹³⁰، والدرع في أيديهم، يقومون بجولاتهم؛ كانوا يسرون بثبات، اثنين اثنين، في صمت. كانت ظلالهم المتضخمة أمامهم تبالغ في هيئتهم القتالية، وتحولوا إلى محاربين ذوي قامات عملاقة بدت أطرافهم الممتدة بلا حدود وكأنها تغطي السور بأكمله لحمايته.

هذا الوهم كان يسلي ثيوفراستوس للحظة، بينما كان الهدوء العظيم الذي ساد في كل مكان يطمئنه. لا شك أن الرومان هناك في سهل أنابوس

¹³⁰ Les Hoplites الهوبلايت هو جندي يوناني مواطن مدجج بالسلاح يحارب سيراً على الأقدام. ولأنه من طبقة غنية، كان عليه شراء معدات المحارب الخاصة به. يتألف الهوبلايت أدناه فقط من صور طبق الأصل - نسخ من قطع أصلية أو مستنسخات من قطع أصلية أو مستنسخات مستندة إلى وثائق مختلفة.

كانوا نائمين في خيامهم بعد يوم شاق حاولوا خلاله التسلق ثلاث مرات دون أن يتمكنوا من الصعود إلى أعلى من السواتر الترابية الأولى التي تقوم عليها أسس التحصينات. غير أنهم كانوا في اليوم السابق على وشك التوغل من الغرب، متبعين خط القناة العظيمة التي تعبر الأيبولس؛ ولكن غارة قوية من دوركاس ردتهم إلى معسكرهم. وكان أبيوس الذي كان يقودهم قد أصيب في جبهته بقطعة من الصخر، ومن بين عشر فرق من الفيلق دُمرت اثنتان منها تدميراً شبه كامل. بعد هذا الفشل المزدوج، لم يكن بوسعهم أن يفشلوا في إعادة تجميع صفوفهم واستجماع قوة جديدة. وبالتفكير على هذا المنوال، بدأ زوج رودوكلاي الودود يندم على حماسه الزائدة. فهو لم يكن جندياً، ولم تكن مهمته أن يحرص على سلامة الأسوار. كان الليل بارداً، ليلة شتوية كانت النجوم فيها تطلق أضواءها الحادة كسهام فولاذية؛ وكان البحر يلمع من بعيد بلا حراك، بلا تجعد، بلا هزة ككرة أرضية هائلة كانت كل المهمات تحتها مكتومة. وفجأة دق نفس الضجيج الذي كان يقلقه في إحدى الغرف السفلى من الخزانة أذن ثيوفراست. وكان الآن بالقرب من لبدالون، في إحدى النقاط التي كانت الأسوار فيها أعلى الأسوار وحيث كانت الدفاعات أقل نشاطاً. وكان هناك ممر في الأسفل يمتد بمحاذاة الجسر، فانطلق على امتداده مصمماً على أن يضع حداً لشكوكه هذه المرة ويكشف الغموض. واستمر الضجيج خافتاً باهتاً لا يكاد يُرى. استلقى ثيوفراست على ظهره على الطريق الضيق. ولكن بدا كما

لو أن ثقل جسمه قد كتم الصوت، كما لو أن قشرة الأرض من تحته قد جوفت. ومرة أخرى وقف. لقد كان مقتنعًا: كان الرومان يحاولون تقويض المدينة، وبعد أن عجزوا حتى الآن عن اقتحامها، كانوا يحاولون الدخول إليها على حين غرة، بحفر أروقة تحت الأرض... كانت الخطوة الأولى التي قام بها ثيوفراستوس هي تحذير الهوبلايت، لإيقاظ دوركاس وإبسيديس وهيموقراط ودينوميديس وكل من كانوا يحرسون الأسوار في مختلف الأحياء. لكنه فكر مرة أخرى. هل من الحكمة أن ينشر الإنذار بهذه الطريقة قبل أن يتمكن حتى من إعطاء إشارات دقيقة؟ لم يكن ثيوفراستوس عالمًا ولا صاحب حدس ثاقب، ولكنه كان ذا عقلية فاحصة. وكان يعرف خواص المعادن، إذ كان يدرسها باستمرار، دون أن يدري تقريباً، بينما كان يعيش بينها في الخزانة. بهذا القرص البرونزي، وبدون إزعاج أحد ساعرف قبل الفجر ما أحتاج إلى معرفته. وبعد أن قرب الدرع من الأرض، واصل السير حول الأسوار وهو يضرب قرص السبر من وقت لآخر. وأينما كانت الأرض ملغومة كان النحاس يصدر صوتاً مختلفاً؛ ولا ريب أن الصدفة المحظوظة قد وضعت ثيوفراستوس على أثر الرومان: فقد تمت أعمال التقويض بسرعة مدهشة؛ كانت كل من تيتشي وإيبوليس وأورتيجيا يحملان بالفعل جروحاً كبيرة في خاصرتيهما؛ ولم يكن هناك سوى أرخادين التي كانت محترمة؛ وهناك كانت الأسوار التي لا يمكن الوصول إليها قد دمرت. كانت استجابة السرقوسيين سريعة: ففي

اليوم التالي، واتباعًا لتعليمات أرخميدس، تم حفر ثقب أسطوانية في منتصف الجدران. ثم انتظروا في صمت حلول الليل، وكما حدث في اليوم السابق، كان هناك ضوء خافت في الظلام، لم يكن من الممكن رؤية سوى تلك الأجسام التي كانت مرئية على الفور. بين جرم السماء المتلألئ وجرم البحر، كانت المدينة ترتفع ككتلة هائلة مشوشة، قوساً يسكنها الناس في كل مكان، وتسمع فيها الحياة في كل مكان. في حوالي الساعة السادسة عشرة، عندما هدأت كل الإشاعات، ظهر جنود الفيلق الروماني.

وكان جنود الهوبلايت يراقبونهم ويتابعون تحركاتهم؛ فرأوهم في طابور متراص أمام الأسوار، أولئك الذين في الصفوف الأمامية واقفين منتصبين، والآخرون نصف منحنين، وآخرون جاثين على ركبهم. كان الجميع يحملون دروعهم فوق رؤوسهم مشكّلين ما أطلقوا عليه اسم "السلحفاة"، وهو عبارة عن سقف مائل، وهو نوع من الصدفة ذات قشور متشابكة، حيث كان المشاة الصغار يتسلقون. ثم استؤنف العمل بشكل منهجي، دون تسرع واضح، في ذلك الإيقاع من الجهد حيث تبدو المهمة وكأنها تتولى أمرها بنفسها. لكن جنود الهوبلايت كانوا يراقبون؛ ففي كل ثقب في الجدران كانوا قد أدخلوا أسطوانة معدة مسبقًا ومعبأة بمواد قابلة للاشتعال، الكبريت والقار والقطران، وكان على الأرض أمامهم قدور مملوءة بنفس الخليط ومزودة بمنافخ من أجل الحفاظ على عمل هذه الأسطوانات وإرسال محتوياتها إلى الجانب الآخر من الأسوار. وبإشارة من

أحدهم، أطلقت جميع الأسطوانات دفعة واحدة، وانهمر وابل من النار على الرومان.

سادت حالة من الذعر المفاجئ المرعب. كانت هناك صيحات صاحبة ولعنان، بينما استمر جنود الهوبلايت في نفخ الزفت الملتهب في الأسطوانات. تمكن العديد من جنود الفيلق من الهرب، لكن بقي العديد منهم على الأرض يتدحرجون فوق بعضهم البعض وقد أصيبوا بالعمى والاختناق والارتباك. نصف متفحمة، تدحرجوا في الزفت اللزج؛ وعكست المرأة الملساء لدروعهم إيماءاتهم المذهولة، وضربات أطرافهم المحمومة. وسرعان ما أصبح كل ما تحت الجدران جثثاً. ولم يضيع السرقوسيون أي وقت في ردم الحفر وشرعوا في ردم الخنادق التي تم حفرها. عند علمه بهذا الفشل، استشاط مارسيلوس غضباً. فجمع مهندسيه ليعمل معهم على إيجاد طرق جديدة للاستيلاء على المدينة على حين غرة، وطلب من روما أن ترسل له ضعف عدد قواته. وكان بإمكانه أن يؤخر الهجوم أو يعجل به كما يشاء، وأن يختار القتال في البر أو في البحر، وأن يوجه الرايات نحو القلعة أو أن يتقدم بجنوده الكينكويريم¹³¹ التي لم يكن قد تخلى عنها حتى ذلك الحين. ومن ناحية أخرى، لم يكن لدى السرقوسيين سوى موارد محدودة تحت تصرفهم، وأمام استعدادات مارسيلوس الهائلة بدأوا يشعرون بالخوف.

¹³¹ Quinquérèmes إن الكينكويريم هو نوع من المراكب القديمة ذات خمسة مجدفين في كل قسم رأسي.

ومن قمة حصن يوريال أو حصن تيتشي، كانت تصل إلى معسكر العدو كل يوم تعزيزات جديدة؛ وفي كل يوم كانت مساحة أكبر من الريف تغطيها الآلات الفتاكة المصنوعة محلياً أو المرسله من روما. كانت هذه أبراجاً هائلة متدحرجة، وكباشاً ضاربة بارتفاع القلاع، وأنواع أخرى كانت حبال أعصابها قوية بما يكفي لقاذف المقذوفات على ارتفاع ألفي قدم. كان لكل فرقة واحدة من هذه الآلات الرهيبة. وفي هذه اللحظة، كانت الاختبارات تجري على مسافة بعيدة في السهل. وكان يمكنك أن تسمع صفير أرباع الصخور وقذائف المدافع الكروية؛ والتريفاكسات¹³²، وهي قذائف ثقيلة تسقط في البحر. وتساءل السكان المذعورون كيف يمكنهم صد هذا العدد الهائل من أدوات الدمار الهائلة. ولكن في صباح أحد الأيام كان الأمر مختلفاً مرة أخرى. فقد رأوا أمام رأس بليميريوم، على الضفة السائلة للأمواج، قيثاره هائلة على شكل هائل. كانت مدعومة بثماني قوارب قد أزيلت مقاعدها وتم ضمها إلى بعضها البعض. وقد استبدلت أوتار هذه القيثاره بسلايم ضيقة موضوعة بطولها كلها، ولكنها لو نُصبت لكانت وصلت إلى ما فوق أسوار المدينة. وبدت القيثاره الهائلة كلها وكأنها لا تزن على الأمواج الفضية أكثر من جسم البجعة المتموج. كان أهل سرقوسة في ذلك الوقت في أقصى درجات قلقهم...

¹³² Les trifax سلاح رمي، طوله أربعة أذرع، يُرمى بالمنجنق.

أدرك هيموقراط الخطر. وبدون أن ينبس ببنت شفة لأحد، غادر سرقوسة تاركاً القلعة في رعاية أخيه إيبيسيديس. وكان في طريقه سراً للالتحاق بجيش قرطاج: هذه المرة، كانت قوة قرطاج وحدها قادرة على الوقوف في وجه قوة روما؛ وهو أيضاً سيعود بعد قليل، بتسليح هائل، وبجيوش هائلة تجرّها فيلة ثقيلة الأقدام، وبجنود مشاة بسيوف قصيرة وفرسان في سترات قرمزية، للدفاع عن سرقوسة - أو لإخضاعها تحت سيطرته مرة واحدة وإلى الأبد.

الفصل الثامن

كان أورثون يعمل في صمت في الجزء الخلفي من متجره. كان رحيل هيموقراط قد تركه قلقاً. صحيح أن إبيسيد بقي لدعم مصالح الحزب القرطاجي في المدينة. ولكن ما الذي يمكن الاعتماد عليه في مثل هذا الوضع المضطرب؟ على الرغم من كل التنبؤات، صمد أرخميدس ودوركاس حتى الآن أمام الجيوش الرومانية. هل سيقاومون حتى النهاية؟ لم يستطع أورثون أن يتخيل ذلك دون هزة من الغضب. إن انتصار أرخميدس، وانتصار دوركاس على وجه الخصوص، قد أغضبه حتى النخاع من شدة حقه.

غير أن أملاً واحداً هو أن الحب الذي كان يتابعه يوماً بعد يوم في قلب دوركاس قد يلينه إلى الحد الذي يطمس فيه حتى الإحساس بالواجب، وكان يفكر في هذا دون أن يكف عن الكدح في عمله، عندما اندفعت جوليس إلى الدكان:

- فَقَالَتْ: (اركض بِسُرْعَةٍ! لقد رأيت للتو دوركاس متجهاً نحو حديقة اللاتوميين القدماء. بالطبع، سينضم إلى الهيروفانتيد مرة أخرى!

وعلى الرغم من صمت زوجها المتعنت، الذي لم يشأ أبداً أن يطلعها على ما يجري في الهايبوجيوم، إلا أن جليس زوجته البدينة اكتشفت أخيراً كل شيء، وبينما كان أورثون يتجسس على دوركاس وبراكسيلا، بدأت هي

نفسها تتجسس على أورثون: ليس بدافع الغيرة بالطبع - فقد كانت تترفع عن مثل هذه المآسي! - ولكن بدافع الفضول، لأنها كانت قد أحست بشيء غامض هناك كان عليها أن تكشفه بالتأكيد. والآن أصبحت مساعدة مفيدة لصانغ الذهب، في المخطط المظلم الذي كان يسعى إليه. وفي أغلب الأحيان كانت هي التي كانت تحذره من نزعات دوركاس، كما فعلت للتو. ونهض أورثون؛ وبسرعة، ودون أن يكلف نفسه عناء مسح يديه اللتين اسودتا من ملامسة المعدن، ألقى معطفه على كتفيه، وسحب قبعته المصنوعة من اللباد على عينيه، واتجه إلى الحديقة التي كانت تغطي حديقة دينيس القديمة بأوراق الشجر الكثيفة. كان يعرف هذه الحديقة جيداً. وكم من مرة تجول فيها متلهفاً يلهث وهو يتصبب عرقاً رغم أنفه، خجلاً من ذلك العمل الشرير الذي هو استراق السمع إلى سر غيره، وأشد الأسرار حميمية، سر الحب! ولكن اليوم تبددت كل هواجسه برحيل هيموقراط المفاجئ؛ وشعر بالحاجة الملحة إلى الاستناد إلى النقطة الثابتة الوحيدة التي بقيت له، وفي خضم هذه التقلبات الكثيرة المضطربة، أن يعرف على الأقل أين يقف من خطط دوركاس. كانت الحديقة مهجورة، وكان بإمكانه التسلل بسهولة دون أن يراه أحد إلى التجويف في المتاهة المعروف في البلاد باسم أذن الطاغية. وبفضل التأثير الصوتي الفريد، كانت كل أصوات المدينة تحت الأرض تصل إلى السطح. ولكن أورثون لم يكتف مثل دينيس بالصاق أذنه بالطرف العلوي من المتاهة؛ بل نزل أكثر

من ستين متراً في الصخر؛ وذهب إلى قاع التجويف نفسه، إلى داخل المتاهة المهجورة التي كانت تشكل مستوى وسيطاً بين مدينة الموتى وسرقوسة الأحياء. هناك، والأفضل من ذلك، كان بإمكانه أن يميز أدنى نفس، أدنى تهيدة للشايين.

وكان قد مضى على وجوده في مكانه لحظة عندما تعرف على خطى دوركاس؛ وكان الضابط قد جاء بالفعل، كما تنبأت جوليس ليلتحق ب الهيروفانتييد، بالقرب من مذبح بيرسيفوني الذي يشبه القبر حيث كانا يلتقيان عادة، فماذا كانا سيقولان لبعضهما اليوم؟ كان لقاؤهما السابق حنوناً وحنوناً بشكل خاص. وكان من دواعي سرور أورثون أن يلاحظ أن أحداث الحصار، بدلاً من أن تصرفهما عن بعضهما البعض، لم تؤد إلا إلى تقوية ارتباطهما المتبادل. وكانا قد أطالا الحديث عن نفسيهما، كما يفعل العشاق دائماً، وعندما افترقا كانت بينهما مداعبات جعلت الصائغ يظن أن اللحظة التي اقتربت فيها دوار الحب، وكسر توازن عاطفتها العفيفة، ستجرهما حتماً إلى روتين مشترك. ولكن كم كان مخطئاً في تنبؤاته! كان صوت براكسيلا، وهو صوت عذب لا يستطيع أحد حتى أورثون أن يسمعه دون أن يرتجف، قد ارتفع لتوه من قبو الهايبوجيوم وكانت أول الكلمات التي نطقت بها هي هذه: (لقد جئت لأودعك يا دوركاس!) وساد صمت تخيل أورثون خلاله ما كان الضابط قد انغمس فيه من تقليد موحش، ثم عاد صوت العذراء العذب:

- هذه التضحية ضرورية. لقد فكرت طويلاً وملياً قبل أن أقرر القيام بذلك. أتذكر ما قلته لك ذات يوم: أنه لا شيء في العالم يمكن أن يمنعني من المجيء إليك، إلا الخوف من أن أكون مذنباً. حسناً، إن هذا الخوف هو الذي يملي عليّ قراري اليوم. وبنبرة صوت يخترقها ألم لا يوصف، أجاب دوركاس:

- براكسيلا، هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أن تتخلي عني في هذا الوقت الذي أحتاج فيه إلى نصيحتك أكثر من أي وقت آخر، عندما أكون في أشد الحاجة إلى مساعدتك؟

- يجب عليك ذلك"، تقول براكسيلا. عندها فقط، كما أشعر، ستوافق الآلهة على إنقاذ المدينة! إنني أحبك كثيراً يا دوركاس، وعلى الرغم من أن هذا الحب قد بقي في أنقى مناطق المثل الأعلى، فإن من واجبي أن أضحى به في سبيل القضية المقدسة التي ندافع عنها كلانا. أليس لديك أنت أيضاً واجبات حتمية تتطلب التضحية أيضاً؟ أخي العزيز أخا روجي العزيز، كن بطلاً مثل أولئك الأبرار من الدوريين في الماضي الذين تجري دماؤهم في عروقنا. دعنا نفطر قلوبنا، ولكن دعنا نضمن انتصار وطننا.

- هذا مستحيل، هذا مستحيل! كرر دوركاس ذلك بتبلد، فتمردت براكسيلا:

-ماذا؟ هل أنا مخطئة في ظني أنك جدير بمودتي؟ إن شعباً بأسره ينتظر خلاصه مما يحدث في ظل هذه المقابر بين اثنين؛ وأنت متردد، لا يبدو أنك تفهميني!

- قال دوركاس في بطة: (يا براكسيلا)، عندما طلبت مني أن أضحى بحياتنا معك وافقت دون أسف؛ لقد كنت سعيدا، نعم، سعيدا إلى حد الثمالة وأنا أفكر في أن اللحظة التي ستأتي، ربما قريباً، عندما نتحد في الموت إلى الأبد. لكن ما تريدني أن تطلبه مني اليوم يفوق طاقتي: أن أتخلى عن حبك وحضورك. لا يمكنني أبداً أن أوافق على ذلك...

فضاق حلقها وخنقها انفعال مؤثر، وخنقها صوتها: (أتظنّ أنني لن أعاني أنا أيضاً؟ دوركاس، اسمعني: لقد كنا نحن الاثنان متهورين في اعتقادنا أن بإمكاننا تحدي النظام القائم دون عقاب. من يدري إن لم تكن هذه الحماسة القاتلة هي التي جلبت على المدينة غضب اللاهوت؟ لقد حان الوقت للعودة إلى ما كنا عليه قبل أن نلتقي. هذا الصباح فقط حثني رفاقي على الصوم والصلاة من جديد؛ على تحطيم كل بقايا الضعف البشري، لكي ننال خلاص سرقوسة المهتدة بقسوة. آه، دوركاس! دوركاس، هل تجرؤ يا دوركاس أن تجعلني أفضل فيما هو بالنسبة لي أقدس الواجبات؟ هل تتذكر الحماس الذي كان يملأ قلوبنا منذ اجتماعنا الأول، عندما تحدثنا معاً عن الأقدار المجيدة لوطننا؟ لقد كان هذا الإيمان المقدس هو الذي جمعنا معاً، وهذا الحماس المشترك هو الذي حفز اجتماعاتنا السريّة. ثم،

شيئاً فشيئاً، اختلطت الانشغالات الأخرى بهذا الانشغال الواحد. فأصبحنا نشعر بالقلق على أنفسنا ومشاعرنا أكثر من قلقنا على سرقوسة الحبيبة. وفي هذه الأثناء، كان الخطر يدهمنا ويزداد إلحاحاً يوماً بعد يوم. كان جيش العدو على أبوابنا. كم من الليالي القلقة التي قضيتها وأنا أستمع إلى اصطدام الحصون الرومانية بالأسوار! ملأ الندم قلبي. الآن لن يكون الأمر كذلك بعد الآن، ستكتمل تضحيتنا: لم تعد الآلهة تستطيع أن ترفض إنقاذ المدينة.

- وتدمرت دوركاس قائلة: (لا أريد أن أظهر نفسي أضعف منك يا براكسيلا ولكنني أفتقر إلى نعمة الكهنوت التي تعينك وأنا تعيسة جداً؛ ساعدني على الأقل قل لي إنك تحبيني) ثم ارتفع صوت الهيروفانتيد من أقبية الهيبولي كما لو كان في ترنيمة مقدسة:

- نعم، أحبك يا دوركاس، يا أخا روحي العزيز! لو كنتُ عذراء كغيري من عذارى المدينة الشابات اللاتي ينادين في نشيد الفراق زوج رغبتهن، لما أردت أن أنطق باسم غير اسمك. وحتى بصفتي كاهنة مكرسة لأرتميس، لا أخشى أن أعترف لك بعاطفتي المجنونة لأنني أسلمها للآلهة كزهرة قطفها لأضعها على مذبحها. أنا أحبك بحماسة فتاة شابة عفيفة وحماس امرأة متحمسة. انظر، إن يدي ترتعش بجانب يديك رغم أن أصابعنا لم تتشابك؛ ورغم الحجاب الذي يغطي جبيني فإن نار نظرتك تحرقني. أه يا دوركاس!

دوركاس! دعنا لا نشتكى من حبنا لبعضنا البعض! بل على العكس، فلنبارك الآلهة التي سمحت لنا أن نختر هذه النشوة؛ فنصلها لتستمر في الوصول إلى أرواحنا، لتغذي مصدر أفراحنا ودموعنا. إن أفكارك لن تفارقني أكثر مما تفارق شواطئ السماء شواطئ الأرض عندما تتوقف الشمس عن الإشراق في الأفق. تضحيتنا الطوعية لن تزيدنا إلا قريباً من بعضنا البعض. أخبرني هذه المرة أنك موافق!

- يَا أَطَهَرَ الْأَطْهَارِ، يَا حَبِيبَتِي بَرَكَسِيلا كَيْفَ لِي بِغَيْرِ مَشِيئَتِكَ؟ إن الكلمات التي خرجت من فمك يا براكسيلا لن تتلاشى من ذاكرتي، بل ستنبت في نفسي كما تنبت الأذان الكريمة في الثلمة، وستبهجنني حتى آخر نفس. يا للموت! كم أتمنى أن يكون سريعاً الآن! أي سعادة جديدة يمكن أن تجلبها لي الأيام؟ إن حياتي ستنتهي حقاً عما قريب، عندما نفرق، وعندما لا تعود عيناى تراك، ولا تعود موسيقى صوتك تهتز في أذني. ولكنك على حق، لقد كنت سعيداً جداً؛ كنت أركض إليك كل يوم تقرباً، وكنت أفكر منذ الفجر في هذه السعادة؛ وعندما اقتربت لحظة سلوك الطريق إلى مدينة الموتى هذه، كنت كالطفل الذي يمد يديه نحو النور. كلّه بياض، ظهرت لي في النور الأبيض الذي يداعب هذه القبور؛ وكان قلبي يخفق؛ أردت أن أسجد عند قدميك، وكثيراً ما لم أجد الكلمات التي أكلّمك بها. ماذا كان يمكنني أن أقول لك غير ذلك، لأن الشيء الوحيد الذي كان يملأ روحي ويفيض على شفتي هو حبي لك، وهذا الحب الذي حُرمتُ من إظهار أدنى

إشارة منه؟ أنصفييني على الأقل أن تقولي لي إنني لم أخالف بكلمة واحدة أو بلفظة واحدة ميثاق الشرف الذي كان بيننا. لقد كنت خائفاً جداً من فقدانك! ولكن للأسف! أنا أفقدك اليوم دون أن ألمح وجهك!

-قالت براكسيلا: (نعم.)، (ولكننا ما زلنا نحظى بالسرور الأسمى إذ نعلم أننا لم ننقض عهدنا) وسكتت، ثم ارتفع صوتها مرة أخرى منخفضاً بطيئاً كاهتزازات قيثاره باهتة.

-الوداع يا دوركاس

- الوداع، الوداع، الوداع يا براكسيلا!

وانزلت خطى الهيروفانتيد الخفيفة بين القبور، ولكن دوركاس ظل في مكانه أمام المذبح، وبينما كان أورثون يهم بالعودة إلى مدخل المتاهة، سمع فجأة نحيباً عالياً ونشيجاً عنيفاً. وكان هذا النحيب المنبعث من حنجرة رجل، يندفع في دوائر المتاهة الضيقة، ويملأه ألم عميق، وألم لا حد له، لم يسبق أن كان لأهات السجناء المسجونين في متاهة العذاب مثل هذا الصوت في آذان الطاغية المسرة.

ألم الحب الذي لا ينقطع، والذي لا يمكن مقارنته بأي معاناة إنسانية أخرى... واندفع أورثون مسرعاً وهو يطارده في المتاهة الضيقة رثاء دوركاس الحزين.

"لقد جن جنونه تماماً! - فكر عندما اقترب أخيراً من الحديقة الملائى بالنور.
ولكن هذا أفضل بهذه الطريقة. عندما يلدغ الأسد بلسعه دبور، فإنه
يتوقف عن العض.

الفصل التاسع

لم يتأخر تخلي دوركاس وبراكسيلا عن المدينة طويلاً في أن يؤتي ثماره: فعلى الرغم من التنبؤات العامة، لم تستطع الصمود أمام آلات أرخميدس القوية؛ فما إن تم سحبها إلى السور وتغطية منصتها بفرقة جنودها حتى كانت أرباع الصخور الهائلة التي قذفت بها كما لو كانت من جبابرة خفيين قد حولتها إلى ركام وسط ارتطام مرعب منذ هذه الكارثة، كان الذعر والرعب قد أبقى الرومان بعيداً عن أسوار سرقوسة؛ فلم يجرؤ أحد منهم على المخاطرة بالهجوم. ما الفائدة التي كانت ستعود عليهم على أي حال؟ كانوا كلما حاولوا إطلاق نيران بطارياتهم، كانت البطاريات الأخرى خلف الأسوار ترد عليهم بشكل هائل، وكانت تنهال عليهم سحابة من المقذوفات من كل الأنواع، من قطع الرصاص، وبيض الحجارة والرماح والنبال الملتهبة، والسهم تنهال عليهم فتصيبهم بالعجز، وكان ذلك فوق طاقتهم؛ فلم يعودوا يريدون خوض المعركة. وجعلهم الخوف من الخرافات يقارنون أرخميدس بالمشتري المسلح بالصواعق - وظلوا صامتين مرتبكين في معسكرهم في أنابوس، تاركين كل معداتهم الحربية تحت الأسوار. ثم أخذ ثوار سرقوسة بأيدي أبنائهم الصغار وقادوهم لرؤية ما أطلقوا عليه استهزاءً اسم حديقة الحيوانات الرومانية والكباش والعقارب والغربان الحديدية التي ظلت تهدد المدينة لفترة طويلة، والتي كانت الآن في حالة

سكون مكتفية بإظهار أنيائها دون أن تعضها بعد أن روضتها عبقرية رجل واحد غير عادية.

فقد كان أرخميدس هو الذي أصبح حقا القائد الحقيقي للدفاع؛ فقد تم التخلي عن جميع الوسائل العادية المستخدمة في الحصار لصالح أوامره وحده. وكان دوركاس يطيعه طاعة عمياء؛ ولم يعد دينوميديس وإيسيديس يفكران حتى في مقاومته. ومع ذلك لم ييأس مارسيلوس بعد: لم يستطع أن يعترف بأن رجلاً عجوزاً غير ملم بمهنة السلاح يمكنه أن يكبح جماح البسالة المؤكدة لجحافل جنوده. وعزم على أن ينقل المعركة إلى المياه؛ وهناك على الأقل كان يظن أنه سيكون في مأمن من مكائد العالم المساح؛ وستنتفح مرحلة جديدة أمام الجنود؛ وسيتوقف ذعرهم بمجرد أن لا يعودوا يشكون في قوة خفية تحاربهم بقوة غير متكافئة. كان الأسطول الروماني راسياً على مسافة من الميناء أمام أورتيجا. وكانت كل سفينة تحمل علامة Vexillum الحمراء، علامة التحدي للمعركة. وحولها سفينة ثقيلة غير متحركة و سفينة ثقيلة من طراز كينكويريم¹³³ ثقيلة، وعدد من القوارب الضيقة ذات صف واحد من المجاديف، ومقدمتها ومؤخرتها مرفوعتان مثل مقبضي الأمفورا، كانت تتحرك، تارة محمولة

¹³³ quinquérèmes الكينكويريم هو نوع من الزوارق القديمة يتميز بوجود خمسة مجدفين في كل قسم عمودي. وخلافاً للمجدف الذي يتحدر منه، لا يقوم المجدفون بالتجديف كل واحد منهم بمجدفه الخاص، بل يدفعون عدة مجدافين على مجداف واحد.

على قمة الموج وتارة عالقة في أخذودها. وعلى ظهر كل سفينة كانت أغنية الباريتوس المقدسة تصدح على سطح كل سفينة، مصحوبة بصخب يصم الأذان من الأقراص النحاسية. ولكن على الرغم من هذه الدعوة، لم تتحرك سفن سرقوسة؛ وظلت راسية في المرسى دون أن تشذب صواريخها، وقد تراخت البكرات والحبال وأشرعتها وعلاجها في حالة سكون. هل صعدوا حتى؟

كان للمرء الحق في أن يشك في ذلك، فقد كان الهدوء التام هو السائد على متن السفينة. ومرة أخرى انزعج مارسيلوس الذي كان يقف في مقدمة السفينة البريتورية التي تقود المناورة من هذا الصمت العظيم الذي يشبه الازدراء؛ لأنه لا يمكن أن يكون خوفاً: لقد أظهر السرقوسيون في مناسبات عديدة شجاعتهم في المعارك البحرية، وأسطولهم الذي كان كثير العدد ومجهز تجهيزاً رائعاً لا ينبغي أن يخشى الصدمة.

كان الوقت ينفد. لكن كان لابد من اتخاذ قرار. أعطى مارسيلوس إشارة الهجوم؛ وعلى الفور انطلقت السفن الكينكويرية الثقيلة وهي تتقدم وجهاً لوجه وتغطي الأمواج كجيش مصطف في المعركة؛ وكانت منابرهم الذهبية التي تلمع في الشمس تصطدم مباشرة بمخالب سفن سرقوسة؛ وبين الأسطولين شريط عريض من اللازوردية التي كانت الأمواج المتلألئة لا تزال تمتد على جانبيه، ولم يتم تبادل قذيفة واحدة من أي من الجانبين...

وفجأة، برزت من مسرح فايسو ثيتر، الذي أخفى هيكله العالي بشكل شبه كامل هيكل أورتيجيا الأبيض، أذرع عظيمة ذات طول مفرط. كانتا مفصليتين كالأذرع البشرية، وفي نهاية معصميهما الهائلين كانت الأيدي التي لا تقل ضخامة تنفتح وتنغلق؛ كانتا تبدوان كأجزاء من درع بعض الآلهة العملاقة التي صاغها العملاق في خاصرة جبل إتنا. وهذه الأذرع من الحديد، هذه الأيدي العملاقة، التي لا تعد ولا تحصى، هبطت على الكينكويرات وأمسكت بهم عبر الأجنحة وطارت بهم في الهواء بسرعة مذهلة، مثل خرقة معلقة تدور في نهاية جناحي طاحونة هوائية. واصطدمت هياكل السفن التي علقت على هذا النحو واصطدمت بين السماء والبحر، وتناثرت الدماء الحمراء من جوانبها والذهب والبرونز من هياكلها المتينة. ثم قذفت بها حركة أخيرة من الأيدي العملاقة إلى الفضاء؛ ثم غرق كل شيء في الأمواج في حطام مروع. ومن بين مائة وخمسين سفينة كانت تشكل الأسطول الروماني لم يبق في بحر صقلية سوى اثنتين وخمسين سفينة والسفينة البريتورية التي يقودها مارسيلوس. هنا وهناك، كانت القوارب الخفيفة تشق طريقها بين حطام السفن وتنتشل الجنود القلائل الذين نجوا.

كانت هذه الكارثة الجديدة قد أوصلت الرعب اللاعقلاني الذي أصاب الجحافل إلى ذروته؛ ومع ذلك فقد أسرع مارسيلوس الذي كان يخفي غضبه تحت ستار السخرية إلى معسكر أنابوس محاولاً رفع المعنويات.

وقد علت ابتسامة أمرة زوايا فمه: "أيكم سيجد طريقة للانتصار على هذا الهندسي الذي يتعامل مع أضخم سفننا الضخمة كما لو كانت كؤوساً لسحب الماء؟ ولكن لم يكن هناك أي صدى لكلماته. فالشباب "الفياليت"¹³⁴ الصغار بجباههم العارية الذين كانوا يمثلون الميليشيا المختارة، زهرة الرومان الذين بلغوا سن البلوغ، و "الهستار"¹³⁵ الذين كانوا يرتدون الخوذة النحاسية الفخمة المكسوة بالريش الأحمر والأسود، والأمراء والترياق الذين كانوا يشكلون الاحتياطي الأعلى للجيش، كانوا جميعاً يصغون إليه ورؤوسهم محنية ونظراتهم مثبتة على صنادلهم البرونزية. كانوا يفكرون: "إن نسورنا وذئابنا وخنازيرنا و"المينوتور"¹³⁶، وكل الرموز المجيدة على راياتنا، لا تستطيع الآن أن تفعل شيئاً أمام الانتصارات المجنحة الصغيرة المرسومة على رايات سرقوسة".

على أن مارسيلوس كان قد انحنى والتقط من رمال المعسكر إحدى الجوزات الرصاصية التي كانت ترمي بها المجانيق السرقوسية حتى ذلك الحين، وكانت لا تكاد تزيد في حجمها عن بلوط البلوط، ألا تستطيعون، كما سألهم، أن تصنعوا مثلها، بدلاً من أن تكلفوا أنفسكم بإذابة قذائف مدفع بحجم بيض النعام، والتي لا بد أن يجرها ثقلها إلى الأرض قبل أن

¹³⁴ Les jeunes vélites كان الفياليت جنوداً شاباً يتم اختيارهم من الحرس لتدريب ضباط المستقبل.

¹³⁵ Les hastaires هستار. (العصور القديمة) جندي روماني كان يحمل رمحاً. كما كان الهستار يحمل رمحين أيضاً.

¹³⁶ Minotaure المينوتور هو وحش خرافي له جسد رجل ورأس ثور أو نصف رجل ونصف ثور

تصل إلى هدفها؟ صحيح أنكم تضعون عليها نقوشًا عدائية تبعث على الاعتداد بالنفس: "اذهبوا واضربوا عدو روما" أو "اقتلوا السرقوسي" وتضيفون صورة صاعقة. ولكن لا فائدة من إطلاق التهديدات إذا لم تكن في وضع يسمح لك بتنفيذها. تعالوا اصنعوا لي بلوطًا كهذا، ليس أكبر من ثمرة شجرة زيتون أو بلوط: فمقلعكم سيرمبها بأمان فوق الأسوار، وربما عندئذٍ تستطيعون أن تفتخروا بأنكم ضربتم أعداءكم في صدورهم! ورغم هذا المظهر من الهدوء المعنوي، لم يكن مارسيلوس مطمئنًا تمامًا. فقد رأى أنه من الحكمة أن يحمي آخر سفن أسطوله من أي مفاجأة أخرى من أرخميدس فجمعها في خليج تروجيلوس إلى الشمال من المدينة بعيدًا عن تناول اليد. وكان ينتظر الآن اللحظة المناسبة لعملية أخيرة كان قد خطط لها مع زميله أبيوس، يهاجم فيها السرقوسيين براً وبحراً على السواء، حتى تشتت القوات المدافعة. لكن أرخميدس لم يكن ليمنحه الوقت. فمنذ عدة أسابيع، كان هذا العالم اللامع يعمل على حل مشكلة جديدة، ولم يكن يعلم بسرّه إلا دوركاس، وكان هذا الجغرافي اللامع يعمل على حلها...

وذات يوم، بينما كانت الشمس تسطع على البحر، شوهدت صواري القوارب الكوينكويرية تشتعل بالنيران. وعندما انتشر خبر ذلك ركض السكان إلى هيكسابيل. لقد كانت بالفعل مراكب مارسيلوس تحترق في الشمس. وعبّر المسافة، اخترقت رائحة النار، التي دفعها الرياح القادمة

من البحر المفتوح إلى الشاطئ، كل منخر، وتعالى الصرخات: "حريق! النار هناك على البحر!".

وسرعان ما كان جميع السكان على الأسوار. كان المشهد المهيب والمخيف يتجلى في تعدد ألوان اللهب الذي كان يتخذ ظلالاً مختلفة حسب ما إذا كان يهاجم الأشجرة أو الحبال أو بدن السفينة. كانت الشعلات الضوئية تندلع أحياناً من أعلى صواري السفن، بينما كانت جوانبها تشكل جحيماً واسعاً؛ ومن الأصغر إلى الأكبر، حافظت كل واحدة منها على شكلها تحت طبقة النار التي غطتها. ومع حلول المساء فقط اندمج كل شيء في توهج واحد هائل، في نفس الوقت الذي كانت الشمس ترسم قطعها المكافئ في الأفق، وتطلق آخر سهامها في البحر.

ومن أعلى برج جاليجرا كان أرخميدس ودوركاس يتابعان احتراق السفن، وهو احتراق بطيء ولكنه أكيد لم يستطع أحد أن يعالجه، لأن مصدر النار كان هناك، بين أيديهم. وبواسطة مجموعة من المرايا المتحركة، بعضها مقعر وبعضها الآخر مكافئ، وقد ربطت بعضها ببعض بمفصلات مفصلية، استطاع أرخميدس أن يمسك النار في السماء. كل ما تحويه الشمس في قرصها من مادة نارية كان قد سجنه في القرص الهش لمراياه؛ ومن بعيد، وبدقة القبطان الذي ينظم عمل مراياه النارية، كان ينقل إلى سفن مارسيلوس الشرارة التي كانت ستفنيها.

وذات صباح، أُعلن أخيراً أن مارسيلوس بعد أن يئس مؤقتاً من الاستيلاء على المدينة، حوّل المحاصرة إلى حصار، وأنه سيبحث في مكان آخر عن أماكن أخرى يسهل احتلالها. ثم، في تيموليونتيوم، حيث انتشر الخبر، سادت حالة من الفرح. وعرف الامتنان الشعبي على الفور أين يبحث عن منقذه. وهتف صانع أحذية بسيط، تاركاً منضدة عمله، صرخ بأعلى صوته: - أرخميدس في معبد الحظ! وردده ألف، بل عشرة آلاف، بل مائة ألف صوت. واتجهت الجموع مسرعة نحو أورتيجيا، حيث قصر الطاغية الطيب القديم الراقد في عزلة؛ وأسرعت الجموع. وكان أرخميدس يعمل كعادته في الأمواج اللاهائية أمامه. وقبل أن يتمكن من فهم ما كان يحدث، أمسكته أذرع قوية ورفعته على أكتاف العامة. وعلى طول الطريق إلى قمة تيتشي، متوجّهاً بمعبد الحظ، تم حمله عبر المدينة وسط هتافات الجماهير. حدث مجيد، تجسدت فيه حياة شعب بأكمله في شخص بطل فريد من نوعه. كان أورثون وحيداً في مؤخرة دكانه يراقب الموكب وهو يمضي، ولم يترك كل شيء هناك ليتبعه. وظل في الظل وجبينه متجدد، وشفته متجدتان وهو يراقب انتصار أرخميدس. قال لنفسه: "سأحصل على انتقامي"، لم ينته الأمر بعد. في معبد الحظ، ابتسمت تاكيه، إلهة الأوقيانوس الخير، عند معبد الحظ، وقد وضعت المكابح والعجلة والمهماز والدفة عند قدميها. لقد كانت الراعية الثانية للمدينة ومنفذة الرغبات السرية لبيرسيفوني، الآلهة العظيمة. كانت هي التي كنا نشكرها في الأيام

الصعبة، عندما نجونا من خطر عظيم. حُمل أرخميدس في انتصار إلى مذبحها. وهناك بدأت صرخات المباركة والشكر مرة أخرى. غربت الشمس على هذا التأليه. لكن الحماسة استمرت طويلاً في الليل تحت ضوء النجوم الحميدة. وارتفعت الأغاني المتناغمة في السحاب، لتصل إلى النجوم. والنصر الصغير من الذهب أو العاج، النصر الصغير المجنح، كله، كله، على عتبات الأروقة، أمام المنازل، أمام القصور، في الساحات ارتدى المنتصرون الصغار المجنحون تيجاناً خفيفة من البردقوش أكاليل وأوراق اليانسون الناعمة. وإلى الأبد، ظن السرقوسيون أنهم استعادوا سلامهم .

الكتاب الرابع

137 سيانا

¹³⁷ Cyane في الأساطير الإغريقية، سيانا هي نايا من صقلية. تحمل البحيرة والنهر الذي تسكنه اسمها. ويروي أوفيد أنها عارضت هاديس أثناء اختطاف بيرسيفوني وتحولت إلى بحيرة على يد إله العالم السفلي.

الفصل الأول

كانت بساتين سرقوسة مزدهرة. كان الربيع يبرز في بياض التلال. لقد كان شهر ثارجيليون¹³⁸ الحلو، عندما بدأوا يحتفلون تحت أغصان السيتيس العطرة، بالقرب من بركة سيان الزرقاء، بالاحتفال بأعياد "الأنثيسفوريات"¹³⁹ الريفية. ثم، صعدوا من السهل الواسع نحو أوليمبوس، جوقة لا حصر لها من النساء اللواتي يرتدين فساتين شاحبة اللون ومصفوفة بعصابات الرأس الحيرية، مررن كالنسيم عبر الأغصان المحملة بالبتلات.

والآن لم تعد بيرسيفونى تحتفل في غموض القبور وهي تعود إلى النور. وطالما استمر الطقس الجميل، كان اسم الإلهة يطفو على شفاه النساء وسط صفاء أوراق الشجر. كانت العذارى قد تركن رواق أريثوسا ليأتين ويستقرن هنا، في معبد ديميتير وأرتميس في الضواحي؛ وفي كل مكان حولها، تحت الظلال المستديرة لأشجار التفاح، كانت الخيام الخفيفة المصنوعة من مثلث من القماش الأبيض ترتفع مثل زهرة عفوية ثانية. كانت هذه

¹³⁸ Targelion ثارجيليون هو الشهر الحادي عشر من التقويم اليوناني القديم المعمول به في منطقة أثينا. كان يستمر لمدة 30 يوماً، تقريباً بين 23 أبريل و21 يونيو من التقويم الحالي. وقد أخذ اسمه من الكلمة الإغريقية لمهرجان ثارجيليون تكريماً لأبولو وأرتميس. ...

¹³⁹ les Anthesphories champêtres بين الشعوب الهيلينية، أصبح ديونيسوس قبل كل شيء إلهاً ريفياً، الإله الذي كان يرأس الحصاد والقطاف وجني العنب.

الخيام تؤوي نساء سرقوسة اللاتي كانت منازلهن بعيدة جداً في المدينة؛ وقد وصلن اثنتين اثنتين، موفدات من قبل مقاطعاتهن للمشاركة في الاحتفالات المبهجة. مهرجان النساء ومهرجان الزهور وتم استبعاد الرجال فقط من البستان المقدس.

ولم تكن رودوكلي، زوجة ثيوفراستوس الوديعه، ممن يفوتون مثل هذه المتعة. وأمسكت فاني وداماليس الشاحب من يدها، وسارت إلى النبع الأبيض والابتسامه تعلقو وجهها. يا لها من بهجة أن تكون في الهواء الطلق مرة أخرى، دون خوف من السهام الرومانية، بعد تقلبات الحصار، وأن تستغل الاسترخاء الذي أعقب رحيل مارسيلوس لتغادر البوابات وتنزل برفق إلى سيانيا بل إلى شواطئ أنابوس حيث كان جيش الحصار لا يزال معسكراً! ولكن أكثر ما كان يبهج رودوكلي في هذه الاحتفالات، وأكثر ما كان يضي عليها أهمية استثنائية في ذهنها، هو أن ثيوفراستوس لم يتمكن من مرافقتها. لقد كانت مسرورة كالطفل الذي ينفذ عن سيده نير حنانه للحظة، فثارت ثائرتها، وجذبت صديقتها من يدها. - أسرع، أسرع! ألا تفهمان أننا سنصل متأخرين، بعد موكب العذارى؟ كل يوم يذهبن إلى ضفاف النبع السياني ليقمن بالوضوء الطقسي وينزعن عصابات أعينهن. لن نتمكن من رؤية أي شيء إذا لم نكن هناك في البداية.

- "أجابت داماليس بضعف: "ما الذي يهم؟ المهم أن نحضر اجتماع المعبد. يقال أنه سيكون هناك توزيع للكعك المقدس وأن جميع النساء سيحملن

المشاعل. " قالت فاني وهي خجولة: "أنا مثل رودوكلي وأود أكثر من أي شيء آخر أن أرى وجوه الكاهنات وخاصة الكاهنة! هل تعرفين اسمها؟ أليس اسمها براكسيلا؟

-أجل، أجل، إنها براكسيلا هكذا ينادونها. " قالت رودوكلي وهي لا تزال تسرع إلى الأمام، وكانت قد تركت أيدي رفيقتهما وهي الآن تجري إلى الأمام. اقتربت داماليس وفاني أكثر. ولم تكن جاسنتا الشاحبة لم تكن قد هدأت بعد من ترملمها، أما فاني فقد كان قلبها منزعجاً من فرط حنانها على دوركاس، وكان لا يزال يبحث عن قلب آخر يصب فيه نفسه.

- قالت فاني: يا للأسف أن الرجال مستبعدون من هذه الحفلة! كان دوركاس سيأتي معنا. لقد اغرورقت عيناه بالدموع حين رأني أغادر بدونه الآن. أه! " قالت داماليس: "وماذا قال لك يا فاني العزيزة؟

-لا شيء تقريباً، ولكنني لا أحتاج إلى كلمات لأفهم ما يدور في داخله. إن له روحاً بطولية حبيبي دوركاس!

-انتبهي يا عزيزتي فاني، " وتابعت داماليس: "إن الحزن علامة سيئة في الرجل؛ فهو يدل دائماً تقريباً على ميله إلى بعض العواطف القتالة. إن زوجي الحنون الذي أخذته الآلهة مني، حين لم نكن قد قطفنا بعد كل ثمار شجرة الحب، لم يلبث إلا ساعات قليلة قبل أن يموت.

وعندما سألته عن السبب، أجابني: "داماليس، يا عزيزة الروح، انظري إلى تلك الغيوم التي تمرّ أمامك. إنهم لا يعرفون لماذا يحجبون الضوء، وأنا

نفسي لا أعرف سبب هذه الكآبة التي تغزو عقلي تدريجياً". ثم جذبني على كتفه وأبقى فمي على فمه. كانت تلك قبلتنا الأخيرة.

ولكن رودوكليه، والورود في وجنتيها والضحكات في عينيها، استدارت فجأة: - اسمعي، اسمعي! كل أنواع الموسيقى يمكن سماعها بالفعل. يا له من فرح! إنها قضية من يغني أحسن غناء، المزامير على شفاه الفتيات الصغيرات، أم الطائر المغرد المتوج على الأغصان...

وبالفعل، لا شيء يمكن أن يقارن بالبهجة الهادئة التي تسود هذه الظهيرة الربيعية. يمكنك أن ترى حياة النباتات تتفتح تحت أجنحة الشمس الدافئة. بدا للشبابات الثلاث أن الزهور تنبت في العشب الجديد أثناء مرورهن. كانت رائحة العسل واللبن تفوح من الأسدية الصغيرة حيث كان النحل يتجمع ومن لحاء زهر العسل الطري. كان الأمر كما لو كانت الأرض قد خرجت من البيضة البدائية، بيضاء وخضراء تماماً، خضرة بالكاد تشكلت، خضرة صفراء من حبوب اللقاح أو العنبر السائل: كانت الأرض هي الطائر الرائع الخارج من البيضة البدائية، لم تتلوث بعد بأي نفس. وشربت الشابتان، دون أن تفكرا في ذلك، جرعات طويلة من هذا المسكر. وفجأة، في تلك اللحظة، نسيت قلوبهن الحضن الهش الذي كان يحيط بهن وتاهت في حضن الطبيعة الواسع المهدئ.

كانت رودوكلي نفسها قد أبطأت من سرعتها، وكانت تضع ذراعها حول خصر كل من فاني وداماليس وتتبع الطريق المؤدي إلى البركة المقدسة.

وكان هذا الطريق قد سلكته عدة مرات منذ الصباح، ولكن العشب كان لا يزال ناعماً وكان بالإمكان الشعور بنضارة لذينة كلما اقترب من النبع. وتحدثت الشابات الثلاث بنبرات خافتة حتى لا تخيف روح سيان، الحورية ذات العيون الزرقاء التي تحولت إلى نافورة من البكاء على اختطاف رفيقتها العزيزة بيرسيفونيا...

-لقد أخبرتك"، تمتت رودوكلي، "أننا سنتأخر. لقد توقفت كل الموسيقى ونحن حول البركة. من خلال القصب أستطيع أن أرى العصابة الذهبية للهيروفانتيد.

- فأجابت فاني وجاسنتا الحلوة معاً، واصطففت العذارى على حافة الكأس الزرقاء التي امتلأت بدموع الحورية. كان مكاناً يسوده الصمت والظل، يحميه حزام كثيف من العليق. كان مكاناً تنسى فيه كل شيء عن الطبيعة والربيع نفسه، لدرجة أنك تشعر أن الأيام الجميلة لن تنتهي أبداً. وهناك، كانت العرائس الشابات يتحادثن مع الجنيات والعذارى صديقات الملمهمات. لا يوجد مكان آخر يمكنك أن تتنفس فيه مثل هذه الروائح، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن تتفتح فيه شفاه الزهور الرطبة ببهجة أكبر لتشرب الندى...

وكانت براكسيلا أول من أزاحت العصابة عن عينيها وأسقطت نقابها، وانحنى خلفها حشد النساء لينظرن إلى وجهها في انعكاس الأمواج، كما لو كان في مرآة صافية. وسرعان ما ظهر هذا الوجه المثير للإعجاب متألقاً بين

وجوه العذارى الأخريات، اللاتي كُشفن عن أنفسهن واحدة تلو الأخرى. ومن حول البركة الزرقاء شكلن جولة سائلة من العذارى اللاتي ظلت أجسادهن حبيسة بلورة المياه، وظهرت وجوههن العارية وحدها بين سنابل البردي وآثار زنباق الماء؛ وكان شعرهن كالكروم الطرية وعيونهن كالكؤوس الغامضة؛ وكان بياض بشرتهن يشكل بقعاً مضيئة بين ظلال الجذوع الممتدة.

وابتسمت الكاهنتان الصغيرتان لرؤية نفسيهما هكذا كآلهة الأمواج؛ وأظهرت نايس وملتين قشور أسنانهما اللؤلؤية؛ وحاولت جلاوسيه وهي أصغرهن أن تلتقط نظرات رفيقاتها المألوفة من خلال هذه المرأة المتحركة. براكسيلا وحدها أبقت على جمالها منيعاً ومغلقاً كإناء ثمين. غمست الهيروفانتيدي أطراف أصابعها في النبع، وبللت جبينها واستنجدت سيان أختها المباركة: (أهذه عيناك يا حورية التي يضمها الموج العابر في ثناياه، أم هي لازوردية السماء؟ هل هي تهادتك أم الأنفاس الإلهية لبيرسيفونيا التي كانت تجمع معك النرجس على هذا الشاطئ عندما اختطفها بلوتو من النور، والتي لا تزال تجعل حنجرتك ترتجف كل صباح وهي ترتفع تحت القصب؟ سيان يا أكثر العذارى عذرية، كوني معنا لنحتفل بالإلهة المحبوبة؛ عسى أن يطهر تعميدك على جباهنا من كل دنس غير مرئي ويجعلنا مثلك. كانت كل واحدة من الكاهنات قد قامت بالوضوء الطقسي بالتناوب، والآن جاء دور النساء ليأتين ويتطهرن عند النبع المقدس. اقترين

اثنتين اثنتين، بعضهن بخجل، وأخريات بحماس شديد. كانت براكسيلا تراقهن وهن يمررن أمامها، ومعظمهن يرتدين شيتوناً بسيطاً من قماش فاتح اللون يسمح للحم أكتافهن الذهبي أن يزدهر بحرية في الهواء الدافئ؛ أما الأكبر سنًا منهن فقد ارتدت وشاحاً رقيقاً تحت إبطيها. ولكنهن جميعاً، مع الزهور في شعورهن وأغصان الأس في أيديهن، استحضرن جميعاً فكرة الربيع المجيد الذي تحتفل به الإناث "أنثيسفوريس"¹⁴⁰. كلهن استحضرن جميعاً فكرة الربيع المجيد والحب المجيد ... وأغمضت براكسيلا جفنيها. وتحدثت إليها أشياء كثيرة جداً في تلك اللحظة عن مباحج لم تكن لتعرفها أبداً، واتجهت أفكارها على الرغم من نفسها إلى دوركاس، إلى الصديق الذي ضحت به ببطولة أمام وازع ضميرها الناشئ. دوركاس! ما كانت تود أن يكون لها منه في تلك اللحظة ذكرى، أو علامة، بل أقل من ذلك، جزء من الهواء الذي كان يتنفسه، أو شيء تقع عليه عيناها المتحمستان!

وفجأة شعرت الهيروفانتيد بنفسها تحمر خجلاً؛ فقد رأت للتو فاني الشقراء على بعد خطوات قليلة أمامها، وهي تتقدم مع داماليس. وبدت الشابتان مفتونتين بنفس القدر، ولكن بينما كانت داماليس تميل في خشوع نحو النبع، ظلت عينا فاني الفضوليتان مثبتتين بحماس على براكسيلا. وقد تعرفت كل منهما على الأخرى منذ ذلك اليوم الذي جاءت

¹⁴⁰Anthesphories أنثيسفوريس، أو مهرجان الزهور، يُحتفل به في صقلية وهيبونوم في إيطاليا والبيلوبونيز، تكريماً لكوريه أو بيرسيفوني.

فيه الزوجة الصغيرة تحت رواق أريثوزا لتبوح بهومها إلى المتنبي. ومرة أخرى كانت صورة دوركاس تطفو بينهما وتلفهما في نفس الجو من العواطف الحميمة. وتصاعدت الكلمات إلى شفتي براكسيلا ولكنها حاولت أن تكتمها، ولكن فاني كانت تهمس في أذنها:

-أشكرك، أه شكراً لك، أه شكراً لك، لقد استجيبت دعواتك، فزوجي العزيز لا يزال حياً!" قالت براكسيلا بصوت متخاذل أليس من واجب الكاهنات أن يصلين من أجل كل من يدافع عن المدينة؟ إذن لم يتأذى على الإطلاق؟

-على الإطلاق! وهذه بالتأكيد معجزة الكثير ممن هم أقل تهوراً منه قد أصيبوا بسهام الرومان! أجل، أنا متأكدة من ذلك، فبفضلك أنت، وبفضل تدخلك ما زلت أحتفظ بعزيزي دوركاس!

واندفعت براكسيلا في شغف وشفتيها لا تزالان تحترقان بالحب، وسعت إلى تقبيل أصابعها الشاحبة؛ وتقبلت هذه القبلة من زوجة دوركاس الحنون؛ وتلقته كعربون مواساة أرسلته إليها الآلهة. وكانت حلوة بالنسبة لها.

الفصل الثاني

وكان الجنود المرتزقة الصغار الذين تركهم مارسيلوس هناك مع جحافلهم للحفاظ على الحصار، لا يفكرون في شيء آخر غير اللهو والمرح. كانوا قد خلعوا دروعهم وارتدوا خوذات منسوجة من النباتات المائية، وكانوا يصطادون الأنقليس في مياه النهر ذات اللون الخمري. وفي مقابلهم، لا يفصل بينهما سوى عرض التيار، كان هناك جنود آخرون صغار الحجم، أحدث المجندين في جيش سرقوسة كانوا يلقون بحبالهم في المياه المليئة بالأسمك.

في البداية نظر كل منهم إلى الآخر دون أن ينبس ببنت شفة، كما يليق بالأعداء، كل منهم يدرك القوة التي لا يمكن اختزالها التي يمثلها. وكلهم يعلم أنه لم يكن من المفروض أن يتناسلوا معاً، وأن الأمواج الذهبية التي كان النهر يتدحرج بها بين سياجي البردي كانت تشكل خطأ فاصلاً لا يمكن تجاوزه من شاطئ إلى آخر. ومع ذلك فقد كانت نفس الشمس الدافئة التي كانت تداعب جباه الشباب؛ وكانت نفس النباتات العطرة التي كانت تتخلل خياشيمهم بمهارة. وكانت أيضاً نفس الرغبة في الانسجام الأخوي والبهجة التي جلبها لهم النسيم العليل وصدى الرقصات البعيدة وأغاني الناي... هنا واحد"، قالها صوت عالٍ فجأة، "هنا واحد من شأنه أن يبتلع رمح مارسيلوس إذا ما أعطيته له كخطاف!

على الضفة الأخرى، ضحك أحد المرتزقة السيلتيبيريين الشباب في الجيش الروماني:

- من الواضح أنك من السكان المحليين. قال الجندي الصغير: "أنا لست من البلد، أنا من لاسيديمونيا، لكن الأمر سيان: كلنا دوريان، كلنا إخوة. نحن نقاتل من أجل بعضنا البعض، مع الثأر. كان تبادل الكلمات هذا كافياً لجعل المحادثة عامة. قال سلتيبيري آخر بعد لحظة، "ما لا أفهمه" هو كيف يمكن لأي شخص أن يفكر في القتال تحت هذه السماء الجميلة.

- آه، نعم، المكان جميل هنا! تهتد داميبوس، الصياد الصغير من لاسيديمونيا. إن المكان هنا أفضل من أي مكان آخر؛ حتى أنك تستطيع أن تنسى عائلتك ووطنك الحقيقي. كيف يمكن لمارسيلوس أن يفكر في تدمير مثل هذه المدينة الرائعة، فأجابه جندي في الجيش الروماني: "ألا يمكن لوم السرقوسيين على إبقاء مصدر فتنة أخطر من هذا داخل أسوارهم؟ ألم تعهدوا بأقدس مصالحكم إلى القرطاجنيين، وهم أكثر الناس خبثاً وكذباً؟

-قال داميبوس: "قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن من يدري؟ ليس هناك بلد، كما يقول المثل، يجعل الرجال صالحين تماماً أو سيئين تماماً. بعد أن قال

هذا الكلام، ألقى داميبوس الصياد اللديموني الصغير بحبله المشذب بأربعة صفوف من الحبال المرنة في النهر.

ومن الجانب الآخر من الماء جاء صوت المرتزق: "يقال أن هيموقراط قد أحضر جيشاً كبيراً والعديد من الفيلة من أفريقيا، بل ومن أعمدة هرقل. كل هذه القوات تم تجميعها في معسكر أسيلس. لكن مارسيلوس، على ما أعتقد، لا يفكر في الذهاب إلى المعركة معه. إنه مشغول جداً في الوقت الحالي بالاستيلاء على كاتانيا.

- قال داميبوس: "هنيئاً له!". ألا يتمنى لو كان بين روما وأرض البرابرة العظيمة عدة صقليات؛ وسكت، لأن أصواتاً جديدة متصلة بعضها ببعض في هدوء كانت قد عبرت لتوها سياج البردي؛ وعلى الطريق، في مسحوق الشمس الأشقر، ظهرت نظرية فتيات صغيرات. كن يرتدين ثياباً لازوردية اللون، وكان لحم أذرعهن العارية يلمع مثل الرخام الجميل ذي الحبة الصلبة المحكمة. وكان غناؤهن دائماً تلك الأهازيج الساذجة التي كانت تهدد أحلامهن بالحب في كل الفصول:

"قل لي، من هو الذي سيفك شعري؟ لمعرفة اسمه، سألت القصب. قل لي، من هو الذي سيقبل شفتي؟ لأرى صورته، انحنيت إلى جوف النبع. - أخبريني، أخبريني، أين بيته؟ وأنتن أيتها الحمائم العاشقة، يا طيور السبيريس المخلصة، افتحن أجنحتكن واحملن أنفاسي عبر الفضاء إليه..." طارتا على جانبي الشاطئ، ونسي الجنود الحاملون الصغار أن

يرسموا خطهم. وعندما اختفوا رفع أحدهم بحزن الخطاب الذي كانت تتدلى منه ثعبان البحر المرتجف.

- وكانت جوليس هناك في موقفها المألوف وقبضتها على وركيها وحلقها يرفرف تحت ثوبها. وتابعت: "آه! آه! كم كانت ترتجف قبل أن تسمح لنفسها بأن تؤخذ! هذا ليس من شيمك يا أمي! قالها أحد الجنود بقله احترام. والله يا هيراكليس! أراهن أنك لن تثيري مثل هذه الضجة...

-قالت جوليس متبجحة: (أنت مخطئ) ثم أردفت: (أنا امرأة نزيهة، والدليل على ذلك أنني عدت لتوي من البستان المقدس حيث لا يدخله مع الكاهنات إلا الزوجات غير الملامات).

- حسناً، حسناً! أنت تعرفين كيف تسير الأمور فضيلة المرأة أن لا تخطئ في حق زوجها أبداً، علانية. وإلا فبدلاً من أن نرى المئات والمئات من الستر في الأنثيسفوريات لا نرى سوى عشرات أو نحو ذلك.

-يقول الرجال ذلك من باب الحقد"، ردت عليه جوليس قائلة: "لأن الرجال يقولون ذلك من باب الحقد، لأنهم مبعدون عن الأعياد. ولكن اصبروا! سيأتي دورهم: بعد أنثيسفورياس، سيأتي دور الثيسموفورياس؛ وبعد الثيسموفورياس، سيأتي دور الثالثيسياس الذي ستُنصب له موائد الولائم في الهواء الطلق. وفي ذلك اليوم، سيأتي أورثون، زوجي المخلص، ليقيم وليمة إلى جانب زوجته.

وضحك جميع الجنود الصغار على جانبي أنابوس من كلا الجانبين، فقد كانت هذه هي الطبيعة المرعبة لمشاعر جوليس الزوجية.

- أنت يا سرقوسة"، قال السيلتييري الذي رد أولاً على داميبوس: "من السهل أن تقول إنك ستصنع قنبلة؛ ولكن كيف ستفعل ذلك؟ لا بد أن مخازن الحبوب في المدينة كانت فارغة منذ أن كنا نسحب منها لإطعام السكان؟ لكن لا تقلق، سنجد دائماً مخرجاً. أما جوليس، فهي ليست من النساء اللاتي يتركن رجلاً شريفاً في موقف حرج، وقد احمرت خجلاً ونظرت إلى الشاب السيلتييري بتعبير جذاب، ومرة أخرى كسر صوتها السمين الصمت: - سنأكل الأنقليس إذا كان هذا أفضل ما يمكننا فعله. وبفضل المياه اللطيفة، فهي ليست نادرة في النهر؛ وأنا أعرف مكاناً يوجد فيه الكثير منها.

"-سأل الشاب السيلتييري، مغروراً: "أين هذا؟

-في مستنقعات ليسيماليا وسيراكو، ليس بعيداً من هنا. ما عليك سوى أن تنحني لالتقاطها. قال داميبوس وقد تنبه فجأة إلى واجبه: "إنهما بحجم فخذي!"

غير أن جوليس رأت أن لا شيء لها في هذه الأنحاء لا بد أن تفعله في هذه الأثناء، فعادت أدراجها نحو البلدة. وكان الجنود يراقبونها وهي تمشي مبتعدة، ضخمة مستديرة مليئة بالشهوة قالوا: (لقد نجونا بأعجوبة، ولكن احترسوا من الزوج المخلص الليلة!)

وضحكا أكثر من ذلك وتبادلا بعض النكات الفجة، ولكن سرعان ما لحق بهما الشعر الذي كان يملأ الجو. وهجروا السطور. وعلى الأرض، بين أشجار البردي، كانت الشباك محملة بغنائم الصيد مغطاة بأوراق كبيرة مقطوفة حديثاً. ثم قام أحد الجنود الشبان بقطع قصبه وصنع لنفسه مزماراً ريفياً، تناوبت ألحانه العذبة الرصينة مع ألحان المزامير الأخرى البعيدة. وغنى أيضاً عندليب أحمر كان يعشش تحت أوراق الشجيرات. ووقفت مجموعة من الفتيات الراقصات - نفس الفتيات اللاتي مررن في وقت سابق على الطريق الشقراء - على قمة التل القريبة.

وتشابكت أيديهما ورددوا أغنية الحب. ثم سكت الناي، وخفتت كل الأصوات الأخرى، وتوقف عندليب نفسه عن الهمس تحت أوراق الشجر. ولم يبق في السماء الشاسعة الصافية إلا انسجام هذه الجولة من الفتيات الصغيرات وهن يحتفلن بافتراقهن في الحب. وارتفعت ظلالهن الزرقاء على السماء اللازوردية وانحدرت ظلال طويلة شفافة ذات لون أزرق شاحب، تنفصل عن الضوء الباهت من كل نقاط الأفق وتغطي السهل...

الفصل الثالث

كان داميبوس الصياد اللّسديموني¹⁴¹ الصغير حريصاً على عدم إطلاع مرتزقة الجيش الروماني على سر وجوده في المدينة. في الواقع، على الرغم من الحصار الصارم، لم يتوقف السرقوسيون عن معرفة ما يحدث في الخارج. فقد كانوا يعرفون يوماً بعد يوم ما كان يجري مع مارسيلوس الذي بدا منذ رحيله وكأنه استعاد حظه من أسلحته. كما كانوا يعلمون أيضاً بمناورات هيموقراط الذي كان تكتيكه هو التمرکز بين سرقوسة والقوات الرومانية ليقطع عليهم الطريق. كم كان هناك الكثير مما لم يكن معروفاً! التقارير السرية والرسائل تم تبادلها. وكان كل ذلك بمساعدة داميبوس، ذلك الجندي المقدوني الصغير، الشجاع كسيفه والبارع كأبي شخص آخر. وفي المساء، في ساعة غير محددة بعد الغسق، بعد أن تكون الشمس قد غربت ولم يكن القمر قد أشرق في السماء بعد، كان داميبوس يغادر الميناء في قارب ضيق عميق يحاكي شكل سمكة قرش؛ وكان يستلقي فيه ملفوفاً في جلد أحد هذه الوحوش البحرية وهكذا كان يتسلل عبر ثلم الأمواج بين سفن الأسطول الروماني التي كانت تشكل خط الدفاع في عرض البحر. وكانت حيلته ذكية جداً لدرجة أن العين المدربة للحراس لم تكتشف أبداً

¹⁴¹ من لاسيديمونيا (سبارتا) اليونان

سر الصياد الصغير الذي كان يهتز في الظل فوق الهاوية حاملاً معه أخبار العالم الخارجي إلى سرقوسة.

لكن ذات ليلة كانت الأخبار سيئة. كان إبيسيديس¹⁴²، الذي كان ينتظر عودة داميبوس حتى يتمكن من فتح أبواب القلعة، رأى على الفور من شحوب وجهه أن الأحداث قد اتخذت منحى نحو الأسوأ. كان مارسيلوس في الواقع قد استولى على ليونتيوم وكاتانيا على التوالي، ثم استولى على ميجارا الهبيلية - مدينة العسل - وفي الحال، ودون أن يعطي الجيوش المتحمسة وقتاً لتبرد حماسها، ذهب ليفاجئ المعسكر القرطاجي في أكيلاس، فأسرع هيموقراط الذي استيقظ من سكون نومه إلى رأس جيشه وقذف به في صفوف العدو. لقد كان يعول على دوار أحد تلك الاشتباكات العفوية التي كان رجاله ينتصرون فيها دائماً تقريباً. ولكن الرومان في هذه المرة كانوا مسلحين برماح طويلة جداً أحبطت جراءة القرطاجيين الذين كانت سيوفهم القصيرة لا تكاد تتجاوز قبضاتهم المضمومة.

أثناء هذه الرواية التي رواها الشاب اللسيديموني، كان إبيسيديس قد استولى عليه اضطراب شديد؛ وكان وجهه الذي كان في العادة غامضاً متجهماً هادئ الطبع، قد أصبح فجأة متقدماً من الغضب الذي كان يتقد

¹⁴² Épicyle إبيسيديس، الذي نُفي والده السرقوسي إلى قرطاج لأسباب سياسية (كان والده معارضاً لأغاثوكليس)، وكانت أمه قرطاجية.

في نفسه، كالطين البليد المسامي للمصباح الذي يضيء بمجرد احتراق الزيت الذي في جوانبه: (هذه نهاية كل شيء! كان الجيش الذي جمعه أخي هو الحاجز الوحيد الذي يمكن أن يمنع مارسيلوس من محاولة العودة الهجومية إلى المدينة. ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟ وكيف نعود إلينا؟ على افتراض أن أرخميدس لا يزال قادرًا على إبعاد الفيالق الرومانية عن المدينة، فقد خسرت المعركة بالفعل. لم يقل هذا الكلام لداميبيوس الذي لم يعد ينتبه إليه، بل قال ذلك في مونولوج غاضب غير مؤكد، كان يردد كل جملة منه وهو يمشي محمومًا في الصالة الضيقة المطلة على البرج. وبعد أن سكت، استمر في الذهاب والإياب، وهو يصطدم بالجدران مثل وحش متوحش فقد كل أمل في استعادة حرته بعد أن رأى مدربه يتعد عن قفصه.

- لكن الباب انفتح وانزلق أورثون بينه وبين دامبيوس. وكان قد جاء قبل الآخرين جميعاً ليجمع الأخبار سرّاً ويأخذ أوامر إيسيبوس السرية. وتظاهر في البداية بأنه لم يفهم مغزى هزيمة هيموقراط، واكتفى بأن يقول بلهجة خافتة: (إن هذا لن يفعل شيئاً لتعزيز هيبة الحزب القرطاجي بين الناس!

- الناس!" أجاب إيسيد بفضاظة. لكنهم لن يعرفوا، الشعب! لا يجب أن يعرفوا، افهمني جيداً، إنهم في سلام، دعهم يستريحون إذا كانوا في سلام!" قال أورثون بتجهم من السخرية. لقد مضى وقت طويل منذ أن أقيمت

الاحتفالات في وسط هذا الشعور بالخذلان. وكأن الراعي أريستايوس لا يزال يسهر على بساتين سرقوسة ومحقنته على أطراف شفثيه يلهو بها النحل والبشر معاً. فقط انظروا!

لقد كان قد اقترب من البلفيدير الضيق المطل على الأفق، وكان يري إبيسيد سعة الريف والمدينة والبحر. وكان الفجر قد بدأ للتو يلقي بصيصاً خافتاً من الضوء من خلال ضباب الليل؛ وكان كل شيء نائماً في هذا الفتور، كل شيء مستنداً إلى مهد الأرض الوردية الذي بدا وكأنه ملفوف في خيوط مسدودة هشة، شرائط ضيقة متغيرة الألوان.

بدت مدينة سرقوسة الملتهبة وكأنها غارقة في سبات لا نهاية له. لم تكن هناك حياة يمكن رؤيتها على شرفات الأسطح أو أمام المعابد أو في الساحات. وكانت أشبه بمدينة لا يسكنها سوى التماثيل، مدينة الأبطال الرخاميين والمفكرين الذهبيين، حيث كانت الأروقة المزينة بالنقوش البارزة والأقواس المثقلة بالجوائز لا تخدم سوى استحضار ذكرى سلاله اندثرت أمام الآلهة. والبحر أيضاً كان فارغاً بلا حراك، بلا لمحات من أجساد الدلافين التي تتدفق بالرغوة أو أجنحة السريلانكا الفضية. - قال إبيسيد وهو يمد يده: "أودع كل هذا".

هذه المرة، شحب لون أورثون:

-ماذا؟ هل تفكر في الرحيل؟ قال: لا، بل أفكر في أن أرحل إلى حيث أذهب؛ ولكن ماذا سيحل بالذين التزموا بقضيتك؟ وعلى أية حال، فإن الفرصة

الوحيدة المتبقية لي هي أن أذهب وأنضم إلى أخي وأحاول مساعدته في خطته. ماذا سأفعل هنا بعد الآن؟ لكي يستعيد الحزب القرطاجي قوته في سرقوسة .

يجب أولاً أن ينتصر على الرومان. وإذا بقيت واستولى مارسيلوس على القلعة ماذا سيقول الناس؟ ألن أتهم بخيانة المصالح التي كلفت بالدفاع عنها؟ لا، لا، لا يمكنني البقاء، يجب أن أذهب وأنضم إلى هيموقراط. - قال أورثون: "لقد نسيت أن المدينة محاصرة من جميع الجهات على بعد ثلاثين فرسخاً من الأسوار. لا أحد يستطيع أن يخترق الحصار، لا أحد يستطيع أن يخترقه وأنت على الأقل.

- ولكن يجب علينا ذلك"، أجاب إيسيديس بصوت مخنوق.

ثم أضاف مستأنفاً لنفسه المناجاة التي قاطعها أورثون: "عندما يقترب مارسيلوس أكثر سيصبح رحيلي أكثر استحالة. يجب أن أفر في الحال، قبل أن تستأنف الأعمال العدائية. وفكر للحظات قليلة، ورأسه مطأطئ، وكتفاه ترتجفان من القلق؛ ولم يبد أي من المشاريع التي عرضت على ذهنه ممكنة التنفيذ؛ واستمر يتأمل في نفسه، دون أن يقلق من أورثون، ساعده الأيمن، وحليفه المهبوس.

- أنا أعلم، أنا أعلم!" وصاح أخيراً، وبصوته الأَجَش الذي استعاد نبرته الأمرة نادی: "داميبوس!" ولم يتوقف اللديموني الصغير الذي كان لا يزال متكئاً على درابزين البلفيدير عن النظر إلى الأفق. وَكَانَ النَّهَارُ قَدْ بَزَغَ الْآنَ

وَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وكان كل شيء قد استيقظ في شوارع المدينة، وعلى أمواج البحر، وفي أخاديد الحقول. كان الصمت العظيم قد أفسح المجال لطنين شامل مشوش، كان إيقاع النور والحياة يدندن فيه. كانت الأشكال الواضحة تتحرك تحت ستار الأشجار؛ والطيور المتألثة تعبر الفضاء؛ والأشعة البيضاء الصغيرة ترتجف بين صدور الأمواج المتورمة.

- داميبوس! "كرر القرطاجي بعصبية شديدة، وعندما استدار الشاب: "أنت من سيوصلني عبر الحصار. سأركب قاربك. لا أريد شيئاً"، قال داميبوس. فعلت ما فعلت من أجل مصلحة إخواننا في سرقوسة. إذا كنت أخاطر بحياتي، فليس من أجل الذهب، فابتسم أورثون بخبث: - هنيئاً لك! الآن أنت تتكلم."

ولكن هذه الفكرة فتحت عيني الصغير اللسديموني وجعلته يغير موقفه فجأة. وقرر في بادئ الأمر أن يرفض ما طلبه منه إبسيديثم استأنف: - إذا كنت تطلب ذلك فسوف أنقلك، ولكن بدون مقابل، ولا سبيل غير ذلك. قلت لك، أنا لا آخذ مالاً مقابل خدماتي.

- قال إبسيديس: "لا بأس، أنت فخور جداً؛ يمكننا أن نرى أنك من لاسيديمونيا. قال داميبوس: (أنا مدين لك بالامتنان؟ أنا مدين لك أيضاً) ولم ينتظر أورثون انتهاء المقابلة قبل أن يسرع إلى البيت. وكان الغضب قد هز أطرافه الواهنة وشحب اللون الأصفر الذي كان ينتشر عادة على

وجنتيه. أيقظ جوليس التي كانت لا تزال نائمة وفمها فاغراً وذراعاها خارج الوسائد: (إن إبيسيد راحل!)

- حسناً؟ رحلة سعيدة!" قالت المرأة السمينة دون أن تفتح عينها. "هذه اللامبالاة جعلت أورثون الذي كان نصف غاضب أصلاً في حالة من الغضب يصل إلى ذروته. أمسك جوليس من ذراعها وهزها عدة مرات.
- كيف تجرئين! كيف تجرئين على قول ذلك! أيتها الغبية، الحمقاء، رأس الخنزير!

- أنت! هناك! ليس بصوت مرتفع!" تأوهت جوليس. ألا تفهم يا أورثون - وهو يمسح صدغيه - أن رحيل إبيسيد بعد رحيل هيموقراط انتصار أكيد لدوركاس وأرخميدس؛ وأن شرف الدفاع سيكون لهم يوم يظهر الرومان من جديد؟ ثم تمتم بأسنانه قائلاً: (ناهيك عن أنني إذا فقدت تأري فقد خسرت كل ما وعدت به، وكل ما هو مستحق لي) قال جوليس وقد نهضت جوليس وكانت قد ارتدت سترتها: (لا يزال لديك مارسيلوس. لماذا لا تعودين إليه؟

ولم يرد أورثون؛ وبعد أن عاد إلى دكانه التقط إزميله. لكنه كان يعمل بيد مشتتة، وتتبع أفكاره الأثر الذي فتحه له جوليس. "بالأمس إلى سرقوسة"، غمغم، "واليوم إلى قرطاج، وغداً إلى روما. ما الذي يهم؟ إن التمثال الذي يزين هذا الكأس لن يكون أقل جمالاً. وواصل عمله، بينما كان كل ما حوله يلمع في سيمفونية من الذهب والبرونز فخر رؤوس النساء

الشمينة، ونحافة الحوريات المتوجة بالقصب، وكثير من روائع الفن الراقي
البديع الذي لا يمكن أن يعرف سره إلا ابن اليونان.

الفصل الرابع

استقبل خبر رحيل إبيسيد بارتياح في جميع أنحاء المدينة. فقد شعر الناس، بحسبهم السليم الصارم، أن ذلك كان أمراً جيداً، وأن حراسة القلعة ستكون أفضل من حراسة السرقوسيين في سرقوسة من حراسة جنرال مؤقت لا تزال وطنيته مشكوكاً فيها. وفي إيببولي، ابتهج دوركاس بحقيقة أن الحزب القرطاجي قد تم القضاء عليه نهائياً. وفي القصر الملكي القديم في أورتيجيا، حيث استأنف تأملاته الصامتة، ابتسم أرخميدس في شفقة.

وهكذا، أكثر من أي وقت مضى، كانت النفوس في حالة من الثقة: كل ما كان يمكن أن تفكر فيه هو الاحتفال السعيد بالألوهية. ونفس الموجة من التدين الصوفي، ونفس الحاجة إلى الاحتفال بالألوهية في سياق الطبيعة، دفعت النساء إلى بركة سيان الزرقاء، بينما الرجال - ألم يكن من القليل أن يتبعهم الرجال؟ - توافدوا إلى أوليمبيوم زيوس العظيم، خارج البوابات والمطل على السهل.

كان أكبر معبد في المنطقة، كما كان زيوس أكبر الآلهة. هنا كان الإله الذي يحمل الاسم نفسه يصلي من أجل الشعب كل يوم، وحيث كان المحاربون المنتصرون يأتون لتعليق حزم أسلحتهم. كان مبنياً على تلة منخفضة، على مسافة قصيرة من البقعة الباردة الظليلة حيث تنزلق مياه سيان تحت

البردي وتنضم إلى مياه أنابوس. وكان أقرب من ذلك قبر جيلون الأول الذي بنى هذا الصرح، وقبر زوجته السخية داماريتا؛ وكنا يرقدان تحت شاهدة رخامية من الرخام المكسو باليشب الذي غطاه الربيع بأزهار متعددة الألوان؛ وفي كل مكان حوله، حتى الدرج المؤدي إلى الأولمبيوم العظيم، كانت هذه الأزهار نفسها تنمو بوفرة هائلة وتختلط بالحجارة والعشب والشجيرات.

كان زيوس باتر، من على عرشه الذهبي، من خلال الأعمدة المتباعدة وبالفعل، كان شخص الإله بأكمله يثير فكرة القوة اللامتناهية الخلاقة. كانت أبعاده هائلة إلى درجة أنه، حتى وهو جالس، كان يملأ السبيل الواسعة المدعومة بتيلامون عملاق¹⁴³، وكان المصلون الساجدون أمامه يخشون أن يروه فجأة وهو يرتفع ويكتسح بجمهته المشعرة قبو المعبد؛ وبدا النصر ذو الأبعاد البشرية ممسكاً بيده اليمنى تمثالاً صغيراً ضعيفاً وطفلاً صغيراً يتكئ على صدره، وكان يحمل في يده اليسرى صولجاناً مصبوباً من معادن مختلفة ووزنه يعادل وزن برج ضخيم من الصرح؛ وكان عريه المصبوب من العاج يبرز بكل جماله منذ أن سلب دينيس الطاغية الإله العبادة الذهبية التي كانت تغطي أطرافه، ولكن على هذا النحو، بدأ أكثر عظمة وأكثر انحداراً مباشرة من الأولمب. وكان جلاله يفوق كل ما ارتفع حوله، وكل ما صنع لاحتوائه: الأعمدة ذات الوجهين المغروسة في سمك

¹⁴³Télamons géants تمثال ذكر يدعم إفريزاً أو حاشية. كان الإغريق أول من استخدموا القشرة المعمارية

الجدران ذاتها، ومعارك الآلهة والجبابرة المنحوتة من أعلى إلى أسفل (الميتوبات)¹⁴⁴، والأسود الهائلة ذات الرؤوس البشرية التي تحرس المدخل، والتي بدت أعرافها المنبسطة على الطوق وكأنها مصنوعة من بعض الصفائر التي سقطت من شعر زيوس العظيم.

وعلى الرغم من هذا الجهاز المخيف، احتشد المؤمنون بثقة في السيللا¹⁴⁵ واختلطت أصواتهم بأصوات المرتلين لتلاوة الخطبة: "أيها الأب زيوس الساكن في السماوات، ومثير الكون الملتهب المتقد بهاء الأثير الممهر؛ يا من تهز برعودك الإلهية الجبال العالية الصاخبة وكل مساكن المباركين، يا من تمشي في السحاب وترفع أمواج البحار. يا زيوس المبجل، يا حامل الصولجان غير القابل للفساد، يا مولد الكل، نقدم لك كفاراتنا وصلواتنا. تقبلها بالإحسان، وامنح أجسادنا ما تحتاج إليه من غذاء، وأسبغ على أرواحنا عطايا سعيدة، وأنزل على جباهنا بضعة أعمدة من مجدك الذي لا يُردّ."

وزيوس الأب كان لا يزال يبتسم وسط الأبخرة الحمراء للاستيراكس التي كانت تحترق ببطء عند قدميه في فوهات هائلة من البرونز. وعندما انتهت الخطبة، بدأ الإيبونيموس مرة أخرى بصلوات أخرى.

¹⁴⁴ Des métopes géantes فجوات، غالباً ما تكون منحوتة بين ثلاثية...

¹⁴⁵ Cella السيللا (وهي كلمة مشتقة من كلمة لاتينية تعني "الاختباء"، وتعني الغرفة المغلقة) هي الجزء المغلق من المعبد الأتروسكاني ثم المعبد الروماني فيما بعد، ...

كان الناس من خلفه يجددون أنفسهم باستمرار، يجيئون ويذهبون ويسجدون ويتعبدون وينزلون من الدرجات الثلاث في البارديستيل¹⁴⁶. نادرًا ما كان أولئك الذين ظلوا طوال اليوم غارقين في تأملاتهم؛ والنادرون هم أولئك الذين لم تتلق قلوبهم القاسية في دقيقة واحدة سريعة الصدمة الغامضة للحضور الإلهي...

جاء دوركاس أيضًا ليتواضع أمام اللاهوت. أما الآن وقد أصبح لا يستطيع أن يرى براكسيلا، فقد شعر بالعجز وعدم الاستقرار، كسفينة تبحر في ليلة خالية من النجوم. حتى أنه لم يحاول أن يلحمها من بعيد، عندما غادرت معبد الإلهتين أو البستان المقدس لتذهب إلى حافة البركة. وعلى الرغم من أنه لم يكن يؤمن بالخرافات، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة المصادفة الغريبة التي جعلت مارسيلوس يتخلى عن الحصار في اليوم التالي لتضحيتهما البطولية. ومن المسلم به أن الفضل في ذلك يعود بالكامل إلى عبقرية أرخميدس وحضوره الذهني الخارق للعادة الذي أظهره مرارًا وتكرارًا في صد جميع الهجمات. ولكن فوق عبقرية الرجال، وفوق شجاعة الجنود والقادة، عرف دوركاس أن هناك قوة موجهة تنظم الأحداث على هواها وتحبط كل التنبؤات البشرية. وفي هذه القوة كان يحب أن يربك نفسه، وأن يفني نفسه بلا احتياط، ويدوق لذة الاسترضاء

¹⁴⁶ Pérityle صف أعمدة يحيط بالفناء الداخلي لمبنى أو مرتبة حول مبنى.

والراحة، وهي الوحيدة التي كان يستطيع أن يختبرها في حالة المعاناة المعنوية التي وجد نفسه فيها؛ وكان يشكر براكسيلا في قلبه لأنها علمته حلاوة الصلاة. بعد أن انتهى من عبادته، أراد دوركاس بدوره أن يغادر الأولمبيوم. ومع ذلك، كان إييونيم لا يزال يصلي أمام السيلا، وفي الفوهات النحاسية العالية كان الستيركس لا يزال يشتعل ببطء. لا بد أن المعبد، المغلق على واجهته الرئيسية، قد أبقى بعض المخارج مفتوحة. وكان دوركاس يشق طريقه بين الأعمدة الضخمة المتشابهة في ضخامتها، وبين الشمعدانات الذهبية الصلبة المنصوبة من بعيد إلى بعيد. - كم كان يشعر بالضآلة وسط هذه الأشكال العملاقة! ومع ذلك فقد كان يشعر الآن، وهو ساجد أمام زيوس الملك، بقليل من اللامتناهي من الألوهية الممتدة في داخله. ولكن الآن لم يكن الأمر أكثر من مجرد مادة منتصبه أمام عينيه وتثقل كتفيه. لم يطق صبراً على الخروج. وفي النهاية وجد فتحة ضيقة مقطوعة في كتلة الجدران. وفي الحال انبثق أمام عينيه سحر الزهور التي لا حصر لها، والتي تنمو في كل مكان عشوائياً بلا عائق، في اضطراب طبيعي لذيذ، فانبثقت أمام عينيه وانفجرت أنفاسه في صدره. وخلف المعبد، انفتح طريق منحدر، يقود إلى أين؟ لم يكن دوركاس يدري، ولكنه سلكه دون تردد، لأن الخوف من أن يظل محبوساً في الأولمبيوم الهائل ساعات طويلة أخرى - حتى ينتهي الأيونيم من صلاته - قد عذبتة للحظة. كان يسير على طول الطريق المحصور بين سياجين من الصبار. ولأول مرة منذ

وقت طويل، شعر بالارتياح، كما لو كان قد هدأ من هاجس سعيد. كان الغطاء النباتي الكثيف يخفي عنه تفاصيل المنظر الطبيعي؛ كل ما كان يراه أمامه هو خيال المدينة الذهبي وقرص الشمس الرقيق الذي يتساقط ببطء في دموع ذهبية في السماء الخضراء الشاحبة.

وانبعث نور أثيري دقيق نابض بالحياة يشع من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى النجوم غير المرئية، واستحضر دوركاس، ككل من تملكه الحب، صورة واحدة في جمال هذا النهار المشع الذي استولى على روحها: براكسيلا! ألن يراها أبداً إلا في ضوء المقابر الأبيض؟ ألن يراها أبداً إلا في ضوء النهار العاري، أو إلا بين الورود التي يزرعها الفجر؟ ألن يراها أبداً ولو لمحة خاطفة كما يرى الصياد الأوقيانوس المتحرك يلعب بين الأمواج، أو كما يرى الراعي الحوريات في بهجة الفيافي؟ ألن تمتلئ عيناه برؤيتها في الربيع العطر بين الزهور، وهي تمتزج بشبابها بشباب الأرض؟ كلا، لقد حُكِمَ عليه أن لا يحب أبداً إلا جمالاً لم يمسه أحد، عذراء محجوبة في سر المحراب... ومضى على هذا المنوال، يناجي أعماقه، ويحاور أعماقه، سعيداً وإن كان في نفسه شيء من السعادة، ومُرتفعاً على أجنحة الحب المتموجة. وكان الطريق، أسرع في هذه النقطة، منحدرًا مباشرة إلى السهل، وهو لا يزال محصوراً بين سياجه المزدوج من نبات الأغاف. وبدون أن يدرك ذلك، وجد دوركاس نفسه فجأة على بعد أمتار قليلة من معبد الإلهتين. كان بإمكانه أن يرى الواجهة الخلفية للمبنى، محاطاً برواق مزين بأعمدة مضيئة. وعند

زاوية هذا الرواق الذي يكاد يسد الطريق، ارتفعت كتلة من أشجار الخروب محملة بوفرة بعناقيد مرنة. وفي هذه المرة لم يكن ذلك حلاً من أحلام عقلها، ولا هלוسة من صنع رغبتها: رأى دوركاس براكسيلا واقفة تحت أوراق الشجر اللامعة لشجرة الخروب. كانت هناك على مقربة منه، ووجهها مغمور بالضوء الناعم، وطرحتها البيضاء تطفو حول جسدها. كل ما كان عليه أن يفعله ليصل إليها هو أن يخطو خطوة، وكل ما كان عليه أن يفعله ليسمعها هو أن يقول كلمة واحدة. ومع ذلك لم يتحرك، كاتمًا أنفاسه، متجنبًا أن يراه أحد. وبدا له أن لا شيء في العالم يساوي نشوة هذا التأمل الصامت. لقد رآها أخيراً، كما كان يتمنى بحماسة شديدة، لم يعد يراها في ضوء الهيبوجيم البارد، بين القبور، بل في ضوء الربيع المشع، في حضن الأرض الهيجية، وجبينها مغطى بأوراق الشجر، ويدها مربوطة بالعناقيد المنتفخة بالحياة. لقد رآها مقترنة بيقظة الطبيعة، وكأنها هي نفسها قد قامت من القبر، صافية متناسقة في هدوء ذلك الشفق الذهبي، ولم تعد في عينيه تلك العذراء المقدسة فحسب، بل تلك العذراء البشرية المرتعشة التي انفتح قلبها القريب من قلبه للحب. وخيل إليه أنه شعر، كما في الممر الذي غزته المياه الجليدية، بهذا الجبين الغضّ يدفأ على صدره؛ وخيل إليه أنه يحمل بين ذراعيه هذا الجسد الغضّ المسروق من أحضان الموت الغادر. أه يا براكسيلا، براكسيلا، عذراء وامرأة في آن واحد، إلهية وإنسانية، مزعجة وطاهرة، براكسيلا، زهرة نبتت في البستان المقدس،

وكان منظرها ورائحتها وحدهما كافيين لنشر السعادة في سيول... ولكن العذراء كانت قد ابتعدت بالفعل نحو الرواق ويدها محملة بعناقيد طويلة قطفت من الشجرة الجديدة. وكان دوركاس، وهو في طريق عودته إلى المدينة، قد قفز من فوق السياج الشائك الذي كان يحمي الطريق الضيق بين المعبدتين.

الفصل الخامس

بينما كانت الأحداث تتسارع في الخارج. كانت النهاية قريبة. كان مارسيلوس قد وصل إلى معسكره في أنابوس بأسرع مما كان متوقعًا، فقد طرده الطاعون من أكيليس حيث مات هيموكرات الذي حملته المرض في ساعات قليلة. وبعد أن حاول إبيسيديس عبثًا أن يعارض الأسطول القرطاجي للأسطول الروماني أبحر إلى أغريجننتو ليقرر الانسحاب النهائي. كان لا بد من بذل جهد فائق للاستيلاء على المدينة المحاصرة، أو التخلي عن الحصار ووضع أساس لاتفاق. كانت المحادثات في هذا الاتجاه قد بدأت بالفعل مع قضاة سرقوسة. وكان أبيوس، الذي أخذ زمام المبادرة، قد أرسل إليهم رسالة كانت تحفة من الدبلوماسية والبساطة. وقد أوضح بمهارة أن الرومان قاموا بحصار سرقوسة في المقام الأول كراهية للقرطاجيين.

والواقع أنهم عندما رأوا المدينة في سلطة هيموكرات وإبيسيديس، أولئك التابعين أولاً لأنيبال ثم لهيرونيموس، عندئذ فقط حملوا السلاح ضدها، واستثمروها - لا لإجبارها على نفسها بقدر ما كان ذلك لإضعاف المسيطرين القساة عليها. أما الآن وقد انقطع هيموكرات عن الحياة، وكان إبيكيتوس بعيداً عن سرقوسة، وكان القرطاجيون المهزومون في البر والبحر قد اضطروا إلى التخلي عن امتلاك صقلية بالكامل: فأى سبب

يمنع الرومان من أن يرغبوا في أن يظلوا في سلام مع سرقوسة كما كان الحال في أيام هيرونيemos صديقهم وحليفهم المخلص؟ وهكذا لم يكن لدى المدينة وسكانها ما يخشونه سوى أنفسهم إذا فقدوا فرصة المصالحة مع روما. ربما لن يكون هناك وقت أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر، عندما كان موت طغاتهم يجعل الحرية تتوهج لهم... ومع ذلك، كان قضاة سرقوسة بطيئين في الاستجابة، وكان مارسيلوس مضطرباً في معسكره، ممزقاً بين الأمل في إنهاء هذه الحملة الكارثية أخيراً والخوف من رؤية فريسته تفلت من قبضته بلا رجعة. يا لها من ضربة لسمعته كقائد لا يقهر، وفوق كل ذلك يا لها من حسرة! لأن مارسيلوس كان مغرماً: لقد كان مغرماً بالمدينة الشقراء الفاتنة التي كانت تتباهى بجمال مبانيها كالجواهر على ذراعيه، كاللؤلؤ على صدره؛ ولم ير في حياته شيئاً أعجب من هذا الإعجاب؛ ولم يتمنى قط امتلاك أي مدينة أخرى بهذا الحماس. وما زاد من شهوته الغاضبة هو معرفته أنها كانت مصنونة لم يمد أي فاتح يده عليها قط مرتجفاً بالرغبة. وعلى الرغم من العواطف التي ألهمتها في العديد من المحاربين المشهورين، إلا أنها حافظت على كثر عذريتها. كانت تقف دائماً، نقية فخورة تحت السحاب، وحصانها المجنح الذهبي يحميها بجناحيه المفتوحين، وعند قدميها كان البحر العظيم بأواجه المرنة والناعمة يمتد كأبي الهول ليدافع عنها. آه، كم مرة تطلع إليها! كم مرة كان يرقبها في الصباحات الصافية أو الليالي القمرية، مستعداً لمباغتها بالعنف

أو المكر، لينقض عليها ويوسم جبينها بسيفه - كعبد فريد الجمال استولى عليه سيد غيور لا ينبغي لأحد من بعده أن يمسه!

وكان قد أمر الجنود الذين يشكلون الحصار بالسماح بمرور الرسل من سرقوسة. وأراد أن يتفاوض بنفسه ولا يترك زميله أبيوس يتعامل مع الأمر بمفرده. ولكن لم يأت أحد؛ وبدا أن المدينة الاحتفالية قد نسيت أن الرومان على أبوابها، وأن الطاعون الذي كان قد استوطن أكبلا بالفعل يهدد بغزوها. - والمجاعة؟ ألم يكن يبدو كما لو أن المؤن الهائلة المقدسة في مخازن الحبوب قد دمرت؟ وعلى الرغم من كل هذه الأقدار المتعارضة، بدت المدينة المصونة أكثر جمالاً وإشراقاً من أي وقت مضى لنظرات مارسيلوس المحبة. وبعد أن خاطر بدمه في مناسبات عديدة من أجل امتلاكها، شعر الآن أنه مستعد للقبول بأي حماقة، وقبول أي حل وسط، طالما أنه يستطيع تحقيق هدفه. توقف ووضع يده على جبهته تحت أشعة الشمس. وكان صف المرتزقة قد انفتح لتوه وكان أحد السرقوسيين يتقدم أمامه: (اسمي أورثون) قال الرجل الأصفر الضئيل، فتفحصه مارسيلوس في تحدٍ: (إن اسمك قليل الأهمية. هل أرسلك دينوميديس أو دوركاس؟ - لا هذا ولا ذاك"، قال أورثون بصوته الشرير.

- "إذن لماذا جئت إلى هنا؟

لم يتوان أورثون. وسحب من ثنايا معطفه ميدالية ذهبية من أجود أنواع السرقوسية، وقد نقش على أحد جانبيها وجه أرثوسا الصقلي الرائع، وعلى الجانب الآخر صورة القنصل الأكيليني.

- قال الصائغ: "أردت أن أحضر لك هذا. ألا يبدو لك أن عملي ثمين وجدير بأن يُهدى إليك؟"

فهم مارسيلوس هذه المرة. فأشار إلى أورثون أن يتبعه إلى الطرف الآخر من المعسكر، خلف منجنيق عملاق كان قد تم إخماده منذ زمن طويل. ولأكثر من ساعة تحدثا دون أن ينظر كل منهما إلى الآخر وعيونهما مثبتة على الأرض.

"كان الصيد قد وقع في شباكه". على الأقل، كانت هذه هي الرواية المتداولة عن داميبوس الذي قبضت عليه إحدى سفن الأسطول الروماني وهو في طريقه إلى الميناء. ولكن دينوميديس ودوركاس على وجه الخصوص لم يأخذا الأمور بهذه السهولة. فحلف مظهر البساطة الذي كان يبدو عليه، كان هذا اللسيدموني الصغير شخصاً ذا شأن. لقد كان جزءاً من كتيبة

من نخبة الشباب الذين أرسلتهم سبارتا¹⁴⁷ إلى سرقوسة كعربون صداقة، لأنه كان من المعتاد أن يساعد الدورسيون بعضهم بعضاً في الظروف الصعبة التي يكون فيها شرف الجنس على المحك. ألم يكن جيلبي هذا إسبرطياً بالفعل، وهو الذي أحبط جميع مخططات الأثينيين في وقت حملة نيقياس الرهيبة؟

كم كانت سرقوسة مدينة بالجميل لاسيديمونا؟ إن هاتين الأختين اللتين ظلت إحداهما متقشفة في ثيابها المنتصبة، والأخرى التي كانت تزين ثيابها بالورود الخفيفة والورود، لم تكفا عن القتال معاً ضد أثينا وضد روما وضد قرطاج، وكان لا يزال اليوم ابن لاسيديمونا، أحد أولئك الأسبارطيين ذوي الروح الرزينة والقلب السخي، الذين استطاعت سرقوسة بفضلهم أن تصمد أمام قسوة الحصار مدة طويلة. وهل كان سيتم تجاهله؟ كانوا سيتركونه في أيدي الرومان، الرهينة الثمينة، الصياد الصغير الذي خاطر بحياته مراراً دون أن يدري. كان دوركاس قد توصل إلى اتفاق مع دينوميديس، وكانا قد قررا أن يستعيدا داميبوس؛ وعلى هذا الشرط فقط يمكن أن تكون الخطوة التالية هي الاستجابة لمبادرات القنصلين السلمية. لكن مارسيلوس بدا الآن غير مستعجل لإبرام الاتفاق. فقد كان يماطل في

¹⁴⁷ Sparte سبارتا أو لاسيديمونيا هي مدينة يونانية قديمة في البيلوبونيز، وتخلدها اليوم المدينة الحديثة التي تحمل نفس الاسم. تقع على نهر يوروتاس في سهل لاكونيان بين نهري تاييجيتوس وبارنون، وكانت واحدة من أقوى المدن اليونانية القديمة إلى جانب أثينا وطيبة.

الأمر. وكان قد جاء في عدة مناسبات إلى برج جاليجرا للتشاور مع دوركاس ودينوميديس، وفي كل مرة كان يغادر دون أن يوافق على إعادة داميبوس، ودون أن يوافق على التعويض المعتاد.

إلا أنه أظهر ذات يوم أنه أكثر مرونة. كان دينوميديس هو الوحيد الذي جاء للتفاوض معه في البرج. وأعاد الرئيسان السؤال إلى نقطة البداية: "لماذا أنت حريص جداً على الاحتفاظ بدينوميديس؟"، فأجابه مارسيلوس: "ولماذا أنت حريص على استعادته؟ ولكنه غير رأيه، وقال في نبرة من الألفة: (دعنا ننتهي من هذا الأمر، فلا يمكننا أن نضيع وقتاً ثميناً في نزاع بهذه الأهمية الضئيلة. لن أطلب منك أي تعويضات أو وعود عن هذا الرهينة. ولكني سمعت أن لديكم في المدينة صائغاً ماهراً جداً في صياغة الذهب يقال إنه صاغ تاجاً للملك هيرون يقال إنه رائع. خذني إليه أود أن أطلب منه جوهرة لتكون نموذجاً لصاغة الذهب لدينا في روما، الذين يجهلون فنههم إلى حد ما. قال دينوميديس: "الأمر سهل". سأرسله لك على الفور تركه مارسيلوس بمفرده، فتفحص كل شيء حوله، وتفحص ارتفاع البرج وسماكة السور بدقة. وسرعان ما قست عينه المعتادة على فحص الأسوار سمك الحجارة وقياس عمق الخنادق الممتدة على طول الأسوار، من حصن يوريال إلى السداسية في المنطقة الدفاعية بأكملها التي كان برج جاليجرا يمثل مركزها. قال القنصل لنفسه: "لم يخدعني أورثون"، والخطة التي رسمها دقيقة. هناك ثغرة هنا، تكاد تكون ضئيلة

صحيح أنها ثغرة ضئيلة، لكنها ثغرة في تحصينات المدينة مع ألف رجل جريء، يمكن اختراقها بسهولة. ولكن لكي يحدث ذلك، يجب أن تكون المداخل غير محروسة..."

دخل أورثون في تلك اللحظة؛ ولم يظهر على وجهه الأصفر المتجمد شيء من الانفعال الذي كان يحركه. وانحنى للقنصل وانتظر، وكان مارسيلوس صامتاً؛ وكان الشحوب قد غزا وجهه؛ وكانت دائرة من البسترة قد أحاطت بعينه فجأة؛ وفي صدره، تحت درعه الصقيل، كان قلبه يخفق كقلب زوج جديد. وتحاشى النظر إلى أورثون وقال بصوت خفيض: (أي ليلة ستكون الليلة التي تليها، فأجابه أورثون: (الليلة التي تليها. سيكونون جميعاً في الجانب السياني، يشاهدون موكب الكالاثوس ثم يحتفلون تحت الظلال. وسأل مارسيلوس وقد أغمض جفنيه مرة أخرى: "ودينوميديس؟ سيكون في القلعة، أو على أسوار أكرادين. أنت تعلم أنه منذ أن غادر إبيسيديس كانت هذه المنطقة مرتبطة بجزيرة أورتيجيا.

-نعم"، قال مارسيلوس. ولكن لا يزال هناك دوركاس! هذا هو الأكثر فظاعة؛ هذا هو الشخص الذي يمكنه أن يعرقل خطتنا كلها! إنه أقرب إلى هنا، في حصن يوريال، حيث يراقب المنطقة كلها؛ وعند أقل تحذير سيكون أماننا مباشرة. ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً ما دام دوركاس يحتفظ بحصن إيبوليس. "تمتم أورثون من بين شفثيه اللتين تلمهتان: "لديّ أيضاً طريقة لإبعاد دوركاس". هذه المرة نظر إليه مارسيلوس: "أنت

ستبعد دوركاس، رجل الواجب، ذلك الدوربان الشرس! تعال الآن! هذا هو سري"، قال أورثون. سأخلص منه، يمكنك أن تصدق ذلك. هل خدعتك حتى الآن؟

وتراجع مارسيلوس بضع خطوات إلى الوراء، فقد كان مشمئزاً من سخريّة الخائن. وتمنى أن يجد في هذه النفس دافعاً آخر أقل دناءة من حب الذهب يعذره وهو الروماني الفخور لارتباطه بمثل هذا المتواطئ. وطفح سؤال أخير من فمه. لقد خمنه أورثون؛ وقال بصوت سريع:

- إنني أكره دوركاس. لقد أهانني دوركاس ذات مرة إهانة مميتة. إن الانتقام هو متعة الآلهة في الأوليمب. وغداً، عندما يستولي مارسيلوس على المدينة، سيشعر أورثون الصائغ بأنه مساوٍ للإله.

الفصل السادس

كان الأكل والشرب يتم تحت أوراق الشجر، في الحدائق المتلألئة الزاهية وعلى طول أشجار الطرفاء التي كانت تجاور البحر. في كل مكان، كانت الموائد ممدودة، تفيض بالأطعمة الوفيرة. كان المساء الشاحب يحمل عطر الورود المحتضر إلى الغرب، بينما كانت رائحة الولىمة النفاذة ورائحة الأنفاس تتصاعد في ضوء المشاعل الكحلي. كان ذلك آخر يوم من أيام الولايم، وكان الجميع يريد حصته. تم تقديم الطعام للفقراء أولاً. كان الطعام قد أودع لهم في جميع الأضرحة الصغيرة على واجهة من واجهات المنازل، في "هيكاتيا"¹⁴⁸ التي لا تعد ولا تحصى والمكرسة للإلهة حيث كانت ممثلة في ثلاثة أشخاص متميزة مصنوعة من الشمع بألوان مختلفة:

في الشمع الأبيض وعلى رأسها الهلال، أرتيميس السماوية أرتيميس، ملكة النور؛ وفي الشمع الأحمر وفي يديها الثعبان كاليجينيا العذراء ابنة ديميتر الموقرة، التي تجلب دم الخشخاش من ذهب العشب؛ وفي الشمع الأسود وعلى كتفها المفتاح، بيرسيفون بشعرها المظلم، حارسة الأرواح الغامضة التي لا يمكن نقضها، الغامضة التي لا مرونة فيها. وهكذا ترأست الآلهة الثلاثية أفرح الحشد في تلك الليلة، وتحت رعايتها سادت المساواة بين الضيوف الغفار، ولكن لم تكن كل الموائد على هذا القدر من الترف، فقد

¹⁴⁸ « Hecateia » في الأساطير الإغريقية، (اليونانية القديمة) هيكاتي هي إلهة القمر والسحر والحدود.

كانت هناك موائد متواضعة أحضر كل واحد فيها نصيبه، حيث كان الدهن المزدوج يدخن في الأواني الفخارية البنية، وكانت هناك موائد فخمة مغطاة بأدوات فضية نادرة وأقراص من البرونز والذهب، وقد ظهر عليها جديان كاملون مطبوخون في دهنهم الخاص وأرجلهم النحيلة مدسوسة تحت صدورهم المدورة. وكانت هناك أوقات كان الناس يشربون نبيذ جبيل الذي مضى عليه أربعون عاماً من العمر، وهو يفوح برائحته العطرة كما لو كان قد خرج من الحوض، الفضيلة تحفظ من الإسكار، وهناك من يكتفون بسكب السيسون¹⁴⁹ الغامض المصنوع من الشعير المخمر والعلس في الكؤوس الخشنة؛ في كؤوس خام. ولكن نفس البهجة كانت تملأ القلوب، ونفس المناظر الجميلة كانت تبهج العيون: في خلال أوراق الشجر، وفي صفاء الأفق، والأشياء تنام تدريجياً، تهددها السماء الهادئة التي يغط في نومها البحر بأصواته التي لا تحصى. ثم كان هناك سحر حضور النساء اللاتي عدن أخيراً من البستان المقدس. كنّ قد صمن لعدة أيام متتالية، لكن امتناع الرجال لم يكن أقل جدارة بالثناء لأنهم كانوا يمارسونه بطريقة مختلفة.. ومع سترات النساء الشاحبة، عاد الفرح إلى عيون الرجال الملتهبة. ومع ذلك، قبل موكب الكالاتوس¹⁵⁰، كانت كل

¹⁴⁹ Cycéon العصور القديمة) إعداد الطعام الإغريقي، وعادةً ما يُصنع من النبيذ ودقيق الشعير المحمص والعلس والماء والجنين.

¹⁵⁰ Calathos الكالاتوس من اليونانية القديمة "سلة على شكل زنبق"؛ في اللاتينية هو، في العصور القديمة الكلاسيكية، سلة

المداعبات ممنوعة؛ فقط في وقت لاحق، عندما تودع العذارى الشعار من عطايا الآلهة الخصبة في الأولمبيوم تحت وصاية زيوس، تستأنف الحياة الطبيعية في سرقوسة، وتضج البساتين بأعياد الحب. في هذه اللحظة، كانت مأدبة النبيذ واللحم هي التي أبهجت المجتمعين. وكانت الفتيات الصغيرات الواقفات والمتكئات فوق المواقد المضاءة، يلهون بصنع الحلوى اللذيذة بإلقاء الزهور من كل الأنواع الممزوجة بالدقيق الأبيض في الزيت المغلي. وكانت هناك منافسة لمعرفة من يستطيع أن يتنافس بالفن والموهبة لإنتاج تحف فنية. وكان البعض يحاول أن يقلد شكل البلابل الحمراء الصغيرة التي ترفرف بتهور تحت أوراق الشجر وهي تغادر أعشاشها، والبعض الآخر يقلد العث بقرونه الممدودة التي تطوف حول الكؤوس النائمة في المساء، والبعض الآخر يقلد إيروس¹⁵¹ الخفيف بأجنحته المفتوحة الجريئة كالطيور والمتقلبة كالفراشات. وكانت الضحكات تنفجر قويّة صاخبة، ووهج المواقد يجعل عيون الناس تلمع أكثر إشراقاً. وكانت فتاة صغيرة ترقص وهي تضع المزمارة على شفيتها، ولا يعلق عليهما من تحت إبطها سوى شريط لازوردي ضيق. وعلى المائدة التي كانت تجلس عليها ثيوفراست، كانت فاني وداماليس ورودوكلي قد جئن جميعاً للجلوس. وكانت أجفانهن قد ارتخت من شدة الصيام، وكانت

¹⁵¹ Éros إيروس هو ببساطة إله إغريقي، بينما كيوبيد إله روماني. في الأسطورة الإغريقية، يُصوّر إيروس على أنه شاب نحيف وأنيق، وغالباً ما يكون معصوب العينين لتجسيد عى الحب. وهو يحمل قوساً لإرسال سهام فضية غنية بالرغبة.

بشرتهن الرقيقة تظهر الدماء الزرقاء في عروقهن. فابتسمن بهدوء وهن ينظرن إلى بعضهن بعضاً، وقد أعدن في عيونهن اكتشاف أسرار الآلهة التي لا يجوز انتهاكها. وابتسم رودوقليس أيضاً لثيوفراست، بينما سألت جاسينتا البيضاء فاني في رقة: (وماذا عن دوركاس؟ أأن يظهر في الوليمة؟ - "تهددت فاني قائلة: "للأسف!" إنه لا يغادر موقعه في حصن يوريال؛ إنه لن يأتي حتى لحضور موكب الكالاثوس؛ ولكن بمجرد أن تغلق السلة المقدسة سأهرع إليه.

كان المنظر قد أضفى على وجنتها توهجاً وردياً، واستسلمت مثل الأخريات دون خجل من سكرة هذه الليلة المجيدة. ارتفع القمر بهدوء خلف الستار الفضي من أوراق الشجر. كما فتحت نجوم الثريا عيونها الذهبية في اللازوردية. لقد شكلن مجموعة متألئة بين ضخامة الليل، مثل عذارى يرتدين النور، وكن رفيفات أرتيميس السماوية، أخوات الربيع الأبديات. ولكن أكثر إشعاعاً من الأخريات، ظهرت نجمة سيبريس الحلوة للعشاق، ظهرت بدورها على قمة التل المشعر. ثم دوى صوتٌ آذني¹⁵² يصدح على أوتار قيثارته: "التحية لك يا هيسيروس العزيز، يا مجد الليل الأزرق المقدس! التحية لك أيها العزيز! واختلطت أغاني الأزواج والزوجات والعشاق والعذارى بأغاني الشاعر احتفالاً بنور النجوم الحنون. ومع

¹⁵² Un aède في اليونان القديمة، كان الشاعر الذي كان يغني أو يتلو القصائد بمصاحبة القيثارة محفياً بالآلهة والأبطال .

ذلك، كانت فاني قد ابتعدت عن الضيوف. كانت تترقب اللحظة التي ستبدأ فيها الأبهة المقدسة في الظهور على السهل بين المعبدین. وبدأ لها أنه قد مضى وقت طويل قبل أن تعود إلى دوركاس. وكانت هذه الليلة الحلوة، وطعم نبيذ بيبلوس على شفتيها، والأغاني، والعمور، وأصوات الشبان المتناغمة، كل هذا لم يجعلها تنسى زوجها العزيز، بل زادها شوقاً إلى الذهاب واللحاق به. وأخيراً رأت العربة التي كانت ستحمل كلاثوس تتوقف أمام معبد الآلهة، حيث كانت العذارى قد بقين في هدوء.

-قالت لداماليس: (أسرعي، أسرعي) ثم قالت: (لنركض حتى نصل إلى هناك أولاً، ففي لحظة سيكون الحشد كله هناك) وبالفعل، وعلى كل جانب، وفجأة وبدافع الفضول أو الحماسة نفسها، ترك الضيوف الموائد واتجهوا إلى السهل. وكان ممنوعاً النظر إلى الكالاثوس من أي مكان مرتفع يمكن أن يرى منه ما يحتويه؛ وعندما مرّ، كان على الجميع أن يقفوا ساجدين، وجباههم في تراب الطريق. ولكن حتى أكثر من الشعار الصوفي، كان موكب العذارى هو ما أثار اهتمام الجموع وسحرهم. كان من المعروف أنهم سيعدون بعد ذلك إلى أورتيا تحت رواق أريثوسا، ولن يتمكن أحد من رؤيتهن مرة أخرى حتى يوم عيد الغطاس للآلهة.

كانت الموسيقى العذبة الرقيقة التي كانت تتألف فقط من غناء أرواح المحاقن التي كان الأطفال الصغار يضعونها على شفاههم نصف المفتوحة، تسبق العربة التي تجرها أربعة بغال، والتي كانت تجلس عليها السلة

الصفوية. كانت سلة على شكل شجيرة مصنوعة في الأصل من الخوص، لكن رفاهية العصر حوّلتها إلى عمل فني رائع من فن الصاغة. نُقش عليها العديد من التماثيل، وكان زيوس العاصف في مواجهة بوسيدون يقود مركبته الرباعية وحماماتها تنقر على الرغوة. كانت العربة والراكب الإلهي والطيور الغرامية كلها مصنوعة من نفس القطعة الذهبية المتألثة. وكانت هيرا الجميلة جداً مستلقية على حافة الكالاثوس المستديرة. وبجانها وقف أرغوس وعيناه يقظتان على الدوام؛ وكان فخوراً بألوانه الجميلة، ناشراً ريش ذيله كشراع سفينة سريعة، ومغطياً به جرم السلة المقدسة. ولكن أحداً لم يفكر في أن يرتكب إثماً بانتهاك نهي الكهنة؛ ولم يكن أحد يفكر في ارتكاب انتهاك حرمة المقدسات بتجاوز نهي الكهنة؛ ولم يكن يعرف ما تحويه جوانب السلة إلا العذارى؛ وفي موكب أبيض تحت قرص القمر العاري، كانت براكسيلا وصاحباتها قد غادرن المعبد، وكن يتبعن العربة التي تجرها البغال الطاهرة؛ وكان كل شيء أبيض في تلك الليلة العذراء، كل شيء غير مشوب ولا مائع، مثل أشكال الكاهنات الشابات. كنّ تتقدمن في صمت، بينما كان تيار نورك يا سيلين قد جعل أوراق الأشجار المستوية اللامعة ترتجف على أطراف الأغصان. وبدأن هنّ أنفسهنّ كأنهنّ أشعة من النور السماوي، حوريات منحدرات من الأثير، وأقدامهنّ بالكاد تلامس ثنانيا الأرض. وهكذا مرّوا، وظل الرجال بعد ذلك لفترة طويلة بلا حراك وجباههم في الرمال ساجدين. وأسرع بعضهم

خلفهن ليقبلوا آثار أقدامهن. ونسوا جميعاً النساء، العشاق الذين كانوا في انتظارهم بأذرع مفتوحة وشهوة على شفاههم. ولكن زوجة دوركاس الصغيرة لم ترد، بل قالت: (ألا تظن أن هناك ما يدعو إلى الغيرة؟) فقد كانت عيناها تتبعان كلاثوس وهو يمتطي ببطء العربة العاجية: دقائق قليلة أخرى وستدخل الأبهة المقدسة إلى الأولمبيوم الهائل. في أعلى درجات الباريستيل، كان بالإمكان رؤية الأديبة في ثيابها الأرجوانية والذهبية. وكانت المشاعل مضاءة، والجواهر مشتعلة تصنع حلزونات زرقاء في الليل؛ وكانت الأسرة الصوفية عند مدخل المعبد قد نصبت حيث ترقد العذارى تحت حجاب أسود كثيف. وأسرعت فاني وداماليس إلى درجات الباريستيل محمولتين من قبل الجموع. وسمعتنا صوت الهيروفانتيدي، صوت براكسيلا العالي النقي الذي نطق باسم جميع الكاهنات بالقسم المقدس: "باليد اليمنى للإله بلوتو، وبسرير بيرسيفوني المعظم، نقسم أننا عذارى حقاً، حتى في الجحيم.

- قالت فاني وهي تلتفت إلى داماليس: (كما ترين) ثم أضافت وهي تلتفت إلى داماليس: (إن نساء سرقوسة لا يخشين شيئاً من الكاهنات. أليسوا على العكس من ذلك هم حماة المدينة وحراس حريتها كما يقول كتاب النواميس؟ وأسرعت لتلحق بدوركاس، وكان الجمع قد هجر ضواحي الأولمبيوم. كان السهل الواسع قد خلا وبدا وكأنه بحر ثانٍ مهجور تحت السماء الصافية. وعاد الأزواج إلى حدائقهم، إلى البساتين، إلى شقوق

الصخور التي تداعبها الأمواج الفاتنة؛ وكان همس الحب وحفيف الحياة يسمع في كل مكان. ما الذي كان يهم برسيفونيا الآن؟

السيستوس المقدس، المملوء بكعك السمسم الذي عجنته الكاهنات في صورة عذريتهن، يستقر الآن في سرّ الحرم المقدس، في رعاية زيوس القدير. كانت نخبة من القلوب الطاهرة تسهر على تحقيق الوعود الإلهية. أما البقية فكانوا الناس بغرائزهم الخشنة، الجمهور المبتذل الذي يبحث عن متعته في كل مكان، مثل تلك المرأة الوقحة سيئة السلوك التي ضحكت في وجه ديميتر التي لا عزاء لها عندما أشعلت شعلتها على جبل إتنا وذهبت تبحث في كل مكان عن ابنتها المحبوبة، حتى إلى مساكن هاديس المظلمة، ومن هناك أعادتها أخيراً مكلفة بالورود تحت سطوع النجوم.

الفصل السابع

بينما كانت أمهة الكالاثوس مستمرة، غادرت دوركاس سراً من الأبيوليس متجهة إلى سيان. لم يكن ذلك يبدو لها ممكناً، ومع ذلك فقد كان ذلك صحيحاً: كانت براكسيلا تسأل عنه؛ كانت تدعوه إليها في نهاية الليلة المقدسة، قبل أن تعود إلى رواق أريثوسا. ولا شك أنها كانت تريد أن تسدي إليه بعض النصائح أو تأخذ منه بعض النصائح للدفاع عن المدينة؛ ولعلها أرادت أيضاً أن تتأكد من أن شيئاً من لقاءهما في الهايبوجيوم لم يكن قد ظهر في الخارج؛ - لأنه لا يمكن أن يفترض أنها استسلمت لمجرد الرغبة في رؤيته مرة أخرى، لمجرد الحب البطولي الذي بذل كلاهما في سبيله التضحية. ولكن وا أسفاه!

وشعر دوركاس، على الرغم من المحرقة التي قام بها بسخاء، أن روح ذلك الحب ما زالت باقية في سر كيانه، وأنه لم يقض على شكلها الحساس، بل على الجزء الخارجي الإنساني. وتساءل بحسرة ممزوجة بالسرور عما إذا كان الأمر نفسه ينطبق على الهيروفانتيد: هل كانت هي أيضاً قد احتفظت في صدرها، دون أن تنجح في إلغاء جوهره، بهذه الروح المنيعه، هذه الروح الخالدة لحيهما؟ إن الظروف الغامضة للملتقى قد زادت من شكوكه: لماذا اختارا مثل هذه الساعة، مثل هذا المكان الذي كان من شأن عذوبته الشعرية أن تحرك حتى أكثر الشخصيات صلابه في الانفعال الجسدي؟

أه، تلك الليلة الهادئة الحلوة التي كان كل شيء فيها ينضح بنعومة الحياة ونعيمها، تلك الليلة البيضاء كبياض جناحي حمامة عاشقة مستلقية على عش الأرض الناعم ! ! هذا الليل بلا حجاب، حيث كانت كل الأشياء محجوبة ببخار شفاف ... كان دوركاس يشعر في نفسه منذ الآن بتطلعات كثيرة مشوشة للسعادة تتصاعد في داخله. لعله كان رجلاً فاضلاً سيطرت إرادته على عواطفه، ولكنه كان لا يزال ذلك الشاب المحارب المتقدم، ذلك الدوري ذو القلب المتهور، الذي كان يعتقد أنه يحب لأول مرة بحبه مخلوقاً جديداً. ثم كانت صورة الكاهنة الشابة كما كان يلمحها في سر البستان المقدس، وذراعاها مربوطتان إلى عناقيد شجرة الخروب، ووجهها الذي قبلته قرمزية الغروب، لا تزال تملأ عينيه وتملاً عليه ضوء القمر. أما الآن فقد عرفها من ملامحها، وأصبح كل ما كان يخمنه عنها حقيقة واقعة. ولا ريب أنه لم يكن في حاجة إلى أن يكون مغرماً بها ليشعر أنه ليس في العالم جمال يضاهي جمالها، وأنه ليس في العالم امرأة تضاهي جمالها العذري المجهول. وكان قد وصل إلى بركة سيان، الحورية ذات العينين الزرقاوين، العفيفة مثل أريتوسا بل وأكثر حساسية منها. وقارن في ذهنه بينهما في نفس الوقت الذي نقل فيه إلى براكسيلا وحدها كل الإغراءات العجيبة التي زينت بها الأسطورة حوريتي أرتيميس المفضلتين. لقد كان في ذلك الاضطراب في العقل حيث يبدو أن الألوهية ذاتها يجب أن تكون على صورة المحبوب، بدلاً من جمال المخلوقات القادم من نموذج إلهي. ووضع

الهيرووفانتيدة في مركز الكون الفسيح؛ وجعلها محط إعجاب واستحسان جميع عباقرة الأرض والفضاء؛ وعشقها السيلفانيون النورانيون من بعيد في ضوء القمر؛ وفرق الفون بنظراتهم المائلة شعر السيتيس المتشابك ليروها وهي تمر، المصريات، وعلى جباههن وردة، تركزن بساتينهن ليأتين ويتهدن عند ركبتها؛ وتراقصت "البايبيريدات" النحيلات، والساعات الدائرية، والحدود الخيرية المتوردة، يلمسن العشب الناعم بأقدامهن ليسحرنها؛ وصممت كل القوى البحرية التي ولدت من أنفاس بوسيدون المدوية، والصفارات الصاخبة والدلافين ذات الأصوات البشرية، عندما ظهرت على قمة الشاطئ.

وهو، دوركاس، ماذا عساه أن يفعل عندما ظهرت للتو على حافة الكأس الزرقاء للبحيرة؟

كان ينحني أمامها، ويقول لها: أنتِ دعوتني، ها أنا ذا. افعلي بي ما تشائين؛ حياتي وروحي لك. ليس لي إرادة أخرى غير إرادتك، ولا رغبة أخرى غير أن أخضع نفسي لك خضوعاً تاماً. وفي لهفته كان قد نطق بهذه الكلمات بصوت عالٍ؛ ولكنه صمت، لأن براكسيلا كانت أمامه مضيئة بيضاء في أوراق الشجر. وبما أنها لم تكن قد رآته بعد، فقد انتظرها أن تتكلم أولاً. ولكن يبدو أنها لم تكن تدري أنه هناك؛ وتقدمت إلى الأمام مضيئة بيضاء؛ وبعد أن رفعت نقابها انحنت نحو النبع؛ وكانا محصورين في المساحة الضيقة التي يحيط بها حزام كثيف من القصب - براكسيلا! براكسيلا!"

تمتم دوركاس أخيراً، فالتفتت فرأته هذه المرة مرتجفاً متعلقاً بقدميها؛ وكانت ثغرة من الدهشة قد امتدت على وجهه النقي.

- كيف تجرأت على قطع كل هذا الطريق؟ ألم يكن مجيئي إلى هنا بناء على أوامرك؟ واقتربا من بعضهما البعض؛ وكان الشك نفسه قد تولد في نفسيهما في نفس الوقت، فكرة أن كلا منهما لم يعد قادراً على احتمال كرب الفراق، فاستخدم هذه الحيلة ليرى كل منهما الآخر للمرة الأخيرة. ولما كان الوقت قد حان وقت الغفران، ولما كان السلام السيادي للأشياء قد قادهما إلى التساهل الرقيق، فقد نظر كل منهما إلى الآخر دون ضغينة، وفي قلبيهما فرح عظيم. ولكن براكسيلا كانت قد أسدلت نقابها على وجهها بحركة من الحياء الغريزي؛ أما الآن فقد شعرت براحة أكبر وهي تستمع إلى ما قد يقوله دوركاس. وواصلت بصوت أكثر ثقة:

-أنصتي، أنصتي من خلال ورق البردي إلى روح سيان تجري نحو النهر بأمواجه الحمراء. يا براكسيلا، لا يوجد شيء أفضل، لا شيء ألد من الحب! ألا يجدر بنا أن نشكر زيوس الجبار، خالق كل شيء، على أن منحنا هذا اللقاء الأسى في الليل الصافي، تحت السماء الهبية، قبل أن يغلق رواق أريثوسا على كتفيك البيض؟ براكسيلا، أعطني يدك هل تظنين حقاً أنه من الخطأ أن نلتقي هكذا في تأمل الطبيعة، تقول براكسيلا بلطف: (لقد نسيت أن الدائرة التي حول جبتي هي شعار مكتبي المقدس. أيها

الحبيب دوركاس، أيها الصديق العزيز على نفسي، دعها تكمل مصيرها إلى النهاية.)

- قال دوركاس: (غداً تستأنفين حياتك المتقشفة: أما هذه الليلة فلا أطلب شيئاً أكثر من أن أتحمس جبينك كختم محترق على صدري. تذكر، يا براكسيلا، تلك الساعة التي لا تمحى، تلك الساعة القاتلة التي كادت أن تموت عندما أسلمتك الآلهة خاملة لا حول لك ولا قوة إلى ذراعي الرجل الذي يناشدك الآن.)

وقفت براكسيلا أمام دوركاس. وأخذت تلوي يديها في الأثير الشاحب، وارتفعت من جانبها إلى فمها صرخة يأس طويلة، وكل آلام حمها لا تزال حية: (أحبك! أحبك! أحبك أيضاً، يا من ألهمتني أكثر العواطف التي لا تقهر! فلتردها لك شفّتي ألف مرة قبل أن تسكرهما قبلة واحدة منك إلى الأبد؛ فلتردها لك بحنان القيثارة الشجية التي لمستها يد أورفيوس الرقيقة، وبعذوبة صوت الناي الذي يهدد به العازف شجنه ويوكله إلى النجوم؛ فلتعلنها لك بحماسة بان المنتصر وقد وجد أخيراً رفيقه بين قطيع الأوداج الهارب... أنا أحبك يا براكسيلا؛ ومتى انهدت قبة السماء على رأسي في هذه اللحظة فلن أندم على شيء، حتى الموت دون أن أرى انتصار حرياتنا.)

- قالت براكسيلا بحدة: "اصمت، اصمت"، "لا تجدف! ستعاقبنا الآلهة. ولكنها لا تستطيع أن تلومنا لأننا نحتفل باسمها في الليلة المقدسة، عندما

ترتجف بساتين سرقوسة من كل جانب بأصدااء عيدها. في هذه الجوقة التي ترتفع في كل مكان لمجدها، نشكل النغمة النقية، النغمة النقية للمثل الأعلى، النغمة التي غالباً ما تُهمل. ومع ذلك أليست السعادة لنا أيضاً؟ أليس جميلاً، أليس جميلاً أن نكون منغمسين في نفس النشوة غير المادية تقريباً، وأن نعرف أن نفس شعاع القمر الأبيض يغمر جبينينا معاً؟ أترين، إنني أثق في إخلاصك: أدع رأسي الملفوف في حجابها يستند برفق إلى قلبك؛ وأشعر بنبضاته تتخلل صدغي وتطرق باب خيمة. دوركاس، عزيزي دوركاس، دعنا نبقى هكذا دون أن نتكلم للحظة...

يا لها من نشوة ملأت روح دوركاس! لقد قلب جسدها المرن على ذراعه الحنون الذي يطوقها بذراعه الحنون؛ وكان يستطيع بمجرد أن يطبق ذراعه عليها أن يعيدها كاملة إلى صدره، وأن يحتضنها كما يحتضن الزوج زوجته، من الحاجبين إلى الركبتين، دون أن يفصل بينهما حتى سمك نفس واحد. لكنه لم يتحرك، ولم تدخله الرغبة الجسدية. فقط رغبة واحدة، هائلة وجامحة، سيطرت على حواسه وأبعدتها عن كل الرغبات الأخرى: أن يرى وجه براكسيلا مرة أخرى، لا من بعيد، خلسة ودون علم الكاهنة، بل عيناً لعين، وجهاً لوجه، في تبادل للنظرات بالتراضي. أوه نعم، أن يرى مرة أخرى بريق عينيها الخافقين، وابتسامة فمها الناصعة، وزنابق خديها الشاحبة؛ أن يمتلك ذلك الوجه النقي، أن يغوص فيه حتى جذور كيائها، بينما هي تحمل جسدها المرن مقلوباً على ذراعها الحنون الذي يطوقها...

ولكن كيف يعبر عن مثل هذه الرغبة المجنونة؟ ألم يكن ذلك بالفعل أكثر من اللازم من كل ما حققه؟ وكان هناك شيء خفي في أفكاره ينبه دوركاس إلى أن هذا الشيء بالذات هو الذي كانت ترفضه براكسيلا بكل قوة؛ وربما لهذا السبب بالذات كان يرغبها بكل هذه الحماسة؟ وفجأة انتزع حزن عظيم، ووحشة لا حد لها من فمه شكوى سمعتها براكسيلا، ومن أعماق النشوة التي كانت غارقة فيها:

- لماذا تتهد يا دوركاس؟ ألسنا سعداء معاً في سكون هذه الليلة الرائعة؟ وتمتم دوركاس: (وا أسفي) ثم قال: (لكي أكون سعيداً كل السعادة أحتاج إلى شيء آخر) ومرت ابتسامة على شفتي الكاهنة الخفية: (أصحيح إذن أن الإنسان لا يشبع أبداً من نصيب السعادة التي تمنحها له الآلهة؟ أنا، يا عزيزي دوركاس، أذوق ملء السعادة؛ فانحنى عليها وأنفاسه المتقدمة تحرق جفنيها، وقال بصوت محموم:

- شيء واحد فقط، شيء واحد فقط لو سمحت يا براكسيلا دعي يدك ترفع الحجاب الذي يخفي وجهك عني! فكري في العذاب الذي أتحملة لعدم تمكني من تأمل ملامحك العزيزة! لا أعتقد أنه يوجد في هذه الساعة رجل أكثر تعاسة مني، ولا أقرب إلى النعيم الأسى. أي وازع يمكن أن يمنعك من ذلك؟ ألم أختبر جمال وجهك مرتين، وبدون أن أسعى إلى تدنيس المقدسات؟ لقد لمحت عري جبينك مرتين، في غروب الشمس وتحت سطوع النجوم، مرتين. والآن يجب أن تكوني أنت التي توافقين على

أن تكشفني لي عن نفسك، فما هي ذي سيلين تظهر وجهها المشع في الزرقة، ومرة في كل سنة، في سر معبدها، لا تخشى الآلهة أن تمنح المؤمنين بها عيد الغطاس من جمالها. هل ستكون أكثر عناداً من أرتيميس العفيفة، قدوتك. براكسيلا، براكسيلا، أتوسل إليك أن تلي طلبتي! زيوس العظيم! كيف بدت كل أشياء الأرض، بل حتى أشياء السماء، باطلة أمام حبهما! كيف بدت كل الأنغام من حولهما، وضجيج البحر وخرير القصب، عبثاً لا قيمة له بالقياس إلى ذلك الصخب العظيم الذي كان يحرك قلوبهما! وكانت براكسيلا قد رفعت القماش الخفيف بيدها الشاحبة ببطء، وكان وجهها النقي الساكن، وأهدلت أهدابها المتدلّية، مفتوحاً الآن لقبلات القمر البيضاء وشفاه حبيبتها المتحمسة. ثم استولى الدوار على دوركاس فجأة، دوار جعله يدور كالفراشة حول الكأس نحو مركز حياته العاشق، نحو الفم المقدس للكاهنة...

المناولة الإلهية! ولكن لم يكد يلمس الفم المقدس، حتى دوى في الهواء ضجيج صاحب. هتاف النصر، وقرقعة من النحاس الأصفر في أعالي تلة تيشي التي يهيمن عليها معبد الحظ. الأبواق! أبواق مارسيلوس! لقد أيقظت المدينة النائمة في مسراتها، معلنة بزوغ فجر النير الروماني. لقد كانت صاحبة وواضحة، اخترقت قلب المدينة المصونة، وأحس دوركاس أنها تغرز كالسيف الدامي في صدره. وهرولاً مذهولاً نحو الأسوار...

الفصل الثامن

انتهت الكارثة. استغل مارسيلوس آخر ليلة من ليالي الحراسة ليقترح المدينة عنوة. كان قد تسلق من جانب برج جالياغرا، بينما كان الحراس الغافلون يثملون في حالة سكر عند سفح الأسوار. وكان العديد منهم قد ذُبح رقابهم على الفور، دون أن يتسنى لهم الوقت حتى لرفع صرخة إنذار. ومن أعلى الأسوار، حيث كانت الفيالق تركض وراياتها مرفوعة على الأسوار، كانت الأبواق قد دوت معاً من أعلى الأسوار، تنادي بقية الجيش وتعلن النصر على مسافة بعيدة حتى معسكر أنابوس.

كان السرقوسيون في حالة من الرعب والهلع الأعشى. وبعد أن ناموا مشبعين بالسرور استيقظوا على كابوس استقلالهم وقد دمّر ودمّر أمنهم إلى الأبد. فانتشروا في جميع الاتجاهات في جميع أنحاء إيبوليس وتيتشي، شبه عراة كما تركهم الحب أو النوم. ولكنهم كانوا في كل مكان يصادفون حراس مارسيلوس الذين كانوا قد استولوا بالفعل على الأحياء الشمالية، وعندما طلع النهار كان يمكن رؤية الفكسيلوم الملون بلون الدم المرسوم عليه النسور الرومانية يطفو فوق معبد الحظ...

ومع ذلك، أسرع دوركاس إلى حصن يوريال ليجمع قواته ويقف في وجه المحاصرين. وكان لا يزال يتوقع أن يتمكن من ردهم دون صعوبة كبيرة، وفي الطريق جمع الهاربين وحث السكان على حمل السلاح: لم يكن هذا

وقت الاستسلام لليأس أو زيادة الخطر بالجبن. وعند تيمنيثيس قابل ثيوفراستوس مسرعًا نحو الخزانة: "ألم يضيع كل شيء؟" فأجابه ثيوفراستوس: "لا". لقد حصن دينوميديس نفسه في أحرادين، والقلعة لا تزال سليمة. لكن من كان يتوقع مثل هذه المفاجأة؟

وما إن دقت الأبواق حتى أغلق دينوميديس جميع البوابات دون أن يعباً ببقية المدينة. وفي قرارة نفسه، حتى في هذه الساعة من الكرب الشديد، لم يفقد الأمل في التوصل إلى اتفاق مع مارسيلوس. ألم يكن من الممكن أن يتخلى للرومان عن المناطق التي تم احتلالها بالفعل ويترك جزئي سرقوسة اللذين كانا يشكلان مهد المدينة دون أن يمسهما أحد من الرومان وهما أحرادين وأورتيجيا؟ من المؤكد أنها ستظل جوهرة رائعة، وخاتماً جميلاً يوضع في إصبع المرء. ولكن كان عليه أن يسرع ويدخل في محادثات مع العدو قبل أن تندلع أعمال عدائية جديدة في ذلك الجانب. فأرسل نائباً برلمانياً إلى القنصل مع عريضة بخط يده.

كان الوقت منتصف النهار وكان مجد الشمس يغمر المدينة. وتأمل مارسيلوس من أعلى مرتفعات معبد فورتشن في فتحه الثمين. رآها ملقاة تحت قدميه في غبار مضيء كأنما رش عليها رمال ذهبية. قصورها ذات الواجهات المبهرة، وروعة عمارتها، وروعة تماثيلها التي لا تحصى، كل هذا كان سيصبح ملكه، ولكن كل هذا ذكره أيضاً بالمجد القديم لهذه المدينة الفريدة من نوعها في العالم. كانت دموع الفرح والحزن تنهمر من عينيه

عندما ظهر أمامه مبعوث دينوميديس الذي كان يتوسل إليه أن يرحمه، فبدأ له أن دينوميديس كان يتوسل إليه. بدأ دينوميديس وكأنه يريد أن يتخلى عن الدفاع عن نفسه...

وكان يتباهى - علانية هذه المرة - بأنه كان دائماً يؤيد مصالح روما ضد مصالح قرطاجة، بل إنه لم يخش أن يلمح إلى مقتل هيرونيموس الذي قيل إنه كان أحد المحرضين عليه: "ليس لنا أيها القنصل أن تنسبوا إلينا أيها السرقوسيون ما قد يكون ارتكبته سرقوسة من أخطاء في حقكم، بل إلى هيرونيموس الذي كان ينتهك حرمانكم وحرمة بلاده. ومنذ ذلك الحين، عندما عاد السلام بين الشعبين بمقتل الطاغية، فمن الذي عكر صفوه مرة أخرى؟ أحد سكان سرقوسة؟ لا، بل من أتباع الطغيان، هيموكرات وإبيسيديس اللذان اضطهدانا بالإرهاب والغدر.

إن زوال ظالمينا قد أعادنا اليوم إلى إرادتنا الأصلية؛ لقد جئنا اليوم لنضع أسلحتنا تحت تصرفكم لنضع شعبنا ومدينتنا وأسوارنا تحت تصرفكم، مستعدين للخضوع لأي شروط تفرضونها علينا. لقد منحتك الآلهة للتو مجد استيلائك على أول وأجمل المدن اليونانية يا مارسيلوس؛ وكل ما لا يُنسى مما فعلناه في البر والبحر سيزيد من روعة انتصارك. لا تتركوا الأمر للشهرة لتعلم الأجيال القادمة عن غزوكم. دع مدينتنا تحيا في عيون أحفادنا، حتى يتسنى للأجانب الذين يأتون إلى هنا براً أو بحراً أن يتأملوا في تذكارات انتصاراتنا وانتصاراتكم.

فليكن سكانه مدينين لك بحياتهم، فليكن اسم مارسيلوس محمياً لهم. إن ذكرى هيرونيوموس لن تكون أقوى في عينيك من ذكرى هيرون؛ لقد جربت كم كان الأب كريماً؛ أما الابن فلن يفيد هديانه إلا في ضياعه، فأخذ مارسيلوس علماً بهذا الدعاء؛ ثم لم يكذب يرمق المبعوث الواقف أمامه إلا بنظرة خاطفة: "حسناً، قال بإيجاز: "حسناً، سأبلغ سيدك بشروطي فيما بعد. في الوقت الراهن، أخبره فقط أن السكان الذين سيخضعون عن طيب خاطر سيُعطى عنهم وأن بيوتهم ستُحترم.

ولكن كيف يمكن احتواء حماسة الفيالق التي أسكرها انتصارهم؟ كان الفيالقون بقيادة أبيوس قد دحروا بالفعل القوات المعارضة لهم واندفعوا إلى القلعة. أرادوا أن يدخلوها على الفور، طوعاً أو عنوة، وأن يستولوا عليها أو يجبروها على الاستسلام فوراً. كانوا يعرفون أن هذا هو المكان الذي تكمن فيه أعظم ثروات الطغاة وكنوزهم. وكانت الجزيرة أيضاً مفتاح البحر، والحصن الحصين على الشاطئ كله، وكان التعطش إلى الغصب والريخ قد استولى على أكثر الجنود غموضاً. التعطش للدماء أيضاً، غريزة الانتقام لكل السهام الملعونة التي سقطت من أسوار سرقوسة على معسكر المحاصرين. والآن ما الذي كنا نتحدث عنه من حكمة؟ لقد حان الوقت للسرور والانتقام بعد كل هذه الإهانات الكثيرة، وبعد كل هذه القيود التي تحملها! لم يفهم أبيوس نفسه شيئاً من اعتدال مارسيلوس. غير أن دينونيوس الذي كان لا يزال محبوساً في القلعة كان ينتظر تسليم

مفاتيح البوابات حتى يكون القنصل قد أعلن له شروطه. كان نفس الفم الذي أعطى العدو سر برج جاليجرا قد أخبره أيضاً كيف يدخل إلى قلب الجزيرة. وفجأة انفتح ممر، لكنه كان ضيقاً جداً بحيث لا يسمح بدخول سيل الغزاة الكامل.

أورتيا البيضاء انتهكت بدورها. معبد الآلهة، وخزانة هيرون وقصره، كلها كانت مثل حلي هشة في يد الفاتح المفتوحة. والآن كانت الأصوات الأجنبية، أصوات الرومان المتغطرة والمتعجرفة، تدنس روعة سرقوسة بجرسها الوحشي. هم الذين كانوا يسمعون في الشوارع والساحات، هم الذين كانوا يتحدثون كالأسياد والذين كان التجار تحت الأروقة يسكبون خمر بيبلوس في الحفر المتوجة بالورود. وتعالق صرخات النصر، وتحولت الفرحة إلى هذيان؛ وانطلقت أناشيد الباريتوس واندفع الجنود من كل جانب إلى السلب والنهب.

وواصل أرخميدس دراسته لمشكلة جديدة في تأمل هادئ غير مدرك لهذه الأمور. ولم يستطع صوت الأبواق الحاد ولا غناء الباريتوس الحماسي أن يصرفه عن تأمله، أكثر مما صرفه ضجيج احتفالات الآلهة التي امتلأت بها المدينة لعدة أيام. وبينما كانت سكرة الشهوة والخمر تنتقل من شفاه سكان سرقوسة إلى شفاه جنود روما المتلهفة على الخمر، كان هو، وهو منكب على المشكلة التي بدأها، مخموراً بلذة غير مادية. وكان وحده، في غرفة نائية من القصر، وخلفه الأبواب مفتوحة، حين سمع قعقعة نعل

مكسوة بالحديد، فأساءت إلى الفسيفساء. وكان صغيراً، مرتدياً سترته الحمراء، وعيناه متقدتان بالشهوة، ويدهاه مثقلتان بالغنائم، شاب فيليتي صغير، قد اتخذ موقعه خلف الشيخ الجليل.

- ماذا يفعل ذلك الشخص؟ إنه لا يتحرك. إنه يبدو كتمثال للإله الصامت! سمع أرخميدس هذه المرة، وبهدوء، ودون أن يلتفت، سأل بهدوء:

- ما الأمر؟ المدينة الآن ملك لمارسيلوس. إنه جندي روماني يتحدث إليك. تعال! تعال يا سيدي تعال وقدم تسليمك إلى القنصل! كان الرجل العجوز قد شحب لونه بشكل رهيب، ولكن عينيه لم تفارقا المائدة المحملة بالأدوات. قال: (انتظر على الأقل حتى أنتهي مما أفعل).

وانحنى مرة أخرى، وواصل العمل على حل المشكلة؛ ولكنه في الموت وصل إلى فهمها فهماً كاملاً. وكان فأس الجندي قد وقع بثقله على مؤخرة عنقه؛ ومن خلال البوصلات والكرات والأسطوانات الفولاذية في رذاذ أحمر حيث كانت عبقريته لا تزال تنبض تدفقت دماء أرخميدس... وكان الشاب الفيلسوف قد غادر القصر وهو ثمل بهذا الدم كما لو كان قد انتصر من جديد. أما في الخارج فقد اندفع هوبليتس القلعة ممزوجين بخوذات جنود الفيلق المكسوة بالريش نحو هدف واحد: لقد اكتشفت خيانة أورثون؛ وشوهد الصائغ وهو يغادر خلسة الخزانة التي اتخذها مارسيلوس مقراً

له؛ وكان أعداء اليوم السابق، جنود روما وجنود سرقوسة قد اتحدوا لمعاقبة الخائن.

وطاردوه على طول الشاطئ بالحجارة، وانهالت حوله المقذوفات التي كانت تقذفها الأيدي الغاضبة؛ ولكنها لم تصبه جميعاً، فقد كانت سرعته في الجري كبيرة. ظل يركض ويركض، رافعاً حلزونات من الرمال الخفيفة. وكان الصوان الحاد قد اخترق لتوه لحمه، فوق الثلثة في ثوبه، في نفس المكان الذي أصاب فيه فأس الشاب الفيلسوف أرخميدس لتوه. بدا الأمر كما لو أن الآلهة قد أخذت على عاتقها الانتقام لموت الرجل العجوز العظيم. كان أورثون يئن على الشاطئ الرملي. وجذبه جندي من طرف عباءته كما يجذب المرء طائرًا جريحًا من جناحيه وألقى به في البحر. في تلك اللحظة، هرعت النساء بعد أن سمعن أن السكان سيُنقذون من المنازل، وهرعن من البيوت وأتين للمطالبة بأزواجهن. وصلن مرتجفات وخائفات، يرمقن المنتصرين بنظرات ماكرة. كنت تشعر أنهن مستعدات لتقديم أي تضحية، طالما بقيت منازلهن سليمة. وكانت جوليس أول من ظهر منتصراً، وكانت تمشي بجبين مرتفع، وكانت وحدها بين الأخريات لا يبدو عليها القلق: ألم يكن أورثون هناك، في القلعة التي دخلها أبيوس، أو في الخزانة يتلقى مكافأته من القنصل؟ ألم يكن سيصبح غنياً ومحترماً من الآن فصاعداً، ويستعيد هيئته السابقة؟ ونظرت إلى النساء الأخريات في

شفقة وقحة، وابتسمت في ازدراء أكبر عندما مرت فاني من أمامها قلقة شاحبة وقد أفسد النسيم شعرها!

- دوركاس؟ دوركاس؟" وكررت الزوجة الصغيرة: "دوركاس؟" وانحنى عليها جوليس في خبث: "أين يمكن أن يكون دوركاس؟" "هل تظنين أنه بقي هنا يستمع إلى أغاني الرومان المنتصرة، كما يستمع الحمار إلى أوتار القيثارة؟ لماذا لا تذهبين وتلقيين نظرة حول رواق أريثوزا، وإذا لم تجديه هناك، فاسألَي الهيروفانتيد عنه! وكان دوركاس هناك في الواقع؛ وكان قد أحس أن وجوده في حصن يوريالوس قد أصبح عديم الفائدة، فهب لنجدة الرواق وكان يدافع عنه بمفرده ضد فرقة من الفيالق التي أصرت على الدخول. وكان قد استل سيفه، وأسند ظهره إلى الحائط، وكان يواجه كل النصال النارية العارية التي اعترضت طريقه، فرأته فاني من بعيد وأطلقت صرخة تدمي القلب: (دوركاس!. . . دوركاس!. . .). اخترق صوتها ذو النبوة العالية كتلة الماء التي لا يمكن إدراكها: "دوركاس! دوركاس! ومع ذلك، لم ينتبه أحد إلى ذلك، واستمرت المعركة شرسة وغير متكافئة، رجل واحد ضد الجميع. وعلى الرغم من بطولته، كان دوركاس على وشك الاستسلام. ولكن فجأة انفتحت الأبواب وتقدم موكب العذارى البيض تحت الرواق. وسارت العذارى في صف واحد، وكلهن ملتحفات بحجابهن، وسارت أصغرهن سنأ، وهي غلاوس أولاً، حاملة في يديها صورة الآلهة. لقد كانت هذه الصورة المقدسة، هذا الأثر الجليل، الذي لم يحدث قط في حالة من

حالات الخطر الأعظم أن أُديرت عبثاً في وجه العدو. وهذه المرة أيضاً، نجحت التعويذة. لم تعد فرقة الفيالق التي اندفعت لاختراق السور تفكر حتى في عبور العتبة الهائلة، فقد عبرت العذارى حاملة الذخيرة المقدسة إلى الحرم، لكن فاني ألقت بنفسها على ركبتى براكسيلا مانعة إياها من الانضمام إلى الكاهنات الأخريات:

- يَا أَطَهَرَ الطَّاهِرِينَ، دُرُقُسْ، زَوْجِي العَزِيْزُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَنِي. انظري، لقد ظل ساكناً صامتاً بلا حراك، دون أن ينظر إليّ حتى. قولي له، قولي له أن يسمعني! الآن اختفت جميع العذارى وبقيت براكسيلا وحدها في الرواق. فأشارت إلى دوركاس أن يقترب أكثر، بينما تراجعت فاني بدافع الحياء الغريزي بضع خطوات إلى الوراء. وهكذا كانت العذراء والمحارب في مواجهة بعضهما البعض للمرة الأخيرة. قالت براكسيلا بصوت مرتجف: "اتبع زوجتك يا دوركاس"، وعندما لم يجبها أكملت:

- ما الذي يمكن أن يعيقك؟ هل هو الخوف من الوقوع في يد مارسيلوس وخدمة انتصاره؟ لا شك أن الموت سيكون أفضل ألف مرة من هذا العار، ولكن لا داعي للخوف منه؛ فقد سمعنا من القنصل نفسه أن كل الأرواح ستحترم؛ لقد أريق من الدماء ما يكفي من الجانبين وقد دفع أرخميدس ثمنها جميعاً. لذا فقد انتهى وقت القتال. عد إلى بيتك مع من ينتظرك، فشبهق دوركاس ثائراً: أيمكنك أن تأمريني بذلك يا براكسيلا؟ نعم، أنا، لأن هذا واجبي. وأضافت وهي تميل عليه:

- لقد كان كلانا مذنباً يا دوركاس؛ والآن يجب أن نفكر في التكفير
 - لقد سعيت بالفعل إلى التكفير يا براكسيلا! إنك لست سيد حياتك يا
 دوركاس، صدقني إن حياتك أكثر بطولة من موتك؛ ولكنه وقف أمامها
 مصلوباً على فكرة أنه لن يراها مرة أخرى، وفكر في أنه لا يزال من الجميل
 أن يموت هنا عند قدميها. وأدركت أنه ما دامت هي هنا فسيبقى هو أيضاً
 هنا، وسرعان ما ابتعدت تحت الرواق.

أخذت فاني بذراع زوجها. كان الليل مظلماً ومليئاً بالحزن، وكان الليل
 يهبط. كان أشبه بستار من الحداد يخيم تدريجياً على المدينة، وتوقف كل
 الضجيج والصخب. وكانت كلمة واحدة من مارسيلوس كافية لاستعادة
 النظام بين جموع الجنود السكاري، وكانت فاني قد أخذت بذراع زوجها
 العزيز. واتكأت على كتفه، وتشبثت به طوال الطريق، وقالت كلمات
 الحب: "أليس من الجيد أن نكون معاً أخيراً؟ دوركاس، عزيزي دوركاس، لن
 نترك بعضنا البعض مرة أخرى! إن مارسيلوس هذا، على الرغم من
 انتصاره، ليس سيئاً جداً، أليس كذلك؟ لقد كان بإمكانه أن يذبحنا جميعاً
 على يد فيالقه وأنت أولاً. أوه يا دوركاس، ماذا كنت سأصبح بدونك؟ هنا!
 هل أخبرك برأيي؟ لا تغضب، اسمعني: أفضل أن تؤخذ المدينة وتنفذ أنت.
 هذا خطأ بلا شك لكنني أحبك كثيراً يا دوركاس

وهكذا واصلت الزوجة الصغيرة على ذراع المحارب المهزوم. لَمْ يُجِبْهَا، بَلْ
رَاقَبَ الطَّيْرَ النَّارِيَّ الْمُتَّقِدَ مَا زَالَ يَنْزِلُ فِي الْفَضَاءِ. لكن جناحيه لم يعودا
يغطيان شيئاً سوى مدينة محكوم عليها بالعبودية. وعلى الشاطئ، أمام
قوس البحر المظلم، بكت الحوريات الصقلييات...

تمت بحمد الله.